الأدب السكندري

تأليف

دكتور / محمد حمدي ابراهيم

القـاهرة ١٩٨٥

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني
تليفون ٩٠٤٦٩٦

إهـــداء

الى زوجتى وأبنـــائى الأعـــزاء

Ad Uxorem meam et Filios Caros

تمهيد

بدأت فى اعداد هذا الكتاب منذ عام ١٩٧٢ حينما اضطلعت بتدريس مادة الأدب السكندرى لطلاب قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية آداب القاهرة • ومنذ ذلك الوقت وأنا أتهيب نشره لأنه من ناحية أول دراسة بالعربية عن هذه الفترة ، ومن ناحية أخرى لكثرة عدد كتاب هذا العصر وتعدد مؤلفاتهم وتنوع اختصاصاتهم واختلاف لهجاتهم • ولقد تطلب منى الأمــر الرجوع الى النصوص الاغريقية لهؤلاء الكتــاب والعكوف على دراستها ونقل شواهد منها الى اللغة العربية ، هذا بخلاف المراجع الأخرى المدونة بعدة لغات أجنبية • ورغم ذلك فلم أستطع أن أجمع بين دفتى هذا الكتاب كل الكتاب والمؤلفين بل اقتصرت على أكثرهم شهرة وتأثيرا ، واكتفيت بتحليل شوامخ أعمالهم دون الاغراق فى تفاصيل مملة حتى لا يتضخم حجم الدراسة وتفقد التركيز المنشــود •

وشجعنى على المضى قدما فى هذه الدراسة أنها تلقى الضوء على فترة هامة من تاريخ مدينة الاسكندرية ابان القرون الثلاثة السابقة على الميلاد ، حيث شهدت الاسكندرية أعظم فترات ازدهارها وصارت عاصمة للعالم القديم • ولم أقصر دراستى على الشعراء وحدهم بل تناولت كتاب النثر ورجالات العلم ايمانا منى بوحدة حضارة العصر والتحامها ، كذلك خصصت الفصل الأخير لخصائص الأدب الســكندرى فى حيز يسمح بالاستيعاب ولا يدعو الى التشتيت •

ويطيب لى فى هذا المقام أن أشكر زملائى أعضاء هيئة التدريس بالقسم وطلابى الذين وجدت منهم التشجيع والاستجابة طوال هــذه السنوات • وأخص بالشــكر زميلى الأستاذين د• فخــرى قسطندى ود• عبد الغفــار مكاوى ، فهما محبــان للدراسات الهيلنية ومثقفان

موسوعيان لقيت منهما خالص التعضيد بحماس منقطع النظير • كما لا يفوتني أن أسدى جزيل امتناني للصديق والزميل الأستاذ/مصطفى لبيب على معونته الكريمة في المساعدة على نشر هذا الكتاب •

وأتعشم في النهاية أن تكون هذه الدراسة ذات فائدة وعون لكل من الدارسين والمهتمين والمثقفين من بني وطني ، وأن تحقق الأمل المنشود منها • والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الصواب •

محمد حمدى ابراهيم

القاهرة في ١٩٨٤/٨/٣

مقـــدمة

ان عبقرية الأدب الاغريقى القديم وعظمته وأصالته ومكانته الفريدة بين آداب العالم قديما وحديثا ، حقيقة لا يحتاج اثباتها لعناء كبير : فلقد فرض هذا الأدب مكانته على مر العصور واستحوذ على اعجاب وتقدير مختلف الأمم والشعوب • ومن العسير على المرء أن يتصور أن هذه الجذوة الخلاقة من الفكر الاغريقى قد خبت فجأة أو خمدت جذوتها مع بداية العصر الهيلنستى ، حتى مع تسليمه بأن انتصار فيليب المقدونـــى Philippos ho Makedôn فى موقعة خايرونيا Chairôneia عام ٣٣٨ ق•م• كان عاملا أساسيا فى اخماد شعلة حضارة دولة المدنية Polis الاغريقية، وفى القضاء على الحرية السياسية وعلى الحياة الديمقراطية • والحق أن العقلية الاغريقية استمرت فى العطاء ولم تتوقف عن الابتكار : اذ أنجبت القرون الثلاثة السابقة على ميلاد السيد المسيح عددا من الأفذاذ المبدعين مثل ثيوكريتوس Theokritos شاعر الرعاة العظيم ، واقليدس Eukleidês عالم الرياضيات الشهير ، وبوليبيوس Polybios المؤرخ المدقق ، وكثير غيرهم من الأدباء والمفكرين والعلماء اللامعين فى كل فرع من فروع الأدب والمعرفة •

كذلك ظهرت فى هذه الفترة الزمنية فنون أدبية جديدة مثل فن كتابة الموسوعات والمعاجم وفن كتابة المقال والنقد الأدبى وكتابة السيرة biographia سواء على طريقة بلوثارخوس Ploutarchos بقص أفعال شخصية من الواقع التاريخى ، أو على طريقة فيلوستراتوس Philostratos بسرد أحداث قامت بها شخصية من صنع الخيال • كذلك ظهر فن الرواية التى كان موضوعها يدور عادة حول الحب والمغامرة وفن الابجرامة epigramma التى تحولت على أيدى شـــعراء

العصر من مجرد أبيات قصيرة منقوشة على شاهد قبر الى قصيدة وصفية مركزة تدور حول موضوعات شتى • وفى هذا العصر أيضا أصبح البحر الاليجى المثنوى — المكون من بيت فى البحر السداسى يعقبه بيت فى البحر الخماسى — قالبامفضلانظمت فيه معظمقصائدالحب السكندرية التى أقبل الرومان على محاكاتها بكثرة فى أشعارهم [1] •

من الاجحاف اذن أن نزن الأدب السكندرى بنفس ميزان الأدب الاغريقى القديم ، فلكل عصر ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تميزه وتؤثر على نتاجه الفكرى • ومن الظلم كذلك أن نحكم على الأدب السكندرى كله بالتكلف والصنعة لمجرد أن هذه كانت سمة من سمات العصر واتجاها عند كثير من شعرائه ، فلقد كانت هناك لمحات مشرقة فى أعمال أدبية كثيرة نجت من الوقوع فى مهاوى الحذلقة ومن الانحدار الى التكلف الممجوج • ولقد كان الاتجاه الى التكلف نتيجة لاتخاذ ميول اغريق العصر الهيلنستى مجرى جديدا لم يكن مقدرا لها أن تسير فيه ابان العصر الذهبى للحضارة الاغريقية • فالأدب الاغريقى القديم كان وليد عصر متميز وبيئة خاصة وكان نتاج ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية يندر اجتماعها بنفس الصورة فى مكان واحد ، أما الأدب السكندرى فكان نبتا فى بيئة من العسير أن تتمخض عن الابداع المتميز بيد أنها دفعت كثيرا من الشعراء الى التفقه والتخصص وجعلتهم أكثر دراية وحنكة بالفنون التى يؤلفونها • وأيا كانت وجهات النظر التى حاولت تقويم الأدب السكندرى فبوسعنا أن نؤكد أن هذا الأدب قد فتح آفاقا جديدة وابتكر أنماطا وفنونا لم تكن معروفة من قبل وأوجد ميادين واهتمامات جديدة وربط الشعر بالعلم دون أن يتصف بالتلقائية التىكانت طابعا للأدب الاغريقى القديم •

وان الفرق بين الأدب الاغريقى القديم وبين الأدب السكندرى يكمن فى أن الأول كان مستلهما من لقاء الاغريقى القديم بعناصر الطبيعة وجها لوجه ومن تفاعل الكتاب والأدباء مع الجماعة تفاعلا تاما ، فى حين أن

الثاني كان تعبيرا عن واقع اغريق العصر السكندرى الذين كانوا يحيون فى بلاد ليست بلادهم وفى مدن كبيرة نسبيا حالت بينهم وبين تأثير الطبيعة الملهمة الخلاقة • ورغم أن الأدب السكندرى — مع تعدد أنماط وطول فترة ازدهاره — يفتقر فى كثير من مؤلفاته الى الابداع المتميز السامى الا أنه يمكننا أن نلمح فيه ومضات خلاقة مشرقة وشحنات من العبقرية والأصالة تومض ما بين الفينة والأخرى بحيث يصبح من التعسف أن نصم جل انتاجه الفكرى بالتكلف والصنعة •

لقـد بدأ الأدب السكندرى بعد أن آذنت شمس الامبراطـورية الأثينية بالمغيب عقب هزيمتها مرة على يد منافستها العتيدة اسبرطة فى موقعة أيجوس بوتاموى Aigos Potamoi عام ٤٠٤ق٠م٠ على يد القائد الاسبرطى ليساندروس Lysandros ، ومرة أخرى فى موقعة خايرونيا فى اقليم بويوتيا Boiôtia عام ٣٣٨ق٠م٠ على يد فيليب المقدونى ، حينما رغبت فى تكوين تحالف يضم الدويلات الاغريقية فى مواجهة القـوى الأجنبية • وهكذا تبدد آخر أمل لأثينا فى البقاء صامدة أمام القـوى المتربصة بها وعلى رأسها قوة مقدونيا الصاعدة • وبعد أن ارتقى الاسكندر الأكبر Alexandros ho Megas عرش مقدونيا شهد العالم القديم عشر سنوات حافلة بالأحداث الجسام والفتوحات المتوالية التى كان الاسكندر الأكبر يندفع نحو انجازها بوحى من طموحه وبتأثير أفكار معلمة أرسـطو Aristotelês ، الذى لم يفقد ايمانه بحضارة دولة المدينة والذى كان يعتقد بأن الحضارة الهيلينية سوف تسود باقامة مراكز لازدهارها على شكل مدن اغريقية ، وربما كان الاسكندر الأكبر يستلهم كذلك أفكار الريتوريقى الشهير ايسوكراتيس Isokratês الذى نادى بأن الهيلينية نتاج الثقافة والفكر وليست نتاجا للمولد • وعلى أية حال فان القدر لم يمهل الاسكندر الأكبر حتى يرى امكانية تحقيق أحلامه وطموحاته ، اذ وافته المنية وهو فى ريعان شبابه فقضى نحبه عام ٣٢٣ ق٠م٠

وكان على مدينة أثينا بعد زوال سلطانها الغابر أن ترتضى مكرهة ديمتريوس الفاليرى Dêmêtrios ho Phalêreus حاكما عليها من قبل مقدونيا عام ٣١٧ ق.م. ومع أن الفاليرى كان فيلسوفا على قدر من الشهرة تبنى فكرة سيطرة الصدفة tychê على مصائر الموجودات ، ورغم أنه كان خطيبا مفوها ومثقفا موسوعيا يعنى بالفن والعلم والأدب وحاكما قويا ملأت تماثيله ربوع مدينة أثينا ، الا أن أثينا تحت حكمه فقدت روحها الأصيلة وتدهورت عقيدتها الدينية وأحوالها الاجتماعية والفكرية نتيجة لانعدام الحرية السياسية. فمع وجود المتناقضات ومع الولع بالحسيات ومع الاقبال على ألوان الترف والانغماس فى الملذات ، اهتزت القيم فى فكر الأثينى وتفككت حياته الأسرية وفقد حبه للطهارة والفكر الصافى . لقد لاقت أثينا رواجا تحت حكم الفاليرى كموطن للفن والذوق الرفيع لكنها فقدت شخصيتها العظيمة وحضارتها العريقة مع فقدها للديمقراطية .

لقد اعتقد اغريق العصر الهيلنستى أن آلهتهم قد تخلت عنهم نتيجة للأحداث الجسام والمحن التى مرت بهم : فلقد شاهدوا طيبة وهى تدمر تدميرا على يد مقدونيا ويصبح أهلها عبيدا أو كالعبيد ، وشاهدوا أنتيباتروس Antipatros وهو ينفى نصف سكان أثينا قسرا وكرها . وحينما يعيش اغريق العصر الهيلنستى فى معمعة من القتال المستمر ومن الحروب التى تبدو كأنها لن تنتهى ، ووسط قعقعة السلاح التى تصم الآذان ولا يعرف أحد فيها على وجه اليقين ماذا سيسفر عنه الغد ، فلابد وأن تهتز مع هذه النكبات صورة الآلهة فى فكرهم . فلم تعد هذه الآلهة فى رأيهم هى التى تحكم العالم ، بل غدت الصدفة هى المتحكمة فى مصير البشر أجمعين ، وصارت هى المهيمنة أيضا على الأرباب .

ولم تكن العقيدة الدينية فقط هى التى دب فيها الوهن وتطرق اليها الضعف فى هذا العصر ، بل ان دور الفرد فى المجتمع قد أصابه التغير كذلك : فقديما كان الفرد مجرد عضو فى جماعة تتلخص الحياة

السعيدة بالنسبة له فى أداء وظائفه وفى القيام بواجباته نحو الجماعة التى ينتمى اليها ، حيث أنه يزدهر بازدهارها ويشقى لتدهورها : اذ كان الاغريقى فى مدينة أثينا يعتقد أن من الأفضل له أن يحيا فقيرا فى مدينة عظيمة من أن يحيا ثريا فى مدينة خاملة الذكر — لكن فتوحات الاسكندر الأكبر قلبت هذه المفاهيم رأسا على عقب باحلالها الدولة الكبرى محل الدويلة ذات الحيز المحدود ، ولم يعد الفرد مطالبا بأداء واجبات ذات بال نحو الدولة ولم يعد يحس بالانتماء القوى نحو المجموع كما كان يحس به قبلا • وبدلا من شعور الفرد بالأمان خلف جدران مدينته تولدت لديه فى العصر الهيلنستى رغبة فى الانتماء واسع النطاق على مستوى العالم القديم بأسره ، وبدلا من شعوره بالواجب وبالالتزام تجـاه مواطنى دويلته أصبح يحس بمشاعر التعاطف والاخاء نحـو الجنس البشرى عامة •

هذه التغيرات الحاسمة جعلت الأدب فى العصر الهيلنستى مهنة بعد أن كان مجرد هواية فى عصر ازدهار أثينا ، ذلك أن كل فرد قد أصبح له دور محدد يؤديه ولم يعد ملتزما تجاه الدولة بشىء يذكر ، ومن هنا بدأت شخصيته فى الظهور واتجهت ذاتيته الى الاستقلال • ونتج عن ذلك أن الكتاب شعراء وناثرين اتخذوا الأدب مهنة لهم ، مما جعلهم على المدى البعيد أكثر دراية بأصول فنهم وأكثر حذقا لقوانينه • ومع أن الأدب قد استفاد كثيرا من وجود هذه الظاهرة فى مجال الصقل واتقان الشكل ، الا أنه فقد واحدا من أهم مقوماته ألا وهو الصدق فى التعبير كما غابت عنه التلقائية مفسحة المجال للصنعة المفرطة •

كذلك كان لفتوحات الاسكندر الأكبر أثر كبير فى ولع أدباء العصر الهيلنستى بالبحث والتنقيب عن الجديد : فلقد وجد المستكشفون شعوبا جديدة وبلادا ذات عادات مغـايرة أو غريبة ، فطفق كتـاب التاريخ والجغرافيا يكتبون عنها ويصفون طبيعتها وغرائبها ، ولقد أفاد الأدباء من هذه الكتابات وظهرت ملامحها فى أعمالهم • ومما ينهض دليلا على

ولم أدباء هذا العصر بالجديد أنهم — باستثناء قلة منهم — لم يتحمسوا للتأليف في الفنون التي طرقت من قبل في العصر الكلاسي ، بل عزفوا عنها وحاولوا ابتكار فنون أخرى جديدة أو تطوير فنون قديمة بحيث تغدو كالجديدة • فلقد أدركوا بفطنتهم أن الظروف التي خلقت الروائع الأدبية الكلاسية لن تتكرر ، وأن من العبث تبعا لذلك محاكاة الشوامخ الذين أبدعوها ، ناهيك عن منافستها أو التفكير في التفوق عليها •

وكان لهجرة الاغريق من وطنهم الأم الى الممالك الهيلنستية — سعيا وراء الثروة أو رغبة في المغامرة أو طمعا في الخدمة بصفوف الجند المرتزقة — أثر في اندثار شعورهم بالوطنية والولاء تجاه مسقط رأسهم: اذ افتقدوا معالم وطنهم القديم وصورة معابد الهتهم العتيقة وقدسيه مجالسهم الشعبية وجلال منظماتهم السياسية ، ولم يعد هناك ما يربطهم بالأقطار الجديدة التي استوطنوها ولا بحكامها سوى مجرد المصلحة والمنفعة • ونتيجة لذلك ظهرت في أدب هذا العصر ظاهرة أفسدت جماله وشوهت صورته ، وأعني بها ظاهرة الملق التي وجدت كنتيجة حتميـة لحرص معظم الأدباء على التقرب من الملوك والأمراء وعلى التنعم في بلاطهم وقصورهم وعلى الظفر بما يغدقونه عليهم من هبـات وعطايا وأموال • ومن البديهي أن يسبح الشاعر بحمد ملك يعيش معززا في كنفه ويحيا مترفا في ظل نعمته •

ولكن تملق هؤلاء الشعراء قد بلغ درجة مرذوله من التبذل وحدا كبيرا من المبالغة المقوتة : فنجد أحد شعراء البلاط المغمورين في مقدونيا يجعل من أنيتجونوس الأعور ابنا للشمس مما حدا بالأخير الى السخرية منه ، ونجد جماعة من الشعراء تتسابق في تظرف ممجوج الى التغزل في جمال شعر الأميرة المقدونية استراتونيقي Stratonikê رغم علمهم بأنها صلعاء ، وعندما يكتشف العالم الفلكي كونون Konôn مجموعة النجوم بجوار الدب الأكبر (Arktos = L. Ursa Maior) يعلن من فوره أنها الخصلة التي قصتها برنيقي Berenikê — زوجة الملك بطلميوس

الثالث يورجيتيس — من شعرها ونذرتها قربانا للآلهة لدى عودة زوجها سالما من حربه فى سوريا ، وعقب هذا الاعلان نجد الشعراء يتخذون منه ذريعة لتمجيد تلك الخصلة المقدسة ويعلنون أنها حزينة لتركها الرأس الملكى رغم رفعها الى مصاف الأرباب ، ثم نجد كاليماخوس Kallimachos — شاعر البلاط الرسمى — يصور لنا الاله أبوللون Apollôn وهو يطلب من الربة ليتو Lêtô — وهو ما زال بعد جنينا فى رحمها — ألا تلده فى جزيرة قوص Kôs ، لا لشىء الا لأنها ستكون فيما بعد مسقط رأس الملك بطليموس الثانى فيلادلفوس •

ولقـد مر الأدب فى العصر الهيلسنتى بفترتين زمنيتين متميزتين تبدأ الأولى منهما بموت الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق•م• وتستمر حتى اعتلاء بطليموس الثانى فيلادلفوس للعرش عام ٢٨٥ ق•م• ، وهى فترة ارهاص تمخضت فيما بعد عن مولد الأدب السكندرى • ويمكن أن نطلق على هذه الفترة اصطلاحا اسم فترة ما قبل العصر السكندرى[٣] : ذلك أن مدينة الاسكندرية ابانها لم تكن قد اتخذت بعد ما أصبح لها من مكانة وتأثير بين العواصم والمراكز الأدبية الأخرى التى تفوقها قدما فى حوض البحر المتوسط ، كذلك لم تكن قد اجتذبت بعد المشاهير من رجالات الأدب واللامعين من العلماء والفنـانين الذين كانوا مستقرين آنذاك فى تلك العواصم والمراكز الأدبية ، كما لم تكن مؤسساتها الثقافية الشهيرة قـد اسهمت بعد فى مد الأدباء والدارسين بزاد وفير من النصوص الأدبية والأبحاث والدراسات •

أما الفترة الثانية فيمكن تسميتها باسم فترة الأدب السكندرى ، وهى تبدأ من حوالى ٢٨٥ ق•م• حتى موقعة أكتيوم Aktion عام ٣١ ق•م• وهى فترة شهدت انتشار الحضارة الهيلينية فى حوض البحر المتوسط وتحول هذه الحضارة بعد اختلاطهـا بحضارات الشرق القديم الى ما عرف باسم الحضارة الهيلنستية ، وتطورت ابانها اللهجة الأتيكية الى لهجة عامة Koinê dialektos الحديث والتخاطب ،

وتسيدت خلالها مدينة الاسكندرية مراكز الأدب والثقافة حتى صارت عاصمة العالم القديم . ويمكننا تقسيم فترة الأدب السكندرى (٢٨٥ ـــ ٣١ ق.م.) من حيث روعة الانتاج الأدبى وتميزه الى مرحلتين متباينتين: أولاهما من ٢٨٥ ـــ ٢٢١ ق.م. وفيها بلغ الأدب السكندرى أوج ازدهاره وشهد عصره الذهبى ولقى من الملوك البطالمة أكبر تشجيع ، والمرحلة الثانية من ٢٢٠ ـــ ٣١ ق.م. وخلالها بدأ نجم الأدب السكندرى فى الأفول ومكانة مدينة الاسكندرية كعاصمة للعالم القديم فى التدهور .

وكان العالم الهيلنستى ابان هذه المرحلة الأخيرة يتأرجح بين رد فعل المقاومة الشرقية للتأغرق وانتصار الحضارة الهيلنستية وبين نجم روما الآخذ فى الصعود ونفوذها المتزايد وتدخلها فى شئون الممالك الهيلنستية ، ذلك التدخل الذى بدا سافرا على أيام البطالمة الأواخر فى مصر وفى عهد أسرة أتالوس Attalos الحاكمة فى برجامون Pergamon . ورغم أن هذه المرحلة المذكورة من مراحل الأدب السكندرى قد شهدت ظهور كتاب نابهين مثل المؤرخ المدقق بوليبيوس والشاعر اللامع ملياجروس Meleagros ، الا أن الانتاج الأدبى فيها كان بوجه عام أقل روعة وأدنى منزلة بسبب تدهور أحوال الممالك الهيلنستية وضعف الملوك الحاكمين الذين كانوا يشجعون الآداب والفنون ويضعون الكتاب تحت رعايتهم .

ولسوف نحاول فى هذا الكتاب أن نعرض للأدب فى العصر الهيلنستى عرضا مركزا بحيث يشمل الفترتين المذكورتين : فترة ما قبل العصر السكندرى وفترة الأدب السكندرى ، وبحيث يتم فيه تناول كل من الشعراء وكتاب النثر ، الأدباء ورجالات العلم ، وكذلك المؤسسات الثقافية التى اشتهرت بها مدينة الاسكندرية وهى المكتبة Bibliothêkê والموسيون Mouseion . ونحن نضع فى اعتبارنا ونحن نتصدى لهذه المحاولة أن تراث العصر الهيلنستى من أدب وعلم لم يزدهر فقط

فى مدينة الاسكندرية ، بل ساهمت فى انتاجه مراكز أدبية أخرى أقدم وأعرق : مثل مدينة أثينا التى احتفظت بمركزها الأدبى رغم زوال سلطانها السياسى ، وبلاط بيللا Pella عاصمة مقدونيا ، وبرجامون ، وسوريا ، وجنوب ايطاليا ، وساحل آسيا الصغرى والجزر المتاخمة له ، مثـل ساموس Samos ، ورودس Rhodos • ولكن رغم وجود هذه فى شبه جزيرة البيلوبونيس Peloponnêsos وقوص ، وأماكن متفرقة المراكز المتعددة فان الاسكندرية هى التى احتلت المكانة الأولى بينهـا جميعا خصوصا منذ أن تسلم العاهل الكبير بطليموس فيلادلفوس مقاليد الحكم : فلم يتوفر للأدب ورجاله امكانيات أو تشجيع أو رعاية وحدب مثل الذى توفر لهم فى مدينة الاسكندرية ، وقلما نجد شاعرا أو كاتبا شهيرا من ذلك العصر لم يزر مدينة الاسكندرية أو يقم بها ماخلا الشاعر الفلكى أراتوس Aratos ، والشاعر يوفوريون الخالكيدى Euphoriôn ho Chalkideus ، وربمـا ليونيـداس التارنتـى Leônidas ho Tarantinos • من أجل هذا فرضت الاسكندرية على أدب العصر الهيلنستى اسمها كما فرضت عليه طابعها وتقاليدها الفنية ، لدرجة أن النقاد عن بكرة أبيهم قد اتفقوا على تسمية الأدب باسم السكندرى ، فى حين أنهم يطلقون اسم الهيلنستى على كل من التاريخ والحضارة •

لذلك لن تقتصر دراستنا على تراث الاسكندرية فحسب بل سنتعرض أيضا لما تركته كافة المراكز الأدبيـة سالفة الذكر ، كما سنختم هـذه الدراسة بفصل خاص تقييمى نعرض فيه لخصائص الأدب السكندرى ومقومات العصر الهيلنستى ، ولسوف يتم استخلاص هذه الخصائص من مؤلفات الأدباء والكتاب حتى يمكن بعد استقرائها وفى ضوئها معرفة سمات الأدب السكندرى والمؤثرات التى حددت أهم ملامحه واتجاهاته•

* * *

« حــواشى المقـــدمة »

(١) مما لا شك فيه ان شعراء الرومان قد نهجوا فى قصائدهم المنظومة فى البحر الليجى المثنوى نهج شعراء الأدب السكندرى وخاصة الشـــاعر الاشهر كاليماخوس . ورغم هذه الحقيقة فإن كونتيليانوس Quintilianus — معلم الريتوريقا الرومانى الذى عاش في القرن الأول الميلادى — تدفعه الحماسة والوطنية الى المبالغة فيقول :

« حتى فى الإليجية نتحدى الإغريق « elegià quoque Graecos provocamus »

انظر : Institutio Oratoria, X, i, 93.

(٢) افدت كثيرا فى التحديد الزمنى لعصور الأدب السـكندرى من الدراسة القيمة التالية لأستاذى :

M. M. Salamouni, An Attempt for Defining the « Alexandrian Period » as an Independent Era of Greek Literaturé, Cairo (1955).

الفصل الأول

فترة ما قبل العصر السكندرى

(٣٢٣ ـ ٢٨٥ ق٠م٠)

حقبـــة الانتقـــال

(٣٢٣ – ٣٠٢ ق٠م٠)

حفلت هذه الفترة بتطورات سياسية هامة ، كما تميزت بظهـــور مدارس متعددة للفلسفة تحاول كلها أن تضع أمام اغريق العصر الهيلنستى تصورا فكريا محددا يستطيعون به مواجهة ظروف عصرهم واستيعاب متغيراته المتلاحقة • ولقد كان كتاب هذه الفترة رغم قلتهم معبرين عن الروح الهيلنستية خير تعبير وقادرين فى معظم الأحيان على الاحاطـة بكنه ما يدور حولهم •

ثيوفراستوس :

وفى طليعة هؤلاء ثيوفراستوس Theoprastos (٣٧٢ – ٢٨٧ ق٠م٠) الذى كان تلميذا فى ليكيون Lykeion أرسطو وخلف أستاذه فى زعامة مدرسة المشائين Peripatêtikoi • وكان ثيوفراستوس شغوفا بالنباتات والمزروعات ، فرغم أنه كان متعدد الميول والاهتمامات وألف أعمـالا كثيرة فى الريتوريقا والسياسة والأخلاق والميتافيزيقـا والتاريخ الطبيعى ، الا أن أهم أعماله كانت فى علم النبات • وكان عمله الأول فى هذا المجال يحمـل اسم « عن أسباب الانبـات » Peri Phytikôn Aitiôn وهو مكون من ست كتب ، أما الثانى فأسماه « عن تاريخ النباتات » Peri Phytikôn Historias فى تسـع كتب • ومن هذين العملين يتضح منهج ثيوفراسنوس العلمى فى التصنيف حيث يقسم أجزاء النبات الى جذر وساق وفروع وأغصـان وأوراق وأزهار وثمار ، كما يصنف كل أنواع النباتات الى أشجار وشجيرات وأيكة وعشب ، ثم يتحدث بعد ذلك عن الفوائد الطبية للنباتات [1] • ومن أعمال ثيوفراستوس الهامة أيضا كتابه الطـريف « طبـائع الشخصـيات »

Ethikoi Charaktêres : فعلى الرغم من صغر حجمه الا أنه يزخر بتحليل نفسى بارع وملاحظات دقيقة ووصف حيوى ونقد لاذع لثلاثين شخصية ينم رسمها عن ذكاء وفطنة • ولقد ربط البعض بين هذا الكتاب وبين مسرحيات مناندروس لما بين الكاتبين من تشابه فى المقدرة على رسم الشخصية ببراعة (٢) •

أرستو كسينوس :

ومن الكتاب النابهين أيضا أرستوكسينوس Aristoxenos (ازدهر حوالى ٣١٠ ق•م•) الذى نافس ثيوفراستوس — بعد وفاة أرسطو — على زعامة مدرسة المشائين ، وعندما خسر المعركة ثارت ثائرته وهجا ثيوفراستوس هجاء مقذعا • ولم يبق لنا من الأعمال العديدة التى ألفها أرستوكسينوس سوى كتابه الهام عن الموسيقى الاغريقية وعنوانه « العناصر الهارمونية » Stoicheia Harmonika فى ثلاثة مجلدات • وكذلك عدة شذرات — أهمها من الكتاب الثانى — من مؤلف آخر بعنوان « عناصر النغم » Rhythmika Stoicheia (٣) • ويبدأ أرستوكسينوس كتابه « العناصر الهارمونية » بتعريف الموسيقى تعريفا علميا دقيقا ، ويرى أن أهم شىء فى هذا المجال هو تصنيف التغيرات المختلفة للصوت Phônê التى تتكون منها أجزاء السلم الموسيقى ، وأن الخطوة التالية لذلك هى التدوين الموسيقى • ويصنف أرستوكسينوس السلم الموسيقى عند الاغريق الى ثلاثة أنواع : النوع الامتدادى to diatonon genos ، والنوع التلوينــى to enarmonion genos ، والنوع الهارمونى to chromatikon genos • وفى المجلد الثانى يوضح أرستوكسينوس أن الهارمونية ليست لها غاية أخلاقية مثل الفلسفة ولكنها أمر ضرورى لمهنة الموسيقى وتتصل اتصالا وثيقاً باعداده ، كما أنها مرتبطة بحاستين لدى الانســان هما السمع والادراك • أما فى المجلد الثالث فيتناول المؤلف نحــوا من ست وعشرين مبحثاً Problêmata موسيقياً يعالجها على طريقة اقليدس الرياضية(٤) •

مناندروس :

أما أشـــهر كتاب هـــذه الفترة قاطبة فهو مناندروس Menandros (٣٤٢ – ٢٩١ ق٠م٠) ، كاتب الكوميديا الذى كان تلميذاً لثيوفراستوس وصديقاً للفيلسوف أبيقور، والذى ظل طوال حياته فى مدينة أثينا لا يبرحها رغم تكرر دعوة الملك بطلميوس الأول سوتير Ptolemaaios ho Sôtêr له بأن يتخذ من الاسكندرية مستقراً ومقاماً بما فى ذلك من اغراءات مادية • ولقد كان الحظ قاسياً على مناندروس ، اذ ضاعت أعماله دون أن تصل الى العصور الحديثة ، ولكن رمال مصر الرحيمة حفظت قدراً كبيراً من أعمـــاله المفقودة مدوناً على عدة لفائف من الأوراق البردية مما دفع النقاد الى أن يطلقوا عليه لقب « ابن رمال مصر »[٥] •

وأهم مسرحيات مناندروس : فتـــاة ساموس Samia ، المزارع Geôrgos ، البطـــل Hêrôs ، الشـــبح Phasma ، الفتاة مقصوصة الشـــعر Perikeiromenê ، المحكمون Epitrepontes ، الممقوت Misoumenos ، الشرس Dyskolos [٦] • وكان مناندروس كاتباً يتميز بالواقعية والبراعة فى رسم الشخصيات واتقان الحوار والحبكة المسرحية ، فلقد استغل ظروف مجتمعه المتدهور وركز عليهـــا محاولا ايجاد حل لها وعلاج لتخفيف حدتها ، ووجد فى قضـــية الأطفال اللقطاء المنبوذين فرصة لاظهار براعته فى استغلال عنصرى التحول Peripeteia والاكتشاف anagnôrisis ، وهما العنصران اللازمان لنجاح الدراما[٧] •

ولقد اتبع مناندروس فلســـفة أبيقور فى مسرحياته فجعل الصدفة tychê هى المتحكمة فى حياة البشر ومصائرهم ، وبذلك عبر بأمانة عن فكر الاغريق فى عصره ورسم صـــورة واقعية للحيـــاة فى مجتمعه • وهنـــاك مجموعة من الأقوال المأثورة جمعت من أعمـــاله تحت عنوان « الحكم ذات السطر الواحد » Gnomai Monostichoi ، ويرجع الفضل

فى حفظها وتداولها الى باحثى بيزنطة • ومن الأفكار الخاصــة التى تبناها ماناندروس فكرة طريفة تدل على ايمانه بالمجموع : فهو يقول : « ان معرفة الآخرين هى الأجدى » ، معارضا بذلك حكمة الاغريق القدامى « اعرف نفســك gnoth sauton »[8] • ولقد أعجب كتاب ونقاد العصرين السكندرى والرومانى بصدق ماناندروس وواقعيته ، فوضعه الناقد أرســتوفانيس البيزنطى Aristophanès ho Byzantios فى المرتبة الثانية بعد هوميروس ، وقال فى معرض التعبير عن واقعيته : « أى ماناندروس ، أيتها الحيــاة : ترى من منكما قلد الآخر ؟ »[9] • أما الناقد الرومانى كونتليانوس فقد أكد أن دراسة تحليلية دقيقة لأعمال ماناندروس يمكن أن نوجد لنا خطيباً مفوهاً[10] • لقد برع ماناندروس ككاتب مسرحى فى رسم شخصياته بمهارة ونجح فى خلق الارتباط بين كل شخصية وأخرى بطريقة محكمة بحيث تبدو العلاقة بين الشخصيات طبيعية ومقنعة •

مدارس الفلســفة :

(أ) الأبيقورية :

وفى طليعة مدارس الفلســفة التى كانت ســائدة ومزدهرة فى تلك الفترة نجد مدرســة الأبيقوريين Epikoureioi ، التى أسسها الفيلسوف أبيقور Epikouros (٣٤١ — ٢٧١ ق٠م٠) وعرفت باسم مدرســة الحديقة Kêpoi • ونلمح فى مؤلفات أبيقور شــدة تعاطفه مع الجنس البشرى : اذ فتش بصبر وأناة داخل أعماق الانســان ولم يدخر وســعاً فى البحث عن فكره وكنــه عواطفه وأهوائه ، وحاول بفلسفته أن يكون مرشداً للانســان الى الطمأنينة — مثلما حاول أفلاطون من قبل أن يكون هادياً له الى الحكمة ومثلما حاول أرسطو أن يقوده الى طريق المعرفة[11] •

ولقد تحولت الفلســفة فى عصر أبيقور تحت تأثيرات اجتماعية

وسياسية عديدة من النظـرية الى التطبيق ومن العقلانية المجردة الى دراســة السلوك ، وأصبحت غايتها أن تجد للبشر ملاذاً آمناً من معاناتهم فى خضم الحياة المضطربة • غير أن أبيقور لم يهتم فقط بعلم الأخلاق بل امتد اهتمامه كذلك الى علوم أخرى مثل الطبيعة والفلك • ففسر نشأة الوجود على أنها تمت بتلاقى الذرات المتحركة عن طريق الصدفة المجردة ، وهو يرى أن لهـذه الذرات حركتها الآلية وسرعتها المتســاوية[١٢] • ومعيار الحقيقة عند أبيقور هو دائماً الاحساس ، وكل احساس صادق بالضرورة : والصواب والخطأ عنده لا يرجعان الى الاحساس بل الى الحكم العقلى الذى يقع على الاحساسات[١٣] • ويبلور لنا الفيلسوف مذهبه السلوكى بشرحه لمبدأ اللذة hêdonê التى يعتبرها أساساً لسعادة الانســان ، واللذة عنده هى الخلو من الألم الجســمانى aponia بحيث تحاول الانتهاء الى الخلو من الهموم النفســية ، أو الوصول الى الطمأنينة ataraxia [١٤] • وكان شــعار المدرسة الأبيقورية يدل دلالة واضحة على رغبة صادقة ترمى الى تخليص الفرد من كافة مخاوفه التى تؤرق حيــاته كالموت والخوف من الآلهــة وفكرة الشر والخير ، وهــذا الشعار يتلخص فى العبارة التالية :

« لا خوف من الاله •• لا احســاس بعد الوفاة •• الخير يمكن اكتسابه • والشر يمكن اجتنابه » • وهــذه نقرات مختارة تكشف لنا عن فكر أبيقور[١٥] :

— « حقا ان هناك آلهة ومعرفتهم بادية للعيان ، ولكنهم ليسوا كما يتصور العامة من الناس •• » •

— « ليس للكائن الأسمى panaristos أن يزعج نفسه أو يزعج غيره من المخلوقات ، اذ هو منزه عن نوازع الغضب والتحيز ، ومثل هذه النوازع خليقة بالضعفاء •••» •

ـ « ان الموت ليس بذى خطر بالنسبة لنا : لأنه بعد تحلل الجسد الى عناصره الأولية فلا وجود حينئذ للاحساس ، وما لا يحس ليست له قيمة بالنسـبة لنا ••• » .

ـ « كل من الشاب والشيخ قادر على اكتساب الحكمة ، لأن الحكمة مثل السـعادة لا سن معينة لها ••• »

ـ « بعض رغبات الانســان طبيعى وضرورى (مثل المأكل والمشرب والنوم) ، وبعضها الآخر طبيعى ولكنه غير ضرورى (مثل الجنس والملذات الحسية) ، وما عدا ذلك فهو ليس بطبيعى ولا بضرورى (مثل حب الترف والتنعم) ولكن وجوده ناتج عن رأى فارغ وفكر مضلل ••• »

ـ « ان اللذة hêdonê هى غياب الألم عن الجسم والقلق عن النفس ••• »

ـ « ليست هناك لذة فى حد ذاتها شريرة[٢٠] ، ولكن ما يسبب بعض اللذات أو يجلبها يكون مصدراً للمعاناة أكثر من اللذة نفسها ••• »

ـ « ان قمة اللذة هى غياب الألم aponia ، فمن يتمتع باللذة يختفى لديه الشـعور بالألم سواء فى الجسم أو فى العقل أو فى كليهما معاً طالمـا اللذة قائمة ••• »

ـ « حينما نقول ان اللذة هدف وغاية فلسنا نقصد بذلك اللذات الحسية المفرطة ، كما فهم البعض ذلك اما عن جهل أو فهـم مسـبق أو خلط متعمد ••• »

ـ « اللذة ليست اسرافاً فى الشرب والمجون ، وليست نهامة فى الجنس ، وليست تكالباً على الطعام الفاخر وانغماساً فى الحياة الموسرة • ولكنها تعقل حكيم وبحث صادق عن أساس لكل رفض ولكل اختيار ••• »

(ب) الرواقيـــة :

وكان الرواقيون Stôikoi يؤلفون مدرســة فلسفية مناهضــة للمدرسة الأبيقورية . أما مؤسس مدرستهم فهو الفيلسوف زينون من كيتيون Zênôn ho Kitieus (٣٣٣ — ٢٦١ ق٠م٠) الذى ولد فى بلدة كيتيون بجزيرة قبرص ٠ ولم يتبق لنا من مؤلفات زينون ما يكفى للحكم على مقدرته الفلسفية ، ولكن ديوجينس لائيرتيوس Diogenês ho Laertios — صاحب الكتاب الهام والمشهور عن « حياة الفلاسفة » — يخبرنا بطريقته الفذة فى تكوين فكر طلابه كى يتبعوا النهــج القويم ويتجنبوا طريق الرذيلة ٠ ولقد أعجب هــذا العصر والعصور التاليــة بفلســفة زينون وأشادوا برواقه المزخرف Stoa Poikilê الذى اتخــذه مقراً لمدرسته ، وأطلقوا عليه لقب البجعة الحكيمة[١٦] ٠ فلقد ألف الشاعر السـكندرى أنتيباتروس الصــيدى Antipatros ho Sidônios ابجرامة يرثى بها زينون تدل على شدة اعجابه بفكره ، وهى كالتالى[١٧] :

« هنا يرقد زينون العظيم ، العزيز على (بلده) كيتيون ، والذى هرع الى الأوليمبوس ٠ غير أنه لم يضــع جبل بيليون فوق أوسا ، ولم يقم بأعمال مثل أعمال هيراكليس ، بل وجد طريقه الى النجوم فى الاعتدال فحسب » ٠ أما ديوجينس لائيرتيوس فقد أثنى عليه بما يلى[١٨] : « رغيف واحد وتينه لطعامه والمــاء شرابه ٠ فلقد ابتدع فلسفة جديدة وهى أن يعلم احتمال الجوع وبذا يكتسب التلاميذ » ٠

لكن المدرسة الرواقية طورت كثيراً من تعاليم زينون : فبعد موته خلفه الفيلسوف كليانثيس Kleanthês من بلدة أسوس Assos ، الذى اشــتهر بأناشيده الدينية ذات المسحة الصوفية ٠ ولعل أشــهر هذه الأناشيد هو نشيده عن زيوس ، فقد نال اعجاب القديس بولس ٠ ومن

ترجمة الأبيات التالية يمكننا أن نلمس روح التدين والتوقير التى اصطبغت بها الفلسفة الرواقية على يد هـذا الفيلسوف[١٩] :

« أى زيوس ، يا أجل الآلهة الخالدين ، يا متعدد الأسماء ، يا فائق القدرة على الدوام ، أيها المهيمن على الطبيعة ، ويا حاكم كل الموجودات بالقانون : سلاماً وتحية • اذ يحق على جميع البشر الفانين أن يضرعوا اليك ، فلقد وهبت صورتك لجميع الفانين وجعلت على مثالك كل ما يدب على الأرض ويتحرك • لذا سأتغنى بك دائماً وأمجد قوتك • ان كل هذا العالم الذى يلف حول الأرض انما يذعن لك كى تقوده ويخضع طوعاً لسلطانك • وكل ما تملكه يأتمر بأمرك ويتم على يديك ، وكذا يذعن لك البرق النارى المتأجج على الدوام ، والذى بمثل سرعته قمت بخلق كافة الموجودات فى الطبيعة • فأنت المليك الأكبر المهيمن على الكون الى الأبد ، ولا يحدث شىء فى الأرض ولا فى الفضاء القدسى ولا فى البحر بدونك ، فيما عدا ما يقوم به الأشرار من فعال نتيجة طيشهم • غير أنه لا يغرب عن علمك شىء : تؤلف ما افترق ، وتنظم ما تناثر ، وتكيف الخيرات على قدر الشرور ، وكل شىء عندك بحساب وقدر » •

ثم خلف كليانثيس الفيلسوف الشهير خريسيبوس Chrisippos (٢٨١ — ٢٠٤ ق٠م٠) الذى أثرى الرواقية بعلمه الغزير وأبحاثه القيمة ، مما حدا بديوجينس لائيرتيوس الى القول « لولا خريسبوس ما وجد الرواق ! » [٢٠] • ولقد تحمس الرومان للفلسفة الرواقية تحمساً شديداً لأنهم وجدوا فيها ما يؤكد مبادىء مجتمعهم التى تنادى بتقديس الواجب واحتمال المشـــاق والصبر على الشدائد والتضحية فى سبيل المجموع ومن أجل المبدأ • وكان أينياس Aeneas بطل أينيدة فرجيليوس خير مثال للرواقى الصميم الذى يضع الواجب دوماً نصب عينيه : فلقد حمل أباه العجوز على كتفيه وصان رموزه المقدسة وضحى بحبه وتحمل مشاقاً عديدة وخاض حروباً وذاق أهوالا جساماً فى سبيل تحقيق الهدف المنشود ومن أجل الواجب الذى ألقته الآلهة على عاتقه •

(جـ) الكلبيـــة :

أما مدرســـة الكلبيين Kynikoi فقد أسسها الفيلسوف أنتيستينس Antisthenês ، الذى ولد حـــوالى عام ٤٤٥ ق٠م٠ وكان صديقاً للفيلسوف الأشـــهر سقراط • وكان أنتيستينس يعتبر أن الفضيلة هى الأساس الأوحد للســـعادة ، وأنه لكى تتحقق هذه الســـعادة فان على الانســـان أن يتحرر من رغباته ومن الغرائز التى تســـيطر عليه • لذلك كان أنتيستينس يعزف عن تناول الأطعمة الفاخرة ويحرم نفســـه من التنعم ، ويمقت أفروديتى لأنها مصدر الحب الذى يســـتولى على الانســـان ويستعبد ارادته ، ولأنها أساس الغرائز التى تبعد البشر عن الفضـــيلة • وكان يتخذ هيراكليس نموذجاً يحتذى فى قوة الاحتمال والصبر على المشاق(٢١) •ولقد أسس أنتيستينس مدرسته فى «معهد التربية» gymnasion الذى كان يقع فى منطقة كينوسارجيس Kynosarges الواقعة شرق مدينة أثينا ، حيث كانت توجد مقبرة البطل هيراكليس • وربما سميت المدرسة الكلبية بهذا الاسم نظراً لوقوعها فى هذا المكان(٢٢) •

ولقد خلفه تلميذه الفيلسوف الشـــهير ديوجينس Diogenês (٤٠٠ — ٣٢٥ ق٠م٠) ، من بلدة ســـينوبى Sinôpê التى تقع على البحر الأسود • ولقد أمضى ديوجينس الشطر الأعظم من حياته فى مدينة أثينا الى أن رحل عنها الى كورنثة حيث توفى حوالى عام ٣٢٤ ق٠م٠ ويعتبر ديوجينس الممثل الحقيقى للمدرســـة الكلبية ، اذ أعطى لها كل ما غدت تتصف به من ســـلوك وأفكار • ولقد توصل الى ذلك طوراً بسلوكه الغريب الذى كان بلا ريب يبدو شاذاً فى نظر معاصريه ، وطوراً بأقواله اللاذعة التى غدت مضرب الأمثال • ولقد دفع هذا القدماء الى أن ينسجوا حوله النوادر والأقاصيص مثل حكايته الشهيرة مع الاسكندر

الأكبر ، ومثل قصـــة حمله لمصباح فى وضح النهار ، ومن أنه كان يقضى معظم وقته داخل وعاء كبير من الخزف(٣٣) .

وهناك فيلسوف اخر يمثل اتجاهاً خاصاً داخل المدرسة الكلبية هو كراتيس الطيبى Kratês ho Thêbaios (٣٦٥ — ٢٨٥ ق٠م٠) ، الذى كان تلميذاً لديوجينس وكان يملك ثروة طائلة ولكنه تبرع بها لمدينته واختار حياة التقشف والفقر • وتزوج من هيبارخيا Hipparchia التى حذت حذوه فتركت خلفها الثراء وحياة الدعة ، وكان كراتيس أستاذا لزينون مؤسس المدرسة الرواقية • ولقد ألف كراتيس أشعاراً هجائية الطابع زاخرة بالسخرية وقصـــيدة بعنوان « حقيبة الشحاذ » Pyra يصف فيها نعيم الكلبيين وســعادتهم بالحياة الفقيرة(٣٤) .

(د) مدرســة الشكاك :

أما مدرســـة الشكاك Skêptikoi (حرفيا : المتفكرين) فقد تم تأسيسها قبل المدرستين الرواقية والأبيقورية ، وكان مؤسسها بيرون الايلى Pyrrhôn ho Eleios (٣٦٥ — ٢٧٥) • ولقـــد تأثر بيرون بتعاليم المدرسة الايلية — الميجارية كما كان على علم بنظرية ديمقريطوس Démokritos عن خصائص الاحساس ، وأسس مدرسته فى موطنه اليس élis حيث ظل يقوم بالتدريس الى أن توفى عن سن يناهز التسعين عاماً • ولم يترك لنا بيرون نصوصاً فلسفية مكتوبة مكتفيا — مثل الفيلسوف سقراط — بتعاليمه الشفوية ، ولكن الخطوط العريضة لفلسفته فى الشك وصلتنا عن طريق تلميـــذه تيمون من فليوس Timôn ho Phliasios الذى مات أيضاً فى سن التسعين عام ٢٣٠ ق٠م٠ فى مدينة أثينا • واشتهر تيمون بمقطوعاته الشـــعرية الهجائية المسماة Silloi ، وتخيل فيها أنه فى رحلة الى العالم السفلى Hâidês ليقابل الفلاسفة الراحلين وسلقهم جميعاً بألسنة حداد ونقدهم نقداً مراً ، كذلك ألف قصيدة تعليمية فى البحر الايليجى عنوانها « لمحات » Indalmoi (٣٥) .

وتتلخص تعاليم مدرسة الشكاك — وفقاً لما جاء عند تيمون — فى أن سعادة الانسان تنحصر فى مظاهر ثلاثة : ما هى طبيعة الموجودات ؟ وما هو موقفنا ازاءها ؟ وما هى الفائدة التى ستعود علينا من اتخاذ هذا الموقف ؟ ويرى الشكاك أن طبيعة الموجودات لا يمكن معرفتها ولا ادراكها،لأن الاحساس يظهرها لنا لا كما هى بل كما تبدو لنا ، والعقل أيضا لا يدرك الحقائق ادراكاً كاملا ، ولذلك فنحن عاجزون تماماً عن الوصول الى اليقين أو الى الحقيقة ouden horizein . وأفضل ما يمكن للانسان عمله هو التحفظ فى الحكم أو ارجائه سواء بالامتناع epochê أو بالكف عن النطق aphasia أو بالاستعصاء على الفهم akatalêpsia . وبهذا المسلك يرى تيمون أن الانسان يستطيع الوصول الى اللامبالاة الفكرية ataraxia أو اللامبالاة الحسية apathia : فطالما أننا ننكر امكانية المعرفة فلا يجدر بنا أن نعطى لأمر ما قيمة أكثر من غيره ، ولا شىء سيكون بالنسبة لنا خيراً أو شريراً فى حد ذاته فالخير والشر ما هما الا فكرتان موروثتان من القانون والتقاليد . والانسان بذلك المفهوم عليه ألا يلقى بالا لأى شىء وأن يكون هدفه الوصول الى حالة فكرية ومزاجية معتدلة ليجد السعادة فى الهدوء والسكينة(٣١) .

المؤرخون :

وفى هذه الفترة أيضا عاش عدد من كتاب التاريخ الذين واصلوا رسالة أسلافهم ، ومن أهمهم المؤرخ افوروس من كيمى (فى أيوليا) Ephoros (٤٠٥ — ٣٣٠ ق.م.) ، الذى كان تلميذا للريتوريقى المشهور ايسوكراتيس (٤٣٦ — ٣٣٨ ق.م.). وكتب افوروس أعمالا عديدة أحدها عن تاريخ مسقط رأسه كيمى Kymê بعنوان Epichôrios logos ، ومقالا عن الأسلوب Peri lexeôs ، ومؤلفا عن الابداع Peri Eurêmatôn فى كتابين . ولكن أهم مؤلفاته

هى كتابه الجامع فى تاريخ بلاد اليونان وعنوانه Historiai فى ثلاثين جزءا تبدأ بالفتح الدورى لشبه جزيرة البيلوبونيس — بما فى ذلك الفترة الأسطورية عن عودة آل هيراكليس Hêrkleidai — وتنتهى بحصار بيرنثوس Perinthos عام ٣٤٠ ق.م. • ولقد ألف ديموفيلوس Dêmophilos — ابن المؤرخ افوروس — الجزء الثلاثين من هذا الكتاب ليكمل به تاريخ والده الجامع بحيث يشمل الحروب المقدسة التى دارت بين أعضاء الحلف الأمتكتيونى • ولقد بذل افوروس جهدا كبيرا فى تأليف هذا الكتاب وجمع مادته بحيث أصبح مصدرا هاما اعتمد عليه واستفاد منه كل من ديودوروس الصقلى واسترابون وكذلك بوليبيوس ، ولكن افوروس كان يفتقر الى الفهم العميق لمغزى التاريخ وتعوزه الدقــة والتحليل البارع ، بحيث انطبقت عليه قولة أستاذه ايسوكراتيس « ان افوروس يحتاج للمهماز (٣٧) » •

وكان معاصره ثيوبومبوس Theopompos — الذى ولد حوالى ٣٧٨ ق.م. فى خيوس Chios — تلميذا أيضا لايسوكراتيس الذى قال عنه « ان ثيوبومبوس يحتاج للجام » : بمعنى أنه يريد التفوق على قدواته • ولقد تبنى ثيوبومبوس وجهة نظر أستاذه بجعل التاريخ فى خدمة السياسة ، ومن أهم أعماله التى منحته الشـهرة « الهلينيات » Hellênikai Historiai فى أثنى عشر كتـابا عن تاريخ بلاد اليـونان ، وهو يكمل فيها تاريخ ثوكيديدس ويغطى الفترة من عام ٤١١ حتى موقعة كنيدوس عام ٣٩٤ ق.م. وكذلك كتابه الهام « الفليبيات » Philippika فى ٥٨ جزءا تبدأ بتولى الملك فيليب المقدونى السلطة وتنتهى بموت ذلك العاهل عام ٣٣٦ ق.م • وبعض أجزاء هذه الكتب كان يحمل عنـوانا مميزا مثل عنوان Thaumasia (العجائب) الذى أعطى لقسم من الجزء الثامن والجزء التاسع • ولقد تميز ثيوبومبوس ببصيرته الثاقبة وبحثه الدائب عن مصادره ونقدها ، وكان يحاول أن يبدو محـايدا فى عرض

الحقائق • ولكن سرعة أحكامه وعنفه فى النقد وغلبة التكوين الريتوريقى عليه قد قللت من امتيازه كمؤرخ نابه[٢٨] •

وأهم مؤرخى هذه الفترة قاطبة هو تيمايوس Timaios (٣٥٠ — ٢٥٤ ق٠م٠) ، الذى ولد فى تاورومينيون Tauromenion بصقلية ، وبعد نفيه من الجزيرة عام ٣٤٤ ق٠م٠ توجه الى مدينة أثينا حيث عاش فيها فترة طويلة تناهز الخمسين عاما ومات عن عمــر يقرب من ٩٦ سنة • ولقد ألف تيمايوس سفرا تاريخيا جامعا — ربما كان عنوانه Historiai — عن تاريخ غرب بلاد اليونان وصقلية وجنوب ايطاليا منذ أقدم العصور حتى اشتعال نار الحرب البونية الأولى بحيث ينتهى حوالى ٢٦٤ ق٠م٠ ولقد صدر تيمايوس مؤلفه التاريخى بمقدمة ضافية Proparaskeuê فى حوالى خمسة كتب وصف فيها جغرافية الغرب اليونانى وضمنها عددا كبيرا من الأحداث الأسطورية • وكانت معلوماته التاريخية الغزيرة وليدة القراءة والاطلاع مما دفعه أحيانا للاستعلاء على مؤرخين آخرين أقل منه مقدرة مثل المؤرخ إفوروس ، حتى أنه لقب — لشدة سخريته ونقده اللاذع — باسم « متصيد الأخطاء » Epitimaios •وتلك كانت سمة ظهرت فى العصر الهيلنستى حيث شرع كل من يريد لنفسه شهرة ومجدا فى نقد السابقين والحط من شأنهم زورا وبهتانا فى كثير من الأحيان • ولكن تيمايوس نال جزاءه على يد المؤرخ النابه بوليبيوس الذى كشف عن ترديه فى أخطاء جســيمة • ولو تغاضينا عن حبه للنقــد اللاذع والسخرية من الآخرين — خصــوصا من خصومه المشائين — نجــد أن تيمايوس يتمتع بميزات مدهشة : فهو أول من لفت نظر المؤرخين الى أهمية روما وقوتها الصاعدة فى العالم القديم ، وهو أيضا مؤرخ دقيق فى تحديد تواريخ الأحداث ، ويرجع اليه الفضل فى استخدام الفترات الأوليمبية Olympiades (فترة السنوات الأربع التى تفصل بين كل مسابقة أوليمبية والمسابقة التى تليها) كوسيلة لحساب السنوات بدقة وثبات • ويعتبر مؤلف تيمايوس التاريخى المصدر الوحيد الذى استقى

منه المؤرخون الذين خلفوه مادتهم التاريخية فيما يختص بغرب اليونان وجنوب ايطاليا • ورغم نقد المؤرخ بوليبيوس له الا أنه يبدى احترامــه لمنهجه فى تأريخ الأحداث زمنيا [٢٩] •

الشــــاعرات :

ومما يستحق الذكر أن هذه الفترة شـــهدت ظهور أربع شاعرات :
أولهن ارينا érrina من جزيرة تيلوس Têlos (احدى الجزر الصغيرة القريبة من رودس) ، التى عاشت فى أواخر القرن الرابع ق•م• وترجع شهرة هذه الشاعرة الى قصيدتها المغزل êlakatê ، وهى قصيدة مكونة من ثلاثمائة بيت فى البحر السداسى ، ومدونة باللهجة الدورية التى تحتوى على بعض العناصر الأيولية • وهى عبارة عن رثاء تتوجه به الشاعرة الى ذكرى صديقتها باوكيس Baukis التى قضت نحبها حزنا على زوجها ، ولقد أمدتنا بردية يرجع تاريخها الى القرن الأول ق•م• بشطر لا بأس به من هذه القصيدة التى نالت ثناء الشعراء المعاصرين واللاحقين [٣٠] ، حتى أنهم قارنوها بأعمال الشاعرة العظيمــة سافو ومؤلفـــات شاعر الرعاة ثيوكريتوس • ولقد رثاها الشاعر أسكليبادس فى احدى ابجراماته وذكر أنها فارقت الحياة فى سن التاسعة عشر حزنا على صديقتها [٣١] • وتعتبر قصـــيدة المغزل رائدة فى فن المليحمـــات التصويرية الذى شاع فى العصر السكندرى ، كما أنها تزخر بالعواطف الجياشة الصادقة لذلك أثنى عليها نقاد عصر الاســـكندرية واعتبروها نموذجا رائعا من نماذج الشعر الغنائى ، كما اختصها الشاعر ملياجروس بثلاث ابجرامات فى مجموعته المختارة [٣٢] •

وثانية الشاعرات هى أنيتى من تيجيا (بشبه جزيرة البيلوبونيس) Anytê hê Tegeatis (ازدهرت فى أوائل القرن الثالث ق•م•) ، وهى شاعرة أركادية أعجب بها معاصروها ومن تلاها من الشعراء • ولقد ألفت أنيتى عددا من الابجرامات باللهجة الدورية بقى منها فى مجموعة

الأنثولوجية Anthologia Palatina ٢٣ ابجرامــة معظمها فى الرثاء (جنائزية) • وتعكس ابجرامات أنيتى روح الشاعرة العظيمة سافو ، كما أنها كانت أول من نظمت مرثيات لبعض الحيوانات ، وأول من اهتمت بوصف الطبيعة والمناظر الرعوية فى شعرها [٣٣] : فلقد وصفت لنا ديكا وقع فى براثن ثعلب ، ودلفينا ألقته الأمواج على شاطىء البحر • وهذه ابجرامة تصور فيها تيسا يقف بكبرياء على قمة التل[٣٤]: « انظر الى تيس الإله الصاخب بروميوس (= باكخوس) ، ذى القرون ، وهو يتيه اختيالا بنظرته وبلحيته الشعثاء ! إنه يزهو ويفتخر لأن حورية النهر ربتت بيدها على وجنته مرارا فى خميلة للورود فوق الجبال » • وتبدو رقة الشاعــر نحو الحيوانات والحشرات التى يحبهــا بنو البشر فى الابجرامة التالية[٣٥] : « أقامت ميرو قبرا للجدجد ، عندليب الحقول ، ولزيز الحصاد الذى يعيش فوق شجرة البلوط • لقد ذرفت هذه الفتاة العذراء دمعا غزيرا لأن هاديس الذى لا يرحم قد اختطف منها هــذين المخلوقين (المحبوبين) » •

وثالثة الشاعرات مويرو Moirô من بيزنطة (ازدهرت حوالى ٣٠٠ ق•م•) ، وهى شاعرة ملحمية وكان ابنها المدعو هوميروس كاتبا للتراجيديا • ولقد ألفت مويرو أعمالا عديدة ذكرت تحت اسمها ، منها قصيدة فى البحر السداسى بعنوان مفيموسينى Mnêmosynê (والدة الموسيات) وعدة مرثيات ونشيد الى الإله بوسيدون Poseidôn • ولكن أكثر أعمالها شهرة قصائدها التى تحمل عنوان اللعنات Arai ، وهــو طراز من القصائد تأثر به من بعدها الشاعر السكندرى يوفوريون[٣٦] •

أما الرابعة فهى الشاعرة نوسيس Nossis من لوكروى Lokroi بجنوب ايطاليا (ازدهرت حوالى ٣٠٠ ق•م•) ، التى بقى من أعمالها ١٢ ابجرامة فى الأنثولوجية معظمها للاهــداء والنــذور • وتتحمس نوسيس لعاطفة الحب على طريقة ممنرموس Mimnermos وتظهــر اهتمامها بأشعار سافو ، ولكن رغم رقة قصائدها القصيرة فهى لا تصلح

منافسا لرائدة الشعر الغنائى سافو [٣٧] • وهـذه ابجرامة تصف فيها نوسيس الحب وتبدو فيها رقة أحاسيسها [٣٨] : « لا شيء أشهى من الحب ! وما من هناء الا ويأتى فى المرتبة الثانية بعده ! ولنى من بعده لألفظ حتى العسل من فمى • هذا ما تقوله نوسيس ، فمن لم تحبه كيبريس (= أفروديتى) لا يعلم أن الورود هى زهراتها » •

* * *

حقبـة البـدايات الأولى

(٣٠٢ — ٢٨٥ ق•م•)

شهدت هذه الفترة حادثين على درجة كبيرة من الأهمية : أولهما موقعة ابسوس Ipsos عام ٣٠١ ق•م• التى دارت رحاها بين خلفاء الاسكندر الأكبر Diadochoi ، وثانيهما وصول ديمتريوس الى مدينة الاسكندرية بعد هذه المعركة بسنوات • وكان بطليموس الأول سوتير Ptolemaios A ho Sôtêr , بن لاجوس Lagos ، الأعظم بين كل خلفاء الاسكندر قد حصل على مصر بعد انتهاء الصراع على تقسيم ممتلكات الاسكندر • وكان لزاما عليه أن يكون جيشا قويا وأن يدعمه باستمرار طالما المعارك محتدمة • ولكن حينما وضعت الحرب أوزارها وحسم الأمر بعد عدة سنوات من موقعة ابسوس سالفة الذكر ، ووضح أن هناك ما يشبه الاتفاق بين أطراف النزاع على أراضى وحدود كل مملكة ، أصبح سوتير ملكا على مصر ومن ثم كرس كل جهوده السياسية الداخلية كحاكم جديد لأرض غريبة وشعب يجمع الى جانب المصريين والاغريق أجناسا أخرى متعددة •

أما ديمتريوس الفاليرى فكان قد استقر فى طيبة — عاصمة اقليم بويوتيا — بعد نفيه من أثينا على يد سميه ومنافسه ديمتريوس البوليوركيتى [٣٩] Dêmêtrios ho Poliorkêtês (أى : محاصر المدن) عام

٣٠٧ق٠م٠، وهناك بدأ فى الكتابة عن تجربته فى الحكم ذات السنوات العشر Peri Dekaetias (٣١٧ — ٣٠٧ ق٠م٠) [٤٠] ٠ لكنه لم يلبث أن ضاق ذرعا بحياة الدعة والخمول وهو السياسى الأديب والفيلسوف، لذلك انتهز الدعوة التى وجهها اليه سوتير لزيارة الاسكندرية كى يتخـذ من هذه المدينة مستقرا ومقاما ، فقد كانت النذر تشير الى أنها ستغدو عما قريب عاصمة للعالم القديم ٠ ولم يكن خافيا على الفاليرى — خاصة من تجربته فى حكم أثينا — أنه بازدهار الفكر والعلم وبتشجيع المعرفة فى مدينــة ما ، فان نتيجة ذلك ستكون حتما ازدهارها من الناحيــة الاقتصادية ، اذ ستصبح بعد سنوات قبلة لأنظار الراغبين فى العــلم سواء من المواطنين أم من الأجانب لما تزخر به من مــدارس للفلسفة وللخطابة وللعلوم ، وربما كان هذا هو ما حداه على أن يقترح على سوتير انشاء مكتبة ومجمع للبحوث الأدبية والعلمية فى الاسكندرية ٠ ولقد سارع سوتير الى وضع هذا الاقتراح موضع التنفيذ لأنه كان حاكما محبا للمعرفة ومشجعا للأدب ورجالاته وراغبا فى أن يجعل مملكته أعظم ممالك العالم القديم قاطبة ٠

وبناء على اقتراح الفاليرى استدعى سوتير الفيلسوف استراتون Stratôn — خليفة ثيوفراستوس فى زعامــة مدرسة المشائين (خلفاء أرسطو) — إلى مصر كى يصبح معلما لأبنائه [٤١] ٠ وسواء تم إنشاء الموسيون والمكتبة فى عهد سوتير أو فى عهد خلفه فيلادلفوس — كما يرى فريق من الباحثين — فلقد اتفقت كافة المصادر على أن فكرة إنشائهما تعزى للفاليرى ، وأن تاريخ تأسيسهما يرجع الى العقد الأول أو الثانى من القرن الثالث ق٠م [٤٢] ٠

الموسيون Mouseion (مجمع البحوث الأدبية والعلمية) :

كان الموسيون — كما نتبين من اسمه — فى الأصل معبدا لربات الفنون (= الموسيات) Mousai ، وكان قد ارتبط منذ نشأته بالمدارس

الفلسفية القديمة مثل أكاديمية Akadêmia أفلاطون وليكيون Lykeion أرسطو، هذه المدارس التي نشأت في الأصل كمراكز لعبادة ربات الفنون. ولقد أسس مبنى الموسيون السكندري على نمط ليكيون أرسطو ، الذى كان يتكون من مبنى رئيسي يسمى mouseion به أروقة وقدس للأقداس ومذبح وكذلك من حديقة ومسكن لاقامة فلاسفة مدرسة أرسطو ومكان يتناولون فيه وجباتهم . وما من شك في أن ديمتريوس الفاليري ، الذى تعزى اليه فكرة انشاء الموسيون ، هو الذى نقل هذا النمط المعماري الى الاسكندرية حيث أنه كان أحد أتباع مدرسة المشائين الأرسطية (٤٣) .

ولقد احتدم الجدل بين الباحثين حول تاريخ انشـــاء الموسيون : فالبعض يرى أنه أسس في عهد فيلادلفوس لأن الآثار التى أوجدها في الحياة الفكرية والثقافية لم تظهر بوضوح سوى في عهد ذلك العاهل ، أما البعض الآخـــر فيرى أنه أنشيء في عهد سوتير بنـــاء على اقتراح الفاليرى ، ويستندون في ذلك الى أن هيروندا‌س Hêrôndas كاتب الميميات mimoi الذى عاش في أوائل القرن الثالث ق.م. يذكر الموسيون ضمن معالم المدينة ، مما يدل على قدم تاريخ تأسيسه (٤٤) : « هنالك تجد الثراء ، ساحة الألعاب الرياضية ، القوة ، الطقس الممتع ، المجد ، الربات ، الفلاسفة ، الذهب ، الشباب ، مزار الالهين الأخوين ، الملك الرحيم ، الموسيون ، النبيذ ... الخ » .

وكان الموسيون السكندري بمثابة أكاديمية أقامتها الدولة للبحث في فروع الأدب والعلم ، وكان أعضاؤه من الباحثين المتفرغين للبحث والدراسة ، لكننا لا نستطيع الجزم بأنهم كانوا يقومون بالتدريس الى جانب اشتغالهم بالبحث (٤٥) . وأول من وصف لنا مبنى الموســـيون السكندري الجغرافي الشهير استرابون Strapôn ، الذى يبدو أنه قام بزيارته في نهاية القرن الأول ق.م. (٤٦) : « الموسيون جزء من الحي الملكي ، يحتوي مبناه على رواق وممشى مسقوف ومبنى كبير يتناول فيه أعضاؤه الفقهاء philologoi طعامهم معا . وكانت هناك أموال عامة

(موقوفة على) هذا المجمع Synodos ، كما كان للموسيون رئيس يلقب بالكاهن hiereus ، كان يعين آنذاك من قبل الملوك (البطالمة) ثم أصبح الآن يعين من قبل قيصر • » ومن هذه الفقرة يمكن الاستنتاج أنه ما دام أعضاء الموسيون يتناولون طعامهم داخل مبناه ، فلا ريب أن دائرة نشاطهم كانت بوجه عام تنحصر داخل مجمعهم وأنهم كانوا فى الغالب لا يبارحونه كمستقر لهم • كذلك يمكن القول بأن هؤلاء الأعضاء كانوا يتقاضون راتبا من الدولة ما دام مجمعهم توقف عليه الأموال العامة كالمعابد • كما أن وجود كاهن hiereus على رأس الموسيون يؤكد ماسبق قوله من أن نشأته كانت أصلادينية بوصفه معبدا للموسيات[٤٧] أما وصف استرابون لأعضاء الموسيون بلفظ philologoi (فقهاء) فيثير أكثر من تساؤل : فهذه الكلمة كانت تعنى على عهد أفلاطون الفلاسفة والريتوريقيين وعلماء الرياضيات ، ثم أصبحت فى عصر لاحق تطلق على الباحثين ذوى المعرفة الدائرية (الموسوعية) enkyklios paideia[٤٨] ، ودليل ذلك أن هذا اللقب كان يطلق على إراتوسثينيس العالم السكندرى الشهير[٤٩] • ولكن بغض النظر عما يعنيه هذا اللقب فهو أيضا لايوضح ما اذا كانت هناك مناهج تدرس داخل الموسيون ومحاضرات تلقى بأروقته أم لا • ومع ذلك فلا شىء يمنع من الاعتقاد بأن علماء الموسيون كانوا بين الفينة والأخرى يقومون بإلقاء محاضرات فى تخصصاتهم أو بالتدريس فى فروع العلم التى كانوا على دراية بها • وربما كانت هذه المحاضرات تلقى داخل مبنى الموسيون ذاته ، أو ربما كانت تتم فى أماكن أخرى بالمدينة ، حيث يتمكن الدارسون وجمهور من محبى هذه الدراسات من حضورها[٥٠] •

ولو وضعنا فى اعتبارنا ارتباط نشأة الموسيون بربات الفنون (الموسيات) ، فربما نستنتج أن اهتمام أعضائه كان فى البدء منصبا على مناهج الدراسة الأدبية والفنون ، على أساس أن الموسيات التسع — باستثناء أورانيا Ourania ربة الفلك — كن راعيات عند الاغريق

وكليو Clio ربة التاريخ

القدامى للفن والأدب فقط • غير أننا لو أخذنا فى اعتبارنا أن الموسيون كان وثيق الصلة بمناهج مدرسة المشائين الأرسطية ، فان هذا يدعونا للاعتقاد بأن مجال البحث فيه كان يشمل الى جانب علوم الأدب والفن الرياضيات والفلك والطب ، حيث أن منهج الليكيون الأرسطى كان يرمى الى اكتساب المعرفة الموسوعية • ومما لا شك فيه أن البحث العلمى داخل الموسيون قد ارتبط الى أبعد حد بما حوته مكتبة الاسكندرية الشهيرة من مراجع وكتب فى مختلف فروع العلم والمعرفة (٥١) •

ولقد كان الباحثون يعيشون داخل الموسيون حياة آمنة وادعة — على الأقل فى عصر ازدهار مدينة الاسكندرية — متفرغين تماما للبحث والاطلاع ومعفون من جميع الأعباء وكافة الالتزامات والضرائب (٥٢) ، بالاضافة الى مرتبهم السنوى الذى كان يكفل لهم من العيش أرغده • فكان طبيعيا والحال كذلك أن ينشغلوا عن العالم الخارجى ، وأن يهتموا بما كان يبدو لسواهم تحذلقا لا فائدة منه • من أجل هذا السبب فيما يبدو سلقهم بسليط لسانه الشاعر الفيلسوف الشكاك تيمون من فليوس — الذى سبقت الاشارة اليه كمؤلف للمقطوعات الهجائية Sillographos — فقال وهو يسخر من حذلقتهم (٥٣) : « فى أرض مصر ذات الأجناس العديدة يعيش كثير من الطاعمين المتحذلقين المتقوقعين المتشاحنين الى ما لا نهاية ، [illegible] فى قفص ربات الشعر » •

ويقصد تيمون بهذه المقطوعة أن علماء الموسيون يطعمون من مال الملك الوفير دون أن يقوموا بشىء يذكر اللهم الا السفسطة الفارغة، تماما مثل الدجاجات التى تحظى بوافر الغذاء ولكنها بدلا من أن تبيض تقضى جل وقتها فى شقشقة لا طائل من ورائها (٥٤) •

ويحق لنا ألا نلقى بالا لهجاء تيمون اللاذع ، فمما لا شك فيه أن الموسيون ورجالاته قد أسدوا الى العلم والمعرفة الشىء الكثير : فبفضلهم أصبحت الاسكندرية أزهى مدن العالم القديم ، وبفضل أبحاثهم وكتبهم

عرف عالمنا الحديث ثقافة اليونان وعلومهم وظل مشعل الحضارة منيرا حتى العصر الرومانى • ويكفى أن الموسيون قدم للبشرية اقليدس عالم الرياضيات ، وأرخميديس صاحب قانون الطفو ، وإراتوسثينيس عالم الجغرافيا ، وأرستارخوس عالم النحو ، وهيروفيلوس الطبيب العالم ، وأفلوطين الفيلسوف المفكر (٥٥) •

المكتبـــة : Bibliothêkê :

قبل أن توجد مكتبة الاسكندرية الشهيرة لم يكن العصر الكلاسى ــ أو حتى العصور القديمة (٥٦) ــ يجهل المكتبات كل الجهل ، بل ان من الثابت وجود مجموعات للكتب يمكن أن نطلق عليها تجاوزا اسم المكتبة رغم أن معظمها كان عبارة عن مجموعات خاصة لم تكن لها صفة الانتشار والإمكانيات التى كانت لمكتبـــة الاسكندرية (٥٧) • ولقد شـــهد القرن الرابع ق•م• زيادة ملحوظة فى مثل هذه المجموعات أو المكتبات الخاصة: مثل مكتبة كليارخوس Klearchos ، حاكم هيراكليا الواقعة على بحـــر مرمرة والمعروفة باسم Pontikê Hêrakleia والذى كان تلميذا للفيلسوف أفلاطون ، ومثل مكتبة أرسطو الشهيرة التى آلت من بعده الى خليفته ثيوفراستوس الـــذى أورثها بدوره الى تلميـــذه نيليوس Nêleus والتى كانت مودعة فى الليكيون (٥٨) • هذه الحقيقـــة تؤكد ما سبق ايضاحه من أن كل من الموسيون والمكتبة كانا منذ انشائهما بالاسكندرية صورة متطورة من ليكيون أرسطو ، وأن الفاليرى كان صاحب الفضل فى نقل هذه الصورة بوصفه أحد فلاسفة مدرسة أرسطو •

أما عن مبنى مكتبة الاسكندرية فليست لدينا عنه معلومات مؤكدة وصريحة من كتاب هذا العصر : فالشاعر هيرونداس لم يشر الى المكتبة رغم أنه ذكر الموسيون ، والجغرافى استرابون لم يتحدث عنها رغم أنه تحدث عن الموسيون ووصف ميناها • ولدينا اشـــارة وردت فى خطاب أرستياس Aristeas المزعوم الى الفاليرى كمشرف على المكتبة الملكية،

ولكن ما ثبت عن زيف هذا الخطاب يجعل من الصعب الاعتماد على المعلومات الواردة فيه [٥٩]. وعلى أية حال فلدينا عن المكتبة مصادر أخرى من عصور متأخرة ، أكثرها أهمية الباحث البيزنطى يوانيس اتزتزيس Iôannês Tzetzês ، الذى يحتمل أنه رجع فى معلوماته عن المكتبة الى مصدر قديم من العصر الهيلنستى [٦٠] ، وأنه استقى ما ذكره عن عدد كتبها من قوائم Pinakes كاليماخوس المشهورة التى فهرس فيها محتويات المكتبة [٦١] .

ويخبرنا اتزتزيس بأنه كانت توجد بالاسكندرية مكتبتان لا مكتبة واحدة : الأولى منهما خارج القصر (وهى التى نعرفها الآن باسم مكتبة السرابيون) ، والأخرى داخل القصر (وهى المعروفة لنا باسم المكتبة الملكية) [٦٢] . كذلك يخبرنا إبيفانيوس Epiphanios — الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى ، فى معرض حديثه عن الترجمة السبعينية للتوراة أن الترجمة وضعت بعد اتمامها فى المكتبة الأولى التى تقع فى الحى المسمى Broucheion ، ثم يذكر أنه كانت توجد مكتبة أخرى يقع مبناها فى معبد السرابيون Sarapeion وهى أصغر من الأولى وتسمى «ابنة المكتبة الأولى» [٦٣] . وهكذا يتفق كل من اتزتزيس وإبيفانيوس على وجود مكتبتين ، وإن كان الأخير يذكر أن الثانية قد أنشئت بعد الأولى بفترة زمنية eti de hysteron .

ولقد أثبتت الحفائر التى أجريت بالاسكندرية أن معبد السرابيون قد بنى بصورته الضخمة فى عهد بطليموس الثالث يورجتيس Ptolemaios ho Euergetês ، ويؤكد هذا قول إبيفانيوس من أن مكتبة السرابيون قد بنيت بعد المكتبة الملكية — كذلك تبين من الحفريات أن المكتبة كانت توجد فى الرواق الواقع جنوبى المعبد — تماما مثلما كانت مكتبة برجامون توجد بجوار معبد الربة أثينا بولياس Athêna Polias (بولياس = حامية المدينة) . ولكن صمت كل من هيرونداس واسترابون إزاء مبنى المكتبة يدفعنا الى الظن بعدم وجود مبنى مستقل للمكتبة ،

وأن المكتبة الملكية كانت ملحقة بمبنى الموسيون نفسه، خاصة وأن الليكيون — الذى اختاره البطالمة كنموذج حينما فكروا فى تأسيس هاتين المنشأتين — كان يضم فى مبناه مكانا للمكتبة (٦٥) .

وتشير معظم المصادر الى أن فيلادلفوس هو مؤسس المكتبة ، ولكن الدراسات الحديثة — التى نرى نفس رأيها — تثبت أن فكرة إنشاء المكتبة والمراحل الأولى فى تشييدها ترجع أساسا الى بطليموس سوتير، ويرجع السبب فى أن معظم المصادر القديمة قد نسبت ذلك الفضل لفيلادلفوس الى أن الأخير كعاهل عظيم قد حجب بشهرته الذائعة وأعماله الخالدة كل المآثر التى قام بها والده الراحل(٦٦) . ولقد ارتبط تاريخ المكتبة برجالات العلم والأدب الذين تعاقبوا على رئاستها خلال العصور المختلفة ، وكان رئيس المكتبة Prostatês (٦٧) — مثله فى ذلك مثل القائمين على المناصب الملكية الهامة فى ذلك العصر — يعين من قبل الملك. ويبدو أن ذلك الرئيس كان يختار فيما يشبه العرف من بين معلمى أمراء البيت المالك (٦٨) ، ومنذ انشاء هذا المنصب Prostasia tês Bibliothêkês تولته على التوالى ، وفقا للمعلومات الواردة فى بردية أوكسيرنخوس المشهورة ، الشخصيات التالية (٦٩) :

١ — زينودوتوس Zênodotos (ازدهر حوالى ٢٨٥ ق.م.)

٢ — أبوللونيوس الرودسى Apollônios ho Rhodios (٢٩٥ — ٢١٥ ق.م.) .

٣ — إراتوسثينيس Eratosthenês (ازدهر حوالى ٢٣٤ ق.م. حوالى ١٩٥ ق.م.)

٤ — أرستوفانيس البيزنطى Aristophanês ho Byzantios (ازدهر

٥ — أبوللونيوس مؤلف الأنماط الأدبية Apollônios ho eidographos (ازدهر قبل عام ١٨٠ ق.م.)

٦ ـ أريستارخوس من ساموثراكى (النحوى) Aristarchos ho Samothrâix (ازدهر حوالى ١٨٠ ق٠م٠)

وكانت الكتب العديدة التى تزخر بها مكتبة الاسكندرية تجلب إليها من مصادر شتى ويتم الحصول عليها بسبل متنوعة ، ويزودنا جالينوس Galênos فى هذا الصدد بمعلومات هامة وطريفة تستحق أن نوردها هنا بنصها [٧٠] :

« كان بطلميوس (يورجتيس) ، ملك مصر فى ذلك الوقت ، شغوفا بالكتب لدرجة أنه يحكى عنه أنه أصدر أمرا بأن تحمل اليه الكتب التى فى حوزة جميع ركاب السفن الراسية (فى ميناء الاسكندرية) ، ثم بعد نسخها على ورق جديد أن تعطى النسخ المنقولة الى أصحاب هذه الكتب وأن تضم الكتب الأصلية الى حوزته كى تودع فى المكتبات Bibliothêkai وكانت الكتب التى ترد عن هذا الطريق تعطى عنوانا خاصا هو « من السفن ek ploiôn » ... أما الكتب الأخرى المدون عليها تصويبات أو تعليقات فكانت تسمى « ذات التصويبات kata diorthôtên » أو تسمى باسم صاحبها فحسب ٠ وما أن يفرغ الموظفون أتباع الملك من نسخ الكتب التى يتم الحصول عليها من جميع ركاب السفن وعنونتها باسم صاحبها أو بمصدرها ، حتى يقومون بتخزينها فى المخازن ، حيث أنها لم تكن توضع مباشرة فى المكتبات فور الحصول عليها بل كانت تحفظ قبل ذلك على هيئة أكداس فى مخازن خاصة ٠

ومما ينهض دليلا على اهتمام بطلميوس (يورجتيس) باقتناء كل صنوف الكتب القديمة ـــ وهو ليس بالدليل الهين ـــ الحادثة التى جرت بينه وبين الأثينيين : اذ أعطاهم خمسة عشر تالنت من الفضة كضمان مالى فى مقابل أن يأخذ منهم (أصول) تراجيديات سوفوكليس ويوربيدس وأيسخيلوس ، وذلك فقط من أجل نسخ هذه الأصول على أن يقوم بعد ذلك برد الأصول سالمة على الفور ٠ وبعد أن تم له نسخ

هذه الأصول على ورق فاخر من أجود الأصناف ، أرسل الى الأثينيين النسخ المنقولة طالبا منهم الاحتفاظ بمبلغ الخمسة عشر تالنت واستلام النسخ الجديدة المنقولة عن الأصول القديمة التى أرسلوها ، على أن يحتفظ هو بتلك الأصول • فلقد كان الشرط القائم بينه وبين الأثينيين هو : اذا لم يرسل (الملك) النسخ الأصلية واحتفظ بالأصول القديمة ، فإن أى نوع من التعامل لن يقوم بينهم وبينه • اذ كان قبولهم للتالنتات الفضية بناء على هذه الشروط : أى أن يحتفظوا هم بها (التالنتات) اذا ما حجز لديه الأصول • وبناء على ذلك فقد تسلموا النسخ الجديدة وأبقوا بحوزتهم التالنتات الفضية » •

ومن هذا النص يمكن أن نستنتج أن مكتبة الاسكندرية كانت تحصل على الكتب من مصدرين أساسيين هما ركاب السفن والأصول القديمة التى كانت موجودة غالبا فى مدينة أثينا • وبالاضافة لهذين المصدرين يذكر أثينايوس Athênaios أن بطلميوس فيلادلفوس كان يقوم بشراء الكتب من أسواق أثينا ورودس لمكتبة الاسكندرية (٧١) • ولقد قامت منافسة شديدة بين مكتبة الاسكندرية ومكتبة برجامون اشتد أوارها بعد ازدهار الأخيرة، ولكن هذه المنافسة انتهت لصالح مكتبة الاسكندرية من ناحية لقدرة الملوك البطالمة وازدهار مدينتهم ، ومن ناحية أخرى لأن البيت الحاكم البطلمى احتكر صناعة الأوراق البردية ومنع تصديرها إلى منافسيه ، فاضطر ملوك برجامون الى استخدام الرق pergamênê فى صناعة الكتب بدلا من البردى رغم غلاء ثمنه وصعوبة تصنيعه (٧٢) •

ونستنتج كذلك من هذا النص أن الكتب — قبل ايداعها المكتبة — كانت تحفظ لفترة فى مخازن oikoi (٧٣) خاصة ، ثم تصنف بعد ذلك تصنيفا مبدئيا وفقا للمصدر التى وردت منه مثل الكتب الواردة عن طريق السفن ek ploiôn ، أو وفقا للتصويبات المدونة عليها كأن يقال kata diorthôtên Mnêmona Sidêtên (أى : التى صوبها منيمون

عن سيدس) ، أو تصنف باسم صاحب التصويبات فحسب دون ذكر العبـــارة kata diorthôtên • ومما لا شك فيه أن هذا التصنيف المبدئى كان ضروريا قبل إيداع الكتاب فى المكتبة ذاتها ، حيث يجرى تصنيفه هناك أبجديا وفقا لإسم المؤلف أو الموضوع ، كما هو المتبع فى قوائم كاليماخوس المشهورة Pinakes التى كانت تضم تحت اسم كل مؤلف الأعمال التى قام بتأليفها مرتبة ترتيبا أبجديا (وربما زمنيا !) مع تعليق على كل عمل على حدة بصورة تدل على تفقه ودراية [٧٤] •

ويخبرنا اتزتزيس بأن المكتبة الموجودة خارج القصر (مكتبـة السرابيون) كانت تضم ٤٢٫٨٠٠ كتابا (أى لفافة بردية) ، وبأن مكتبة القصر (المكتبة الملكية) كانت تحتوى على ٤٠٠٫٠٠٠ كتاب أســماها symmigeis وكـذلك على ٩٠٫٠٠٠ كتاب أطلق عليهـا اسـم amigeis • [٧٥] وتدل التســمية الأولى Symmigeis على مخطوط أو لفافة بردية تحتوى على عدة أعمال لمؤلف واحد أو لأكثر من مؤلف ، على حين تعنى التسمية الثانية amigeis مخطوطا أو لفافة تحتـوى على عمل واحد للمؤلف أو على أجزاء من هذا العمل • ولا ريب أن هدف مكتبة الاسكندرية كان يرمى فى مبدأ الأمـر الى جمع كل نصـوص الأدب اليونانى كاملة فى مكان واحد ، ولكن يبدو أن هذا الهدف كان طموحا أكثر مما ينبغى بدليل أنه لم يتحقق : فرغم ضخامة الأرقام التى ذكرها اتزتزيس — والتى يرى الباحثون أنها إما مبالغ فيها أو خاطئة — إلا أن هناك أعمـالا كثيرة ونصوصا اغريقية لم تضمها قوائم كاليماخـوس المستخدمة كفهارس للمكتبة [٧٦] •

وهنـاك ما يدل على اهتمام مكتبة الاسكندرية والمشرفين عليهـا بالمؤلفات المدونة بلغات أخرى غير اللغة الإغريقية : فلقد سبقت الاشارة إلى أن الترجمة السبعينية للتوراة عن العبرية القديمة كانت مودعـة بالمكتبة • كذلك فمن المحتمل أن المؤرخ المصرى مانيثون الســمنودى

Manethôn ho Sebennytês ، الذى دون تاريخ مصر القديم باللغة الإغريقية ، قد قام بترجمة سجلات ملوك مصر الفراعنة عن اللغة المصرية القديمة . وهناك إشارة الى أن تلميذ كاليماخوس المدعو هرميبوس Hermippos قد ترجم إلى الإغريقية نصوصا أدبية عن اللغة الفارسية (٧٧) . كذلك يذكر اتزتزيس أن المكتبة كانت تضم نصوصا من الأدب اللاتينى (٧٨) . ويدل هذا كله على أن مكتبة الاسكندرية لم تكن تحوى بين جنباتها المؤلفات الإغريقية فقط ، بل كانت تضم أيضا مؤلفات أخرى مترجمة عن لغات عديدة مثل العبرية القديمة والمصرية القديمة والفارسية واللاتينية (٧٩) .

ولقد أشارت معظم المصادر القديمة الى دمار مكتبة الاسكندرية عام ٤٨ ق.م. أثناء حرب الاسكندرية على عهد يوليوس قيصر ، ويبدو أن الكتاب المتأخرين الذين أخبرونا بهذه الحقيقة قد استقوا معلوماتهم عن دمار المكتبة من المؤرخ الرومانى ليفيوس Titus Livius ، الذى ذكر أن النار التى اندلعت فى ميناء الاسكندرية قد امتدت الى المكتبة الملكية وأحرقتها ، وأنه نتيجة لهذا الحريق ضاع عدد من الكتب يقدر بحوالى ٤٠٠٫٠٠٠ لفافة (٨٠) . غير أن هذه الخسارة - سواء أكانت فادحة أم هينة - قد أمكن تعويضها فيما بعد عندما أهدى أنطونيوس Marcus Antonius إلى الملكة كليوباترا Kleopatra ٢٠٠٫٠٠٠ لفافة من كتب مكتبة برجامون (٨١) . كما أن نشاط الباحثين المتأخرين من أمثال ديديموس Didymus وتريفون Trypôn وثيون Theôn يظهر بجلاء أنه كان تحت تصرفهم عدد وفير من الكتب فى مختلف التخصصات ، ويدل هذا على أن مكتبة الاسكندرية استطاعت تعويض خسارتها بعد فترة ليست بالطويلة (٨٢) .

ومنذ القرن الرابع الميلادى تلزم المصادر الصمت عن مكتبة الإسكندرية ومجمعها العلمى فيما خلا أنها تذكر تدمير مكتبة السرابيون

وإغلاق الموسيون فى نهاية القرن الرابع الميلادى • ولكن هذا لم يعن بحال من الأحوال أن حياة العلم والدراسة قد انتهت من الاسكندرية : فبعد انتهاء فترة الاضطهاد والاضطرابات الدينية والمحن ، استأنفت الاسكندرية نشاطها مرة ثانية واستمرت مدارسها التعليمية • ولكن بعد خمسة قرون ونصف من الفتح العربى لمصر راجت فجـأة فى الكتب العربية قصة غريبة عن حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية فى أعقاب الفتح مباشرة • ولكن الدراسات الحديثة المتأنية أثبتت زيف وبطلان هذه القصة المغلوطـة ، وأنها نشأت فى بلاد الشام أيام الحـروب الصليبية [83] •

الشـــــعراء

أسكليبياديس من ساموس : Asklêpiadês ho Samios

كان أسكليبياديس — الذى ازدهر حوالى ٢٩٠ ق•م• — أعظـم شعراء جزيرة ساموس وأشهر كتاب الرعيل الأول فى مبدان الإبجرامة ، وكان معاصرا للشاعر فيليتاس Philêtas وللشاعر ثيوكريتوس [84] ، ويعد أستاذا لكل من بوسيدبيوس من بيلا Poseidippos ho Pellaios وهيديلوس من ساموس Hêdylos ho Samios وهما شاعران حاكياه فى موضوعاته وفى أسلوبه • ولقد عاش أسكليبياديس فى ساموس حيث وجد الشعر تشجيعا على يد دوريس Douris ، حاكم الجزيرة الذى كان مؤرخا وتتلمذ على يد الفيلسوف ثيوفراستوس [85] : ذلك أن طراز الحاكم الذى يشجع الأدب والفن خدمة للأهداف السياسية كان شائعا على مر العصـور ونجد أمثـلة له فى شـخص بيسستراتوس Peisistratos وبطلميوس وأوغسطوس • كما كان الكتاب فى ساموس يمثلون بصدق اتجاهات الأدب الهيلنستى عامة والسكندرى خاصة ، وإن لم تتبلور لديهم بعد ما نطلق عليه الآن خصائص الأدب السكندرى : ففى مجال

التاريخ كانوا يفضلون النوادر ذات المغزى anekdota ، والتفاصيل الذاتية للأحداث وكتابة السيرة على التحليل والنظرية التاريخية ، وفى مجال الفلسفة كانوا يضعون الاتجاه الأخلاقى فى مكان الصدارة ولا يهتمون بالتأملات الميتافيزيقية ، وفى الأدب والشعر كانوا يركزون على تفاصيل الحياة اليومية المألوفة وتصوير الواقع ويهتمون بالصقل ولا يعترفون بالالهام .

ولقد أرسى أسكليبياديس قواعد ثابتة للابجرامة فى العصر السكندرى واختط طريقا جديدا فى إبجرامة الحب لم يكن أمام من خلفوه — سواء من الاغريق أو الرومان — سوى أن يسلكوه دون تغيير يذكر . لقد تسلم أسكليبياديس الإبجرامة من العصور القديمة ولم تك سوى نمط من أنماط الشعر الغنائى ذى موضوع يكاد يكون واحدا هو الرثاء فى حجم بالغ القصر ، فإذا بها تصبح على يديه قصيدة وصفية مركزة قادرة على التعبير عن مشاعر وأحاسيس متنوعة [٨٦] . وإذا كان هناك فضل لأسكليبياديس فإن فضله ينحصر فى إعادة الابجرامة للحياة ، وفى كتابتها بلغة بسيطة خالية من التكلف والحذلقة وبعيدة عن اللهجات المحلية قدر الإمكان ، وليس بها ما يدل على الخضوع للأساليب الريتوريقية [٨٧] .

ومن كل ما كتب أسكليبياديس لم يبق الآن لدينا سوى ست وثلاثين إبجرامة تدل على تمكنه من التعبير الرقيق والصياغة الجميلة ، وإن كانت موضوعاتها كلها تقريبا لا تخلو من الاشتهاء الحسى . إن إبجرامات أسكليبياديس تبين لنا أنه عاش فى عالم زاخر بالمحظيات والعازفات وبنات الهوى ، وغاص بالملذات والنزوات التى تمثل متع الحياة الحسية . وفى مثل هذا العالم لم يكن للحب الحقيقى أى وجود بل كان مستحيلا ، لأن عواطف الرجال كانت موجهة نحو الإماء والجوارى ، أى الى قطعة من ممتلكاتهم . فهل يمكن تصور وجود حب صادق بين طرفين غير متكافئين

أحدهما ملك للآخر ؟ وهل كانت الأمة بقادرة على فعل أمر جدى أمام سطوة سيدها وتسلطه سوى أن تفرض رغباتها فى الحدود التى لا تتعارض مع رغبة مولاها ؟ وأى حب يمكن أن تقدمه المُحْظية لطالب المتعة سوى الفتات ؟ كذلك كان مسلك الرجال المتدلهين فى حب الغانيات يدعو إلى الدهشة والرثاء ، فهم لا يبالون كثيراً بما نطلق عليه اسم كرامة المحب أو وقار الرجل ، وهم يتحولون الى ألعوبة فى أيدى الخليلات ويمرغون كرامتهم فى الوحل مع منافسيهم ، ويستجدون فقط لحظة من اللذة العابرة يدفعون فى مقابلها كل ما يملكون • والإبجرامة التالية توضح لنا أن هذا العصر لا يفتقر الى الصراحة فى التعبير عن الشهوة الحسية[88] : « تحرصين على بكارتك ! وماذا بعد هذا ؟ فلن تجدى ، يا فتاتى ، بعد ذهابك الى هاديس من يمنحك الحب • إن ملذات كيبريس (= أفروديتى) بين الأحياء فقط ، وغداً أيتها العذراء سنصير عظاماً ورماداً على (شاطىء) الأخيرون » • ثم نجد فى إبجرامة أخرى رشاقة فى التعبير وبحثاً عن الصورة غير المسبوقة[89] : « ذات مرة كنت أمرح مع هرميونى الخلابة ذات الزنار المجدول من الزهور والذى يبرق بما نقش عليه من كلمات مذهبة ، أى ربة بافوس • وكان هذا ما دون عليه : « فلتحبنى على الدوام ولا تبتأس إن كان أحد غيرك يمتلكنى الآن • » وكان أسكليبيادیس يمتلك مقدرة فذة على الربط بين مظاهر الطبيعة الرائعة وبين العاطفة المتسلطة على فؤاده والتى توجهه دوماً حيث تشاء[90] : « عذب ارتشاف الثلج فى الصيف للظمآن ، وخلاب مرأى البحارة فى الشتاء لكوكبة الإكليل التى تعلن مقدم الربيع • وأعذب من هذا كله أن تغطى عباءة واحدة العاشقين فيسبحان بحمد كيبريس » • وكانت لدى شيخ شعراء الإبجرامة الموهبة التى تجعله ينتج من الحب الرخيص شعراً رائعاً ، كما نرى فى الإبجرامة التالية التى تصور لوعة الحبيب المنبوذ على باب محبوبته ، وهى صورة ابتكرها شاعرنا وحذا حذوه فيها الشعراء الآخرون[91] : « ياله من ليل طويل قارس البرد يتثاقل فى مروره عبر كوكبة الثريا ! وها أنذا تحت

وابل من المطر أذرع الطريق جيئة وذهاباً أمام باب (حبيبى) ، مكلوم الفؤاد تعصف بى رغبة محمومة تجاه تلك المخادعة . إنه ليس حباً ذلك الذى تبعث به كيبريس بل سهام مضنية غمست فى نار متأججة » .
وفى إبجرامة أخرى يحدثنا أسكليبيادس عن عاشق هجرته حبيبته ، فلا يفعل إزاء ذلك سوى أن يتوسل إلى مصباحها أن يكف عن الاضاءة . فهل كان مثل هذا التهديد الساذج بذى خطر على العاشقة اللعوب[٩٢]؟:
« أيها القنديل ، يا من أقسمت بك وأمامك هيراكليا ثلاثاً أنها ستأتى ولم تأت . هل لك ، أيها القنديل ، إن كنت حقاً من الأرباب أن تجفو تلك المخادعة وتنبذها . وهل لك أن تنطفىء وتمنع عنها ضوءك حين تخلو إلى رفيقها فى منزلها وينغمسان فى المرح ! » . ولو صدقنا الإبجرامة السابقة لرثينا لحال رجال ذلك العصر : فالعاشق هنا يعلم أن حبيبته قد نبذته من أجل رفيق لها يمرح معها ، ومع ذلك فكل ما يصبو اليه هو أن تعاود الاتصال به وزيارته ولها بعد ذلك أن تنعم مع رفيقها كما تشاء !
وفى إبجرامة أخرى يرسم شاعرنا فى سطور قليلة صورة من الصعب نسيانها فيذكرنا بأن أيدى الزمان لا ترحم شباب الإنسان[٩٣] :
« لقد حظيت يوماً بامتلاك أرخياناسا ، تلك المحظية القادمة من كولوفون والتى كان إيروس الخلاب نفسه يقطن فوق تجاعيد وجهها . آه ، أيها العشاق ، يا من اقتطفتم أولى زهرات شبابها (وارتشفتم أول رحيق لها) ، فى أى نار متأججة اصطليتم! » . وكان أسكليبيادس سباقاً إلى ابتكار الصورة الشعرية غير المسبوقة ، فلقد رأينا مثلا كيف ابتكر صورة العاشق المنبوذ أمام باب الحبيب ، أما الإبجرامة التالية فتحمل لنا صورة جديدة عن الجمال الذى يتولد من السمرة . ولقد غلف شاعرنا هذه الصورة الجميلة بالتعبير الرشيق الذى يأخذ بالألباب فى سلاسة ويسر[٩٤]: « ويحى! لقد سلبت ديديمى لبى بنضارتها ، فما أن يقع بصرى عليها حتى أنصهر مثل انصهار الشمع عند اقترابه من اللهب . وإن كانت سمراء فماذا يضيرنى ؟ إن جمرات الفحم أيضاً كذلك ، لكننا حينما تضرم فيها النار تتوهج مثل أكمام الورود » . إن صورة انصهار العاشق

وتشـبيه ذلك بانصهار الشمع صورة طريفة ومبتكرة أيضاً • ويعود أسكليبياديس من جديد إلى الصورة التى تصادف هوى فى نفسـه ، وهى صورة الحبيب المجروح الفؤاد الذى يتحمل المطر والبرد أمام باب الحبيب كما فى الإبجرامة التالية(٩٥) : « كان المطر منهمراً والوقت ليلا والخمر تجعل آلام العاشق ثلاثة • ريح الشـمال قارصة وأنا بمفردى • أما موسخوس الجميل فما زال فى عنفوان صحته وشبابه • « ألا ليتك تظل تدور هكذا دون أن تجد لك مستقراً عند أحد الأبواب ! » كان هـذا ما هتفت به مراراً للغلام وماء المطر يبللنى • فإلى متى يا زيوس ، أى عزيزى زيوس ، سألزم الصمت ؟ فأنت نفسك قد عرفت الحب » •

إن الاستخفاف الذى نلمحه فى هـذه الابجرامة بكبير الآلهة زيوس ، الذى كان مجرد ذكر اسمه قديماً يكفى لإدخال الذعر فى القلوب ، ليس مستغرباً على شـعراء هذا العصر الذين جردوا آلهة الأوليمبوس من الجلال • وهـذه إبجرامة أخرى تظهر أكثر من سواها أن الاستخفاف بالأرباب يصل عند شاعرنا إلى درجة التحدى(٩٦) : « أسقط جليدك ، وأهل على بردك ، خيم بظلمتك ، جلجل برعدك ، واقذف بصاعقتك ، وابعث بجميع سحبك القاتمة لتهز الأرض • فإنك إن قتلتنى فحينئذ سوف أكف ، أما إن تركتنى أحيا — فحتى لو خضت غمار ما هو أسوأ من هذا — فسوف أواصل المجون • لأن ما يتحكم فى هو الإله الذى يسيطر عليك أيضاً ، والذى خضعت لسطانه ذات مرة ، يا زيوس ، حينما ولجت فى صورة ذهب المخدع البرونزى » •

ان مخاطبة كبير الآلهة زيوس بهـذه الكيفية تبين لنا أن كتاب هـذا العصر يعكسون فى مؤلفاتهم اضمحلال الروح الدينية لدى اغريق العصر الهيلنستى ، وأن إله الحب الصغير إروس أصبح أقوى الآلهة لأنه يسيطر على كل من البشر الفانين والأرباب الخالدين • ويبـدو تأثير الإله إروس (Erôs) على مخيلة شاعرنا فى عدد من الإبجرامات الطريفة ، نرى فى أولها أن أسكليبياديس يجعل من إله الحب الواحد جماعة تلهو

بقلوب البشر كما يلهو الأطفال بلعبة النرد(٩٧) : « ضقت ذرعاً بالحيــاة ولم أبلغ بعد من العمر الثانية والعشرين • أى أرباب الحب Erôtes أى شر هــذا ؟ لم تصلونني بنيرانكم ؟ ماذا ستفعلون لو حل بى مكروه ؟ من الواضح ، يا أرباب الحب ، أنكم مثل سابق عهدكم ستلعبون دون اكتراث مباراتكم فى النرد » • وفى إبجرامة أخرى ينجح أسكليبياديس فى رسم صورة فكاهية لإله الحب الصغير بجناحين وعلى كتفه جعبة للسهام(٩٨) : « لو ثبت لك جناحان ووضع فى يدك قوس وســهام ، ولم يدون عليك (اسم) إروس ، لكنت أنت ولد كيبريس » •

وتبدو فى أشعار أسكليبياديس دعوة الى التمتع بملذات الحياة ومتعها مما يعيد إلى أذهاننا أشعار أناكريون وخمرياته(٩٩) : « اشرب ، يا أسكليبياديس ، لم هــذه الدموع ؟ ماذا ألم بك ؟ فلست وحدك الذى أصبحت فريسة ســائغة لكيبريس القاسية ، ولست وحدك الذى أصلاه إروس الضارى بوابل من ســهام قوسه ! لم تدفن نفسك حياً تحت التراب ؟ فلنشرب شراب باخوس الصافى ، إذ نهارنا مثل أنملة • هل نظل هكذا حتى نبصر من جديد القنديل يدعونا للرقاد ؟ دعنا إذن نشرب ، أيها العاشــق المسكين ، فلم يعــد من العمر الكثير ، (دعنا نشرب) فلسوف نرقد ، أيها التعس ، فى ليل طويل (لا يقظة منه) » •
وفى إبجرامة أخرى نلمح الرغبة المحمومة التى تستولى على العشاق فتسخرهم وتجعلهم تحت رحمة نزواتهم(١٠٠) : « لطالمــا اصطبغ وجه نيكاريتى الجميل بالرغبة المحمومة وهى تطل من خلال النافذة المرتفعة • ذلك أن عينى كليوفون الزرقاوين ، يا عزيزتى كيبريس ، كانتا تبعثان ببريق أخاذ من نظراته الحلوة وهو واقف أمام بابها » • وأحياناً يكون شاعرنا صريحاً الى درجة لا يحس معها بحمرة الخجل حينما يصف لنا نزواته الفاضحة مع عشيقاته(١٠١) : « إن فيلاينيون النهمة قد أثخنتنى بالجراح ! ومع أن الجرح لا يبدو ظاهراً ، إلا أن ألمه يصل حتى أطراف أناملى • إنى هالك ، يا أرباب الحب ! لقد لقيت حتفى ورحلت إلى الدار

الآخرة ، فلقد وطأت أثناء نعاسي حية رقطاء و[illegible] إلى هاديس» .
أو حينما يصف لنا مسلكاً شائناً قامت به بعض الفتيات كما فى الإبجرامة التالية(١٠٢) : « بيستو ونانيون فتاتان من ساموس ترفضان ارتياد معبد أفروديتى ، وتأبيان الانصياع لأوامرها . إنهما تهجران الربة الى طقوس أخرى مجردة من الجمال . أى كيبريس أيتها القادرة ، ألا فلتبغضين الهاربات من مخدعك ومن سلطانك » .

إن من يقرأ هــذه الابجرامات يقع فى حيرة من أمره ، لأنه سيظن أحياناً أنه أمام تعبير صادق عن عاطفة الحب ، لكنه سرعان ما يتبين أنه أمام وســيلة من وســائل التعبير الأدبى فحسب لا محل فيها للعاطفة . إن أسكليبياديس دون شك فنان بارع وقادر على مزج الحقيقة بالخيال ، ولكن ما يضفى روعة على إبجراماته ليس صدق المشاعر بقدر ما هو رشاقة التعبير وحيوية الأسلوب . إن شــعر أسكليبياديس رقيق متأنق حيناً وجذاب صارخ الجمال حيناً آخر ، ولكنه بين هــذا وذاك مثل زهرة جميلة بديعة الصورة تفتقر إلى الرائحة العطرة . إن الشعر الرقيق البالغ الروعة لا يساوى كثيراً طالمــا كان زاخراً بالتكلف، وخلوا من العاطفة الجياشة، ومجــرداً من صدق الاحساس الذى يعتبر أهم [illegible] [illegible] المبدع .

ومع ذلك فهناك لحظات يصل فيها أسكليبياديس إلى عاطفة تكاد تكون صادقة وإلى عذوبة فى التعبير ورقة فى المشــاعر تغفر له المثالب التى أخذناها عليه . والإبجرامة التالية خير دليل على هــذا ، فهى تعد فى نظــرى أروع ما كتب رائد فن إبجرامة الحب، وأعظم ما ألف بياناً وســحراً(١٠٣) :

« يا أكاليل الورود المعلقة على باب حبيبى، فلتظلى هاهنا ولا تتسرعى فى إســقاط أوراقك التى خضلتها بدموعى ، فإن عيون العشــاق بالدمع مغرورقة . لكن حينما يفتح الباب وتشاهدين حبيبى فانثرى دمعى غزيراً

على رأسه ، لأن من الأفضل أن ترشف خصلات شعره الشقراء عبراتى » .

فيليتاس Philêtas **أو** Philitas :

ازدهر فيليتاس فى جزيرة قوص حوالى عام ٣٠٠ ق.م. ، حيث كون دائـــرة أدبيـــة كانت تضم الشـــاعر هرمسياناكس الكولوفونى Hermêsianax ho Kolophônios وفانوكليس Phanoklês والإســـكندر الأيتـــولى Alexandros ho Aitôlos ، وشـــعراء آخرين ربمـــا كان أحدهم شـــاعر الرعاة ثيوكريتوس الذى يشـــيد بمقدرة فيليتاس فى « نشيد الحصاد » ويوقره كما لو كان بمثابة أستاذه(١٠٤) . وكان فيليتاس مربياً ومعلماً للعاهل بطلميوس فيلادلفوس فى صباه ، وكان ذلك بتكليف من أبيه الملك بطلميوس سوتير(١٠٥) .

ولقد برع فيليتاس فى نظم الأشعار الاليجية حتى أنه اعتبر رائداً لقصائد الحب المنظومة فى البحر الإليجى المثنوى ومجدداً حذت حذوه العصور التالية . وألف شاعرنا عدداً كبيراً من قصائد الغزل التى لم تصلنا منها سوى شذرات قليلة أو عناوين ، ومعظم قصائده تدور حول محظية تدعى بيتس Bittis (أو باتيس Battis) ، ولكن الشذرات المتبقية منها لا تكفى للحكم على مقدرته كشاعر مشهور أثنى عليـــه معاصروه من الاغريق ومن خلفوهم من مشاهير شـــعراء الرومان(١٠٦) . ومن المعجم الذى ألفه فيليتاس للألفاظ الغريبـــة والنادرة ، وعنوانه [illegible] Ataktoi Glôssai ، يمكننا أن نستنتج ميله الى التفقه والعلمية واختيار الألفاظ التى تظهر ســـعة اطلاعه ، بمعنى أنه كان شاعراً وناقداً فى الوقت نفسه Poiêtês hama kai kritikos(١٠٧) .

كذلك ألف فيليتاس قصـــيدة فى البحر الإليجى المثنوى عنوانها ديمـــيتر Dêmêtêr لم يتبق منها سوى ١٢ بيتا ، وكذلك قصـــيدة فى البحر السداسى عنوانها هرميس Hermês ، نسج على منوالها شاعر

متأخر هو بارثينيوس Parthenios • ويحكى الشاعر فى قصـيدة هرميس قصـة قديمة عن أوديسيوس ورسـول الأرباب هرميس ، ويربطها بقصـة الحب التى جمعت بين بطلنا أوديسيوس وبوليميلى Polymelē ابنة الملك ايولوس Aiolos المتحكم فى الرياح ، ولم يبق من هـذه القصيدة سـوى أجزاء من تسـعة أبيات • ولدينا عنوان لقصيدة أخرى هو تيليفوس Tēlephos ، ويبدو أنها كانت تدور حول زواج ياسون من ميديا ورحلة بحارة الأرجو • أما بقية مؤلفاته فتشمل Paignia وعـدداً من الابجرامات (ابجرامتان فقط عند ستو بايوس) بالاضافة الى معجمه السالف الذكر[108] •

واشتهر فيليتاس بسعة اطلاعه فى علوم النحو والتراث واعتبر فى عصره نموذجاً فريداً فى المزج بين الشاعرية والعلم ، ويبدو أنه أسرف فى القراءة والاطلاع إسرافاً شديداً حتى ذبل عوده وذوى • ولو صدقنا ما رواه عنه أثينايوس فإن شاعرنا كان مضطراً لارتداء نعال مزودة بأثقال من الرصاص حتى يحتفظ بتوازنه ولا يطير مع الرياح[109] •

الإسـكندر الأيتولى Alexandros ho Aitôlos :

وكان كما أسلفنا أحد شـعراء دائرة قوص الأدبية ، وعندما وصل إلى الاسكندرية عهد إليه بطلميوس سوتير بتصنيف وترتيب diorthôsis مؤلفات شعراء التراجيديا والمسرحيات الساتيرية فى مكتبة الاسكندرية • ولقد كان الإسـكندر الأيتولى ، الذى ولد حوالى ٣١٥ ق•م• ، أحـد مشاهير العصر السـكندرى الذين عرفوا باسـم نجوم كوكبة الثريا Pleiades ، كما كان هو نفسـه مؤلفا للتراجيديا • ويبدو أنه ترك الإسـكندرية عام ٢٧٦ ق•م• بعد إنجاز مهمته فى المكتبة وذهب للإقامة فى بلاط الملك المقدونى أنتيجونوس جوناتاس Antigonos Gonatas[110]

ولسوء الحظ لم يبق لنا من تراجيديات الإسـكندر الأيتولى سوى

عنواناً لمسرحية واحدة هو: لاعبو النرد Astragalistai . وبالنسبة لقصائده الإليجية لدينا شذرة مكونة من ٣٤ بيتا من قصيدة بعنوان أبوللون Apollôn ، وهى عبارة عن مجموعة من قصص الحب التى تنتهى بنهاية مفجعة ، والقصص هنا تمت صياغتها على شكل سلسلة من النبؤات التى ينطق بها الإله أبوللون نفسه. وتدور الشذرة المذكورة حول قصة أنثيوس Antheus وكليوبويا Kleoboea فى لغة تتسم بالجفاف والتكلف . وهناك قصيدة أخرى بعنوان الموسيات Mousai يبدو أنها كانت تتناول تاريخ الأدب وتتضمن إشادة بيوريبيدس . ولدينا كذلك شذرات من (مليحمتين): الأولى بعنوان الصياد Halieus والثانية بعنوان Kirka أو Krika . ولقد نسبت إلى شاعرنا أعمال أخرى هى الظواهر Phainomena والقصائد الأيونية وعدد من الابجرامات[111] .

هرمسياناكس الكولوفونى Hermêsianax ho Kolophônios :

ولد هرمسياناكس ، الذى كان أيضاً تلميذاً للشاعر المتفقه فيليتاس ، حوالى عام ٣٠٠ ق.م. وألف قصيدة بعنوان (الفرس) Persika التى تضمنت قصة نانيس Nanis وقورش Kyros . وحفظ لنا أثينايوس شذرة على قدر من الطول من قصيدته المشهورة ليونتيون Leontion ، وهو فيما يبدو اسم لمحظيته التى أراد أن يكرمها باطلاق اسمها على القصيدة . وكانت قصيدة ليونتيون مكونة من ثلاثة كتب : يحتوى الأول منها فيما يبدو على قصة حب بوليفيموس Polyphêmos (أحد الكيكلوبيس) لعروس البحر جالاتيا Galateia ، وكذلك على قصتين من قصص الحب الرعوية . أما الكتاب الثانى فيضم قصة أركيوفون Arkeophôn وأرسينوى Arsinoê ، وربما أيضاً قصة العاشق ليوكيبوس Leukippos . أما الكتاب الثالث ــ وهو الذى وصلتنا منه شذرة أثينايوس ــ فيبدو أنه يحتوى على قائمة مطولة تضم قصص أشهر المحبين فى العصور القديمة ، واختص منهم من قوبل فى حبه بالصد

أو بالفشل أو [illegible] الحظ مركزاً على الشعراء بدءاً بأورفيوس وانتهاء بأستاذه فيليتاس ، ولم ينس كذلك الفلاسفة أمثال فيثاغورث وسقراط وأرســـتيبوس Aristippos ، ويخاطب الشاعر محبوبته ليونيتون عــدة مرات باسمها(١١٢) •

ولقد أسهب الشاعر فى سرد قصص الحب هــذه وبالغ فى تنميقها رغبة منه فى استمالة قلب معشوقته ، ولكن رغم تنميق العبارات وتفخيمها فهى قاصرة عن جذب القارئ لأن شــعر هرمسياناكس خال من العاطفة وزاخر بالتفقه والعلمية • ويمثل شعر هرمسياناكس تقريباً كل الخصائص التى تميزت بها مدرســة الاسكندرية مثل الميل الى الشروح المســهبة glôssai ، والرغبة الشديدة فى التعبير عن عاطفة الحب بخاصة حينما تكون نهاية قصــة الحب تعيسة ، وكذلك البحث والتقصى عن سبب لكل ظاهرة ولكل معلومة • وأيا كان الأمر فشاعرنا يفتقر الى العبقرية والخيال الموهوب فهو يجعل من هوميروس عاشقاً لبينيلوبى ومن هسيودوس حبيباً لايويا Êôia (وهو اسم مأخوذ من احدى القصائد المنســوبة لهسيودوس) ، ويجعل كلاً من ألكايوس وأناكريون متنافسين على حب الشــاعرة سافو ومن سقراط محباً لأسباسيا Aspasia • ولا ندرى ســبباً وجيها لتخيل مثل هــذه العلاقات ولا أساساً مقنعا وراء اختيار الشــاعر لهؤلاء المحظيات(١١٣) •

فانوكليس : Phanklês

وكان أصغر سناً من هرمسياناكس ويحتمل أنه عاش فى النصف الأول من القرن الثالث ق•م• ولقد بقيت لنا ست شذرات — احداها من ستوبايوس — من قصيدة له فى البحر الاليجى المثنوى ، ذكر لنا الفيلسوف كليمنس السكندرى أن عنوانها هو « أرباب الحب أو الفاتنون Erôtes ê Kaloi » • وهــذه القصيدة أيضاً عبارة عن قائمة بقصص الحب التى خاض غمارها الآلهة مثل ديونيسوس ، أو الأبطال مثل أورفيوس ،

ثانتالوس ، أجاممنون . وعاطفة الحب في جميع هـذه القصص موجهة نحو الغلمان الذين يتصفون بالجمال الساحر والفتنة . وتدور الشذرة التي أوردها ستوبايوس ، وهي مكونة من ٢٨ بيتاً ، حول وفاة المنشد الأسطوري وما تلا ذلك من أحداث . وتبين هـذه الشذرة أن فانوكليس كان يتمتع بموهبة ملحوظة في السرد القصصي وأن لغته كانت بسيطة معبرة خالية من التكلف والحذلقة، وعباراته منتقاة بعناية وتشيع بين ثناياها عذوبة موسـيقية(١١٤) .

ومن المحتمل أن فانوكليس أراد بقصيدته هذه أن يعارض قصيدة ليونتيون التي ألفها هرسياناكس فجعل المحبوبين غلمانا بدلا من المخظيات من الشاعر هرمسياناكس . لكن فانوكليس كان مولعا أكثر من معاصره الأكبر هرمسياناكس بتقصي الأسباب ، وربما أثر في هذا الصدد على الشاعر أبوللونيوس الرودي كما أثر أيضا في الخصائص المتعلقة بالوزن . وهناك ما يدل على تأثر الشاعر الروماني فرجيليوس بهذه القصيدة عند كتابته الجزء الخاص بالمنشد أورفيوس في الكتاب الرابع من الزراعيات Georgica . (١١٥) .

سيمياس الرودي Simmias ho Rhodios :

وهو شاعر جمع إلى جانب قرض الشعر الاشتغال بعلم النحو ، ومن المحتمل أنه ازدهر حوالي ٣٠٠ ق.م. في جزيرة رودس . أما أعماله فتشمل ثلاثة أجزاء من مؤلف بعنوان « الشروح » Glessai ، اقتبس منه أثينايوس عدة مقتطفات تتعلق بمعاني بعض الألفاظ . وكذلك أربعة أجزاء من كتاب بعنوان « القصائد » Poiêmata، وهي قصائد تختلف في طبيعة كل منها . ولقد بقيت لنا أيضا شذرات من ملحمة منظومة في البحر السداسي عنوانها « أبوللون » ، ومن ملاحم أخـرى هي « جورجو » Gorgô و « الشهور » Mênes، ومن قصائد غنائية لا نعرف عنوانها . وهناك كذلك ست إبجرامات حفظت تحت اسم سيميلس في الأنثولوجية

نختار منها الإبجرامية التالية لأنها تتميز بالعاطفة المخلصة الفياضة[١١٦]:
« كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي خاطبت بها جورجو أمها الحبيبة وهي تتشبث باكية بجسدها بكلتا يديها : « ألا ليتك تبقين من جديد بجوار والدي وتنجبين له في شيخوختك الشهباء مولودة أخرى تتمتع بحظ أفضل » • » •

وبالاضافة إلى ذلك اشتهر سيمياس الرودي بالأشعار المصورة التي تكتب فيها القصيدة على صورة الشيء الذي تحمل اسمه ، وتسمى هذه الأشعار اصطلاحا باسم Têchnopaignia • وترك لنا سيمياس ثلاث قصائد كاملة من هذا النوع : تحمل الأولى عنوان « الجناحان » ، والثانية « البلطة » ، والثالثة « البيضة » • ويتشابه أسلوب سيمياس الأدبي مع أسلوب دائرة قوص الأدبية التي كان من أبرز شعرائها ثيوكريتوس • ورغم أن سيمياس كان يطلق على نفسه لقب « العندليب الدوري » Dôria aêdôn ، الا أن كتاباته لم تكن مدونة باللهجة الدورية فحسب بل تضمنت صورا من لهجات أخرى[١١٧] •

كتاب النثر والعلميون :

ومن بين هؤلاء نجد كاالليسثينيس من أولنثوس Kallisthenês ho Olynthios الذي ولد حوالي عام ٣٧٠ ق•م• ، وكان ابن أخ الفيلسوف أرسطو وتتلمذ على يديه ، كما اشترك معه في جمع وإعداد قوائم بأسماء الفائزين في الألعاب البيثية التي كانت تقام بدلفي ؛ ولقد تضمنت هذه القوائم تسجيلا لكل الفائزين بالبطولات في الألعاب والمسابقات منذ بداية انشائها • ولقد ألف كاالليسثينيس عملا هاما عن تاريخ الاغريق بعنوان Hellênikai Historiai يتكون من عشرة أجزاء ويغطي الفترة التي تبدأ بصلح أنتالكيداس Antalkidas وتنتهي بالحرب المقدسة ، التي خصص لها المؤرخ فصلا خاصا بها[١١٨] •

ولقد اشترك كالليسثينيس فى حملة الإسكندر الأكبر كمؤرخ لغزواته وشرع آنذاك فى تأليف عمل نال شهرة فى العالم القديم وعنوانه انجازات الاسكندر Alexandrou Praxeis ، وهو عمل متفوق إذا قورن بما كتبه بطلميوس أو ما كتبه أرستوبولوس Aristoboulos . ولكن كالليسثينيس التعس لم يقدر له اتمام هذا العمل ، لأنه عندما اعترض على فكرة السجود proskynêsis للإسكندر بوصفه معبوداً ، شك الاسكندر فى أنه ضالع فى تدبير مؤامرة ضده . لذلك أمر الإسكندر بإعدامه دون محاكمة عام ٣٢٧ ق.م. فى باكتريا . لكن هذا العمل أصبح فيما بعد كتابا بعنوان « حياة الاسكندر الأكبر » بعد أن أضيفت اليه بعض النوادر ذات المغزى anekdota والأقاصيص الخرافية والأشعار المدسوسة ، ليصبح أوسع الأعمال الأدبية انتشاراً فى العالم القديم ، ويستمر فى الانتشار حتى يصل الى بداية العصور الحديثة ويظفر بالاهتمام والإعجاب على مر العصور[١١٩] .

ومن مؤرخى العصر أيضا هيكاتيوس الأبديرى Hekataios ho Abdêritês ، الذى كان صديقا للملك بطلميوس سوتير ورافقه أثناء حملته على سوريا . ولقد ألف هيكاتيوس ، الذى ولد فى أبديرا وازدهر حوالى عام ٣٠٠ ق.م. ، عملين هامين : أولهما عن تاريخ مصر القديم بعنوان « المصريات » Aigyptiaka ، ويصور فيه المصريين على أنهم خالقى الحضارة القديمة ومنهم نهل كل فلاسفة الاغريق الحكمة ابتداء من أورفيوس حتى أفلاطون . ويمزج المؤلف فى هذا الكتاب بين الإثنوجرافيا (الأنثروبولوجيا الوصفية) والأساطير والتخيل الإبداعى الحركى يعبر عن آرائه فى الدولة والمجتمع ، ويعتقد الدارسون أن ديودوروس الصقلى قد تأثر بهذا الكتاب عند حديثه عن الديانة المصرية القديمة فى الجزء الأول من مؤلفه المشهور . أما العمل الثانى فيدور حول شعوب ما وراء الشمال Hyperboreanoi ، ويحكى فيه هيكاتيوس قصة شعب خرافى كان يعيش — وفقاً لخيال المؤلف —

فى دعة وطمأنينة فى جزيرة شـــمال غربى أوربا ويتمسك بورعه وتقواه • وكان هذا العمل يحمل عنوان عن الشعوب القاطنة أقصى الشـــمال Pari tôn Hyperboreôn . (١٣٠) •

وأهم كتاب هـــذه الفترة يوهيميروس الميسينى Euhêmeros ho Messênios ، صديق الحاكم المقدونى كاساندروس ، والذى يعد أول ثائر دينى فى العالم القـــديم • إذ أن كتـــابه « القائمة المقدســـة » Hiera Anagraphê المدون عام ٢٨٠ ق•م• يعد أول كتاب يبحث فى أصل آلهة الاغريق القدامى وطبيعة هؤلاء الأرباب ، دون اعتماد على تفسير أسطورى بل بما يتناسب مع التفكير العقلى المـــادى • وفى هذا الكتاب يتحدث يوهيميروس عن جزيرة خيالية تسمى بانخيا Panchaia تقع فى المحيط الهنـــدى ويعيش فيها شعب يعرف باســـم البانخيون Panchaioi • ثم يمضى فيصف لنا كيف أنه وجد فى هـــذه الجزيرة معبـــداً للإله زيوس تريفيليوس Triphylios (أى المنحـــدر من ثلاثة أجنـــاس) ، به عمود ذهبى نقشت عليه أســـماء آلهة الأوليمبوس : أورانوس ، كرونوس ، زيوس ، بوصفهم ملوكا حكموا هذه الجزيرة • ومن هـــذا يستنتج يوهيميروس أن باقى أرباب الاغـــريق لهم نفس الأصل ، وبناء على ذلك فالآلهة الاغريقية لم تكن سوى فئة من الملوك أو الأبطال ألهتهم شـــعوبهم بعد موتهم لـــا قاموا به من أعمال جليلة أو شـــهيرة • ووفقاً لهـــذه النظرية فإن هيراكليس هو أوضح مثل على تأليه بشر قام بأعمال خارقة ، كما أن أفروديتى كانت فى الأصل امرأة ماجنة أخذت على عاتقها تعليم الفتيات فى جزيرة قبرص فن الدعارة وبعد موتها ألهها الناس لشهرتها (١٣١) • ولقد لعبت هذه النظرية الدينية دوراً هاماً فى التأثير على مفكرى العصر الهيلنستى وكتابه ، لأن صاحبها كان أول من جاهر صراحة بشكه فى آلهة الأوليمبوس ، ولأن فحواها ومضمونها كان يلتقى فى الغالب مع نظريات المدارس الفلسفية التى سادت خلال هذا العصر (١٣٢) • وبوجه عام فإنه نتيجة لهذه الأفكـــار

ولأسباب أخرى هبطت الآلهة من عليائها وفقدت مكانتها التقليدية ، ونتج عن الفراغ الدينى عزوف الناس عن التقوى وانتشار الإلحاد والولع بالحسيات •

وكان من نتيجة فتوحات الإسكندر الأكبر أن زاد الاهتمام بعلم الجغرافيا من أجل وصف الأقطار الجديدة التى لم تكن من قبل معروفة لدى الاغريق ، كما فتح ذلك مجالا جديدا أمام كتاب التاريخ كى يصفوا شعوباً جديدة لم يكن المؤرخون عادة يتطرقون للكتابة عنها • ومن هؤلاء الكتاب بيثياس من ماساليا Pytheas ho Massalios الذى سافر على أيام حملة الاسكندر الأكبر الى شمال غرب أوروبا ووصف لنا ذلك الجزء من العالم فى كتابه الذى يحمل عنوان « عن المحيط » Peri Okeanou [١٣٣] • ونجد أيضاً المؤرخ المصرى مانيثون Manethôn من سبينيتوس Sebennytos (، الذى كان كاهنا فى مدينة هليوبوليس Hêlioupolis (أثناء حكم بطلميوس الأول سوتير وشارك فى إدخال عبادة الإله الجديد سرابيس Serapis إبان حكم ذلك العاهل • ولقد دون مانيثون عملا هاماً باللغة الاغريقية عن تاريخ مصر القديم بعنوان Aigyptiaka اتبع فى تأليفه الترتيب الزمنى • ويعتبر هذا الكتاب أهم الأعمال مباشرة بعد تاريخ هيرودوتوس عن مصر لأنه كان أساساً لما كتبه فيما بعد المؤرخ اليهودى يوسف والمؤرخ الاغريقى يوسبيوس Eusebios عن تاريخ مصر • وبالاضافة إلى ذلك كان هذا الكتاب ذا فائدة كبيرة لعلم المصريات ، إذ ساعد على تفسير كثير من القطع الأثرية المكتشفة وعلى معرفة ترتيب الأسرات الحاكمة لمصر وملوكها الفراعنة • أما بيروسوس Pêrôssos الذى كان كاهنا للاله مردوك (أو بعل) فقد ازدهر حوالى عام ٢٩٠ ق•م• ودون تاريخ بابل تحت عنوان « البابليات » Babylôniaka فى ثلاثة كتب ، وأهداه الى ملك سوريا أنطيوخوس الأول سوتير • ويتناول بيروسوس فى الكتاب الأول تاريخ البابليين منذ البداية حتى عصر الطوفان ، وفى الكتاب

الثانى يصل حتى عصر نبوخذنصر (٧٤٧ ق٠م٠) ، أما الكتاب الثالث فينتهى عند وفاة الإسكندر الأكبر[١٢٤] .

أما تاريخ الهند القديم فقد اهتم به ميجاسثينس Megasthenês (حوالى ٣٥٠ — ٢٩٠ ق٠م٠) الذى كان مبعوثاً فى سفارة من قبل ملك سوريا سليوقوس الأول نيكاتور Seleukos Nikatôr (٣١٢ — ٢٨١ق٠م) الى ملك الهند خاندراجوبتا (الذى يسميه الاغريق ساندراكوتوس) ٠ولقد دون ميجاثينيس تاريخ ذلك الجزء من العالم فى أربعة أجزاء تحت عنوان « الهنديات » Indika : ويتناول المؤلف فى الكتاب الأول جغرافية الهند ويصف شـــعوبها ومدنها ، ويتعرض فى الكتابين الثالث والرابع لنظام الحكم فيها وطبقات الشعب والعادات والتقاليد المستمدة من الدين، أما الكتاب الأخير فيخصصه لآثارها وأساطيرها القديمة • ولقد كــان لهذا الكتاب الهام تأثير واضح على كل من استرابون وأريانوس اللذين كتبا عن تاريخ الهند ، واعتبرت المعلومات الواردة فيه أساسا لما ورد عند الكتاب المتأخرين فى العصور التالية عن الهند[١٢٥] .

يوكليديس (= إقليدس) Eukleidês :

أما العلميون فقد برزوا فى هذا العصر الذى شهد انطلاقة كبرى للعلوم حينما تحررت من إسار الفكر النظرى ومن ربقة الفكر الفلسفى • ولقد أشرنا قبلا إلى عدد من العلماء الذين خلفوا الفيلسوف أرسطو فى زعامة مدرســة المشائين مما يقطع بوجود اتجاه علمى جديد استنته هذه المدرسة العريقة • وسوف نتناول هنا أشهر علماء فترة البدايــات الأولى ، وهو العالم الرياضى الفذ إقليدس ، أما باقى العلماء فسوف يدور الحديث عنهم فى مــكان آخــر • ولقــد عاش إقليدس فــى الاسكندرية خلال حكم بطلميوس الأول سوتير (٣٠٦ — ٢٨٣ ق٠م٠) .

وازدهر حوالى ٣٠٠ ق.م. حيث كان يقــوم بالتدريس فى مدينــة الإسكندرية على عهد ذلك العاهل .

ولقد طبقت شهرة إقليدس الآفاق سواء فى العــالم القــديم أو الحديث ، وظلت مؤلفاته تلقى ذيوعاً وانتشاراً على مر العصور . فرغم أن النظريات الهندسية قد تطورت فى العصر الحاضر تطوراً كبيراً إلى الحد الذى أصبحت معه الهندسة الإقليدية مجرد تراث قديم من مخلفات التاريخ ، إلا أن اسم اقليدس ظل قروناً عديدة مرادفاً للهندسة فى مدارس وجامعات العالم أجمع باعتباره مؤسس علم الهندسة منذ أقدم العصور . وكان يتردد على مدرســة إقليدس فى مدينة الاسكندرية عدد كبير من الدارسين ، من بينهم تلميذه الذى صار فيما بعد شــهيراً عالم الرياضيات أبو للونيوس من برجــا Apollônios ho Pergaios . وكان واضحاً أن إقليدس أستاذاً متميز الشخصية لا يعرف هوادة فى المبدأ ولا تأخذه فى الحق لومة لائم : فحينما سأله الملك بطلميوس الأول ذات مرة — وكان قد اعتاد حضور محاضراته — عما إذا كان بوسعه أن يجعل موضوع تدريسه أكثر جاذبية وســهولة ؛ أجاب بثقة واعتداد بالنفس : « سيدى ، لا يوجد هناك طريق ملكى إلى الهندسة ! » . وحينما فرغ إقليدس فى إحدى المرات من عرض أحد فروضه الهندسية ، ســأله أحد تلاميذه عن الفائدة التى يمكن أن تعود عليه كدارس من معرفة هــذه الفروض . فما كان من إقليدس إلا أن نادى من فوره على أحد العبيد قائلا : « أعط هــذا السيد ثلاثة أوبلات حيث أنه يريد حتماً أن يتكسب مما يتعلم »[١٣٦] .

وترتكز شــهرة إقليدس الواسعة على عمله الهام « العناصر » Stoicheia ، الذى يتكون من ثلاثة عشر كتاباً ، وتدور الكتب الستة الأولى منه حــول التعريفات الهندسية Horismoi ثم حــول هندسة المسطحات، ويكمل فيها اقليدس جهود من سبقوه فى علم الرياضيات

أمثال طاليس وفيثاغورث • أما الكتب من السادس الى التاسع فمخصصة للحديث عن نظرية الأعداد سـواء الفردية أو الزوجيـة (أو الوترية والشفعية وفقا لاصطلاحاتنا) theôria tôn artiôn kai perittôn arithmôn على حين يتناول الكتاب العاشر الأعداد الصماء وتدور الكتب الثلاثة الأخيرة حول الهندسة الفراغية • وسرعان ما بز هـذا العمل كل ما ألف قبله من أعمال فى هذا المجال على يـد هيبوكراتيس ويودوكسوس وغيرهما[١٣٧] • كما أنه احتل المكانة الأولى فى جامعات العالم حتى القرن التاسع عشر خصوصاً فى انجلترا ، وفرض نفسـه على كل ما عداه من مؤلفات وكتب حتى أصبح أهم كتاب فى تاريخ الهندسة • ولقـد وصلنا كتـاب العنـاصر عن طريق احـدى مخطوطات الفاتيـكان (Vaticanus MS. Gr. 190) التى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادى، ولكن يبدو أنها مخطوطة تم نقلها عن المصادر القديمة دون تمحيص وأنها أغفلت التصويبات والتعديلات التى قام بها العالم ثيون السكندرى فى القرن الرابع الميلادى ، وكذلك الشروح والتعليقات التى اضطلع بها عـدد من العلماء مثل هيرون السكندرى وبابوس Pappos وغيرهمـا • ولقد وصلتنا شذرات من هـذه الشروح عن طريق الترجمة العربية (النيريزى) لمؤلفات إقليدس ، أما أهم التعليقات على كتاب العناصر فهى التى تمت على يد بروكلوس للكتاب الأول • ولقد أضاف العلمـاء كتابين آخرين ليصبح عـدد كتب العناصر خمسـة عشر ، وذلك لأن المصادر القديمة أفادت بنسبة هذين الكتابين إلى إقليدس برغم أنهمـا لم يصلا الينا[١٣٨] •

ومن مؤلفات إقليدس الأخرى «المعطيات» Dedomena ، وهو كتاب بالغ الأهمية بالنسبة لتطور علم الجبر — وكذلك كتاب « المغالطات » Pseudaria الـذى لم يصـل إلينا ، وكتـاب « التقسـيمات » Peri Diaireseôn الخاصة بالأعداد والذى بقيت فقط ترجمته العربية ، وكتاب « الافتراضات » Hypotheseis الذى بقيت بعض أجزائه •

وهناك ثلاثة كتب من عمله عن أشكال المنشور بعنوان Porismata ، وعمل آخر بعنوان « المواضع السطحية » Topoi pros Epiphaneiâi ، وأربعة كتب عن أشــكال المخروط بعنوان Kônika ، وهذه كلها أعمال مفقودة وكل ما نعرفه عنهــا هو ما أورده عالم الرياضيات بابوس • وبالإضافة الى هــذه الأعمال نجد مؤلفات أخرى هى كتاب « الظواهر الفلكيــة » Phainomena الذى يحتوى على نحو من ١٨ مسألة فى مجــال الهندسة الكروية ، اعتمد فيهــا إقليدس جزئياً على كتــاب « الكواكب الســيارة » Peri Kinoumenês Sphairas الذى ألفــه الفلــكى أوتوليكوس Autolykos (أواخــر القرن الرابع ق٠م٠) • وكتابان فى علم البصريات أحدهما تحت عنوان Optika ، والثانى نسبته لإقليدس غير مؤكدة وهو بعنوان Katoptrika • وهناك أيضا كتاب فى العناصر الموسيقية وكتاب مدخل إلى الهارمونية ، وهما منسوبان إليه بالإضافة الى كتاب ثالث بعنوان « تشريح القــانون » Katatomê Kanonos (١٢٩)• ونسوق فيما يلى نموذجاً من التعريفات الهندسية والتى كان الدارســون فى ذلك العصر يحفظــونها على ما يبــدو عن ظهر قلب(١٣٠) :

« النقطة هى التى لا بعد لها • الخط طول بلا عرض • وحدود الخط هى النقط • الخط المستقيم هو الذى يمتد باستواء النقط التى عليه • السطح هو الذى له طول وعرض فقط ، وحدود السطح هى الخطوط • السطح المستوى هو الذى يمتد باســتواء الخطوط المستقيمة فوقه • الزاوية المستوية (تنشأ من) ميل الخطوط على بعضها ، وذلك فى المستوى الذى يتلامس فيه خطان أحدهما بالآخر ولا يقعان على خط مستقيم واحد • وعندما تكون الخطوط المعينة مستقيمة فان الزاوية تسمى زاوية خطية • وعندما يلاقى مستقيم مستقيماً آخر بحيث يجعل الزوايتين المتجاورتين متساويتين فإن كلا من هاتين الزاويتين تسمى قائمة » •

ولقد اهتم العرب اهتماماً كبيراً بإقليدس وترجموا معظم أعماله إلى

العربية ، بل وذهبوا الى القول بأنه عربى الأصل • ولقد تمت ترجمة أعمـــال إقليدس الى العربية فى القرن الثامن الميلادى ، ومن هـــذه الترجمة بعد نقلها الى اللغة اللاتينية أصبح إقليدس معروفاً فى العصور الوسطى الأوروبية فصدرت أول طبعة من أعماله عام ١٤٨٢ فى البندقية على يد كامبانو Campano • لكن النص الاغريقى لأعمال إقليدس لم يظهر فى طبعة علمية محققة سوى عام ١٥٣٣ تحت اشراف العـــالم الشـــهير إرازموس Erasmus .

* * *

« حواشى الفصــل الأول »

(١) F.A. Wright, A History of Later Greek Literature, London (1951) , pp. 12 - 13 ; E. Zeller, Outlines of the History of Greek Philosophy, New York (1966) , p. 202; J. M. Edmonds, The Characters of Thaphrastus, L.C.L., London (1966) , pp. 3 - 10.

(٢) Albin Lesky, A History of Greek Literature, transl. by James Willis & Cornelis de Heer, Methuen - New York (1966), p. 687.

(٣) A. Lesky, ibid., pp. 577 - 578.

(٤) F. A. Wright, op. cit., pp. 19 - 21 ; E-Zeller, op. cit., pp. 203 - 204.

(٥) Cf. E. G. Turner, Greek Papyri : an Introduction, Oxford (1968) , p. 98; A. Lesky, op. cit., pp. 643 ff.

(٦) د . محمد حمدى ابراهيم ، نظرية الدراما الاغريقية ، دار لونجمان القاهرة (١٩٩٤) ، صص ١٨ - ١٩

(٧) المرجع نفسه ، صص ٩٨ - ١٠١

(٨) ورد هــذا القول فى شذرة باقية من مسرحية مفقودة لمناندروس عنوانها ثراسيبيلون Thrasyboulon . انظر : ج . و . داف ، تاريخ الأدب الرومانى ، القاهرة (١٩٦٢) ، ص ٢٢٦ ، ترجمة د . محمد سليم سالم .

(٩) apud A. Lesky, op. cit., pp. 658 - 659 & 660.

(١٠) Quintilianus, Institutio Oratoria, X. i. 69 & 71.

(١١) F. A. Wright, op. cit., pp. 31 ff.

(١٢) Cf. E. Zeller, op. cit., pp. 234 ff

(١٣) د . أميرة حلمى مطر ، الفلسفة عند اليونان ، القاهرة (١٩٧٧) ، ص ٣٧٩ وما بعدها .

(١٤) E. Zeller, ibid., pp. 238 - 239.

(١٥) C. W. Chilton, Diogenes of Oenoanda : the Fragments, Oxford (1971) , pp. 10 - 22.

(١٦) Cf. E. Zeller, op. cit., pp. 209 ff.

(١٧) D. L. Page, Epigrammata Graeca (= Ep. Gr.) O.C.T. Oxford (1975) , p. 227, no. 35 = Diog. Laert., Vii - 29.

(١٨) Diogenes Laertius, Bioi kai Gnomai ..., Vii - 140.

(١٩) H. Von Arnim, Stoicorom Veterum Fragmenta, vol. I (1903) , P. 121

(٢٠) Diog. Laert., vii. 183 : « ei mê gar ên Chrysippos, ouk an ên Stoa ».

(٢١) E. Zeller, op. cit., pp. 108 ff.

(٢٢) يرى الاستاذ زيللر (loc. cit. , p. 108) أن المدرسة سميت باسم « الكلبية » إما لأن النصف الأول من كلمة Kynosarges (وهو - kyno) يعنى الكلب ، أو بسبب غرابة أطوار أشهر فلاسفتها ديوجينس وشذوذ سلوكه ولأنه كان يطلق على نفسه لقب «الكلب» kyôn

(٢٣) A. Lesky, op. cit., pp. 669 - 670.

(٢٤) E. Zeller, op. cit., p. 112; A. Lesky, loc. cit., p. 670.

(٢٥) E. Zeller, op. cit., p. 241.

(٢٦) idem, ibid., p. 242.

ولقد نقد الشكاك جميع المذاهب الفلسفية سواء السابقة عليهم أو المعاصرة لهم ، وسخروا من كافة الفلاسفة ومن جميع نظريات المعرفة ، لكنهم لم يبتدعوا نظرية خاصة بهم ولم يحاولوا تأصيل مذهبهم على أساس علمى . لذلك تقلصت مدرستهم وانتهى الأمر بها إلى الانضواء تحت لواء المدرسة الأكاديمية فى النصف الثانى من القرن الثالث ق.م.

(٢٧) A. Lesky, op. cit., pp. 626 - 627.

(٢٨) ibid., pp. 624 - 625.

(٢٩) ibid., pp. 771 - 772 .

(٣٠) ibid., pp. 640 - 641.

(٣١) Ep. Gr., p. 87, no. 28 = Anthologie Palatina (= A . P.) , v. 11.

(٣٢) M.M. Salamouni, Erinna, the Poetess of Telos, and the Poets of the Alexandrian School, Bulletin of the Faculty of Arts, XXii (1960) , Cairo Univ. Press (1965).

(٣٣) A. Lesky, op. cit., p. 739.

(٣٤) Ep. Gr., p. 63, no. 15 = A.P., ix. 745.

(٣٥) Ep. Gr, p. 65, no. 20 = A. p., vii - 190.

(٣٦) A. Lesky, op. cit., pp. 743 &757.

(٣٧) ibid., p. 739.

(٣٨) Ep. Gr., p. 67, no.1 = A.P., V. 170.

(٣٩) بعد موت الاسكندر الاكبرة اصبح أنتيباتروس حاكماً على مقدونيا، وعندما حاولت أثينا التمرد على سلطة مقدونيا من اجل استعادة ديمقراطيتها السليبة قضى أنتيباتروس على هـذا التمرد وسحق المقاومة وصادر املاك المواطنين .. وفى عام ٣١٧ ق.م. عين كاسـاندروس Kassandros بن أنتيباتروس ، ديميتريوس الفاليرى حاكماً epimelêtês على أثينا ، غير أن ديميتريوس البوليوركيتى ، بن أنتيجونوس الأعور Antigonos ho Monophthalmos ، خلال صراعه مع كاساندروس تمكن من احتـلال أثينـا وطرد الفاليرى منها عام ٣٠٧ ق.م. ومع ذلك فقد اعتبر الأثينيون البوليوركيتى منقذاً لهم من سطوة الفاليرى ــ تماماً مثلما اعتبر المصريون الاسكندر مخلصاً لهم من سطوة الفرس .. اما لقب البوليوركيتى ومعنـاه « محاصر المدن » فقد أطلق على ديمتريوس لأنه حاصر جزيرة رودس عام ٣٠٤ ق.م. حصاراً عنيفاً ولكنه لم ينجح فى احتلالها .

(٤٠) A. Lesky, op. cit., p. 644.

(٤١) ibid., p. 784.

(٤٢) ibid., p. 689.

قارن أيضاً : د . مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية القديمة ، القاهرة (١٩٧٧) ، ص ١٠ .

(٤٣) د . مصطفى العبادى ، المرجع نفسه ، ص ٣٢ .

(٤٤) Herondas, Mimoi : Mimes , ed. by J.N. Arbuthnot, Budé : Belles Lettres, Paris (1928) , mime no. 1 , ll. 28 - 31.

وقد لا تنهض هـــذه الاشارة دليلا على أن الموسيون كان موجوداً فى عصر سوتير ، لاسيما وأن تاريخ حياة هيرونداس يكتنفه الغموض . ومع ذلك فإنى أرجح الرأى القائل بانشـــاء الموسيون فى عهد العاهل سوتير حيث إن آراء الباحثين قديماً وحديثاً قد اتفقت على أن فكرة انشائه كانت بتخطيط من الفاليرى . فإذا علمنا أنه كانت هناك خصومة شـــديدة بين فيلادلفوس والفاليرى ، فإن هـــذا من شأنه أن يحملنا على الظن بعدم تحمس فيلادلفوس لهذه الفكرة طالمـــا أنها صادرة عن غريمه . أما والده الملك سوتير فكان على العكس من ذلك صديقاً للفاليرى ومتحمساً لأفكاره ومشروعاته الحضارية .

(٤٥) A. Lesky, op cit., pp. 3 & 696.

(٤٦) Strabo, Geôgraphika, ed. by G. Kramer, Berlin (1844 - 1852), 753 - 794.

(٤٧) تم العثور على نقش نشره الأستاذ ديتنبرجر فى :
W. Dittenberger, Orientis Graeci Insceriptiones Selectas (= O. G. I. S.), (1903 - 1905) , no. 104.

تبين لنا منه أنه كان هنـــاك رئيس ادارى epistatês للموسيون بخلاف الرئيس الكاهن . ويبدو أن هـــذا النظام الرئاسى المزدوج لم يكن وقفاً على الموسيون وحده بل كان نظاماً متبعا فى كافة المعابد . قارن : د . مصطفى العبادى ، المرجع المشار اليه ، ص ٣٣ .

(٤٨) كانت المعرفة الموسوعية تضم فرعين دراسيين يحتوى أولهما على ثلاثة مناهج أدبيـــة (سـماها الرومان trivium) هى : النحـــو

grammatikê ؛ الريتوريقا rhêtorikê ، الدياليكتيا (الجدل الفلسفى) dialektikê . بينما يشمل الثانى مناهج علمية (سماها الرومان quadrivium) هى : الحساب arithmêtikê ، الهندسة geômetrikê ، الفلك astronomia ، والموسيقى mousikê

انظر :

H. I . Marrou, Histoire de l' Education dans l' Antiquité, Paris (1960) , pp. 244 - 245.

(٤٩) عن معنى كلمة philologos عند أفلاطون ، أنظر :

Plato, Nomoi, 641 E; Lachês, 188 C.

وعن معناها كمتفقه فى الأدب ، أنظر :

Aristotle, Rhêtorikê Technê, 1398 B, 14 .

وعن تسمية إراتوسثينيس بهذا اللقب ، انظر :

Suetonius, Grammatici, 10.

(٥٠) د . مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية ، صص ١٩ — ٢٠ .

(٥١) كانت المكتبة — وفقاً لأرجح الاحتمالات كما سنرى فيما بعد — ملحقة بمبنى الموسيون ، أو أنها كانت تحتل مبنى مجاوراً لمبناه . وفى رأينا أن هناك صلة وثيقة وعمل مشترك بين المكتبة وبين الموسيون : ففى مبدأ الأمر كانت المكتبة بما حوت من كتب ومراجع المنهل الذى نهلت منه الدراسات التى قام بها علماء الموسيون ، ولكن بعد ازدهار هذا المجمع العلمى العظيم أمكن له أن يثرى المكتبة بالدراسات والمؤلفات والأبحاث العديدة التى انجزها أعضاؤه .

(٥٢) لدينا نقش من العصر الرومانى (أنظر : O. G. I. S. , no. 714) يوضح أن علماء الموسيون كانوا [illegible] من الضرائب . قارن : د . مصطفى العبادى ، المرجع المشار اليه ، ص ١٩ ..

(٥٣) H. Diels, Poetarum Philosophorum Fragmenta, (1901), fr - 12 = Timon fr.60 .

(٥٤) عن تفسير أثينايوس لهذه المقطوعة الهجائية ، انظر :

G. Kaibel, Athenaei Naucratitae Dipnosophistarum, Leipzig (1887) , 22D.

(٥٥) د . مصطفى العبادى ، المرجع نفسه ، صص ٢٠ — ٢١ .

(٥٦) المرجع نفسه ، ص ٥ وما يليها : حيث نجد عرضاً للمكتبات التى كانت موجودة بمعابد المصريين القدماء ، وكذلك فى البلاد التى ازدهرت بها الحضارات القديمة ســـواء فى الشرق أم عند الاغريق .

(٥٧) P. M. Fraser, Ptoloemaic Alexandria, Oxford (1972 vol. I,p. 320. See also the notes in the second volume.

(٥٨) Strabo, Geôgraphika, 608C.

حيث يقول استرابون « إن ارسطو كان أول من اقتنى مجموعة من الكتب ، وإنه أول من علم ملوك مصر كيفية إنشاء المكتبة » . ولكن لا ينبغى ان نفهم من هـــذه العبارة اكثر من ان ارسطو — بمكتبته المعروفة أو عن طريق تلميذه الفاليرى — قد أوحى للملوك البطالمة بفكرة تأسيس مكتبـــة الاسكندرية الشهيرة . انظر كذلك : مصطفى العبادى ، ص ١٣ : حيث نجد ذكراً لشراء الفاليرى الجزء الأكبر من مكتبـــة ارسطو من تلميذ المعلم الأول المدعو نيليوس ، وذلك لحساب مكتبـــة الاسكندرية .

(٥٩) كان ارستياس اغريقيا يعمل فى خدمة بطلميوس السادس فيلوميتور Ptolemaios ho Philomêtôr (١٨٠ — ١٤٥ ق.م.) ، وكان قد دون خطابا لأخيه فيلوكراتيس Philokratês فى نحو من خمسين صفحة يدور مضمونه حول الترجمة السبعينية للتوراة ، وكيف أنها تمت فى عهد فيلادلفوس على يد سبعين حبراً من احبار اليهود . ولكن الباحثين يرون أن هـــذا الخطاب منحول ، وبالتالى فان ما جاء به من معلومات مثل رئاسة الفاليرى للمكتبة وغير ذلك يعد زائفاً أو دون سند علمى . ولقد نشرت محتويات هـــذا الخطاب فى طبعة التوبنر Teubner الالمانية على يد وندلاند Wendland عـــام ١٩٠٠ م .

(٦٠) دون انزتزيس هـــذه المعلومات الخاصـــة بمكتبة الاسكندرية فى مؤلف بعنوان « عن الكوميديا » peri Kômôdias ، ونشره كايبل عام ١٨٩٩ ضمن مجموعة الشذرات الخاصـــة بكتاب الكوميديا الاغريق :

G. Kaibel, Comicorum Graecorum Fragmenta (= C . G. F.), Berlin (1899) , pp. 17 - 33.

وبالاضافة الى هـــذه المعلومات نجد اشارات اخرى عن مكتبة الاسكندرية فى المعاجم القديمة مثل معجم سودا Souda (المعروف باسم سويداس) ، ومعجم هيسيخيوس Hêsychios ، وكذلك بردية أوكسيرنخوس الشهيرة (P. Oxy., X (1914), no . 1241) التى يرجع تاريخها الى القرن الثانى الميلادى والتى تحتوى على قائمة بأســـماء من تولوا رئاســـة مكتبة الاسكندرية •

(٦١) من قوائم كاليماخوس ، انظر : د .. مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية ، ص ١٨٠ .

(٦٢) G. Kaibel, C. G. F., pp. 19 & 30 (= Mb 29, Pb 20).

(٦٣) J. P. Migne, Patrologia Graeca, vol. XLiii, col. 255.

ومما يؤيد ما قاله كل من انزتزيس وإبيفانيوس عن وجود مكتبتين لا مكتبة واحدة ، أن معظم الاشارات القديمة الى منصب رئيس المكتبة كانت تذكر المكتبة بصيغة الجمع لا المفرد . انظر :

P. M. Fraser, op. cit., p. 323.

(٦٤) ibid., p. 324.

ولقد وردت اشارات عديدة عند آباء الكنيســـة تفيد بأن الترجمة السبعينية للتوراة والتعليقات المدونة عليها وكذلك شروحها ، كانت مودعة بمكتبة السرابيون . كما أن لدينا نقش يرجع تاريخه إلى عصر الملك بطلميوس التاســـع (سوتير الثـــانى) [O. G. I. S., no. 172] يذكر عبـــارة « المكتبـــة الكبرى » têas megalês Bibliothêkês .

(٦٥) ويثير الأستاذ فريزر (المرجع المشار اليه ، ص ٣٢٤) عـدة تساؤلات حول موضوع مبنى المكتبة ، ويرى انه من غير المعقول ان يكون مبنى مكتبة الاسكندرية مستقلا عن الموسيون ، وإلا لما اغفل ذكره كل من هيروندااس واسترابون . وحتى لو سلمنا جدلا بوجود مبنى مستقل لمكتبة الاسكندرية ، فكيف نفسر قناعة ملوك برجامون بأن تشغل مكتبتهم — وهي أقوى منافس لمكتبة الاسكندرية — حيزاً محدودا ملحقاً بمعبد الربة اثينا بولياس Polias؟ ثم ينطلق الأستاذ فريزر من ذلك إلى نقطة اخرى وهي أن كلمة bibliothêkê في اللغة اليونانية لم تكن تعنى اصلا وحتى ذلك العصر مبنى مكتبة مخصص للقراءة والاطلاع كما هو الحال في العصور الحديثة ، بل كانت تعنى مجرد مكان لحفظ أو خزن الكتب .

(٦٦) P. M. Fraser, op. cit., pp. 321 - 322.

وانظر ايضا : د . مصطفى العبادى ، المرجع نفسه ، ص ١٠ .

(٦٧) لكن انزتزيس يطلق على إراتوسثينيس لقب bibliophylax وعلى المنصب نفسه اسم bibliophylakia .

انظر :
G. Kaibel, C. G. F., pp. 24 - 25 & 31 (= Ma 1, Mb 30 & Pb 21)

(٦٨) في الفترة التى سبقت انشاء المنصب كان فيليتاس Philêtas شاعر قوص المشهور ، معلماً لابناء الملك سوتير وأشترك معه في تعليمهم العالم الطبيعى فيلوستراتوس Philostratos . وتذكر بردية أوكسيرنخوس سالفة الذكر أن كلا من ابو للونيوس الرودى وارستارخوس النحوى قد قاما بهذه المهمة ايضا ، إذ كان اولهما معلماً للملك بطلميوس الثالث يورجتيس ، والثانى معلماً لأبناء بطلميوس السادس فيلوميتور .

(٦٩) P. Oxy., X (1914) . no. 1241.

ويثير هذا الترتيب الذى ذكرته البردية مشكلتين : الأولى لماذا لم يتولى كاليماخوس رئاسة المكتبة ؟ والثانية اختلاف البردية عن المصادر الأخرى فى التسلسل ، حيث إن بقية المصادر قد جعلت إراتوسثينيس اسبق

فى الترتيب من ابو للونيوس الرودى على حين عكست البردية هذا الترتيب .
وعن المشكلة الأولى يمكن القول بأن المهمة التى اسندت لكاليماخوس وهى
إعداد قوائم المكتبة Pinakes وفهرسة محتوياتها كانت تتطلب فيما يبدو
مقدرة فذة لم تتوفر لسواه ؛ وربما كانت هذه المهمة بتكليف من الملك نفسه .
وهناك احتمال أن مثل هذه المهمة الصعبة لم تدع لديه وقتا لرئاسة المكتبة ،
أو أن منزلتها كانت تحمل له تكريماً أكثر من مجرد الرئاسة ؛ ومع ذلك فهناك
عدد من الباحثين يؤكد أن معلومات البردية خاطئة وأن كاليماخوس قد تولى
بالفعل رئاسة المكتبة . أما بالنسبة للمشكلة الثانية فيمكن القول بأنه بعد
وفاة زينودوتوس خلا منصب رئاسة المكتبة فأرسل الملك يورجيتيس الى
معلمه أبوللونيوس كى يحضر من جزيرة رودس ليتولى المنصب — الذى كان
فيما يبدو مدى الحياة — وبالفعل حضر أبوللونيوس وتقلد المنصب لسنوات
قليلة إلى أن توفى فخلفه العالم إراتوسثينيس. عن مزيد من التفصيل ، انظر :

M.M. Salamouni, The Literary Quarrel at Alexandria as Championed by Callimachus V. Apollonius Rhodius, Bulletin of the Faculty of Arts xxii (1960) , Cairo Univ. Press (1964) pp. 2 ff.

H. Diels et alii, Corpus Medicorum Graecorum (٧٠) (= C. M. G) , Leipzig (1918 —) , vol. V. 10. 2. 1, pp, 78 ff.

Athenaeus, Deipnosophistai, 3 B. (٧١)

قارن أيضا : د . مصطفى العبادى ، مكتبة الاسكندرية ،
ص ص ١٢ — ١٧ .

(٧٢) ادت هذه المنافسة من جهة اخرى إلى انتشار المخطوطات
المزيفة طمعاً فى الربح الذى كان من نصيب من يملك كتباً قديمة أو نادرة .
غير أن انتشار مثل هذه المخطوطات المزيفة قد ادى دون شك الى مضاعفة
جهود علماء العصر فى تحقيق النصوص الادبية القديمة وإعادة نشرها بعد
تنقيحها وتصويبها . ولا شك أن هذه الجهود هى التى جعلت عصر
الاسكندرية عن حق عصر النقد العلمى والتحقيق .

(٧٣) ربما كانت هذه المخازن هى التى ورد ذكرها عند ديون كاسيوس (Dio Cassius, Historiai, XLii, 38 - 2) فى معرض حديثه عن الحريق الذى شب فى مخازن القمح ومخازن الكتب أثنـــاء حرب الاســـكندرية عام ٤٨ ق.م. :

« tas te apothêkas kai tou sitou kai tôn biblôn » .

(٧٤) من الطريف أيضاً أن مخطوطات هوميروس كانت تصنف فى مكتبة الاسكندرية وفقاً للمكان الذى وردت منه : مثل hê Chia (من جزيرة خيوس) ، hê Argeia (من ارجوس) ، hê Sinôpikê (من سينوبى على البحر الأسود حيث ولد الفيلسوف ديوجينس الكلبى) . وأحياناً كان المخطوط الهرمرى يصنف وفقاً لناشره : مثل hê Zênodoteios (المنشور على يد زينودتوس) . انظر : P. M. Fraser, op. cit., p. 328.

(٧٥) G. Kaibel, C. G. F., p. 19 (= Mb 29) & p. 31 (= pb 21).

(٧٦) Cf. Atheneus, Deipno sophistai, 336D.

(٧٧) Plinius, Historia Naturalis, XXX.4 : « Hermippus ... scripsit et viciens centum milia versuum a Zoroastre condita indicibus quoque vel voluminum eius positis explanavit » .

(٧٨) G. Kaibel, C. G. F., Mb 31 & Pb 21.

(٧٩) أنظر : د . مصطفى العبادى ، المرجع المشار اليه ، صص ١٥ — ١٦ . حيث نجد ذكراً لأن المكتبة كانت تضم كتباً تمت ترجمتها عن لغات شـــعوب شتى غير إغريقية .

(٨٠) Cf. Dio Cassius, Historiai, Xlii, 38 - 2 ; Aulus Gellius, Noctes Atticae, Vii, 17 . 3; Ploutarchos, Kaisar, 49.

وانظر أيضاً : د . مصطفى العبادى، المرجع نفسـه ، ص٢٩ وما بعدها .

(٨١) Ploutarchos, Antônios, 51.

(٨٢) د . مصطفى العبادى ، المرجع نفسه ، صص ٣٤ — ٣٥ .

(٨٣) المرجع نفسه ، ص ٤٦ وما يليها . حيث نجد دراســة دقيقة ومفصلة وتتبعا متأنيا للمصادر وتفنيدا لكل الروايات التى راجت عبر العصور .

(٨٤) كان الشاعر ثيوكريتوس يشير فى عدد من قصائده الى كل من فيليتاس واسكليبياديس باحترام كبير وتوقير لمــا لهما من منزلة كبيرة فى نفسه . وفى القصيدة السابعة من ديوان ثيوكريتوس وعنوانها « نشــيد الحصاد » (أبيات ٣٩ — ٤١) نجده يشير إلى اسكليبياديس باسم سيكيداس Sikelidas : « ذلك انه لم يدر قط بخلدى أننى سأتفوق بانشــادى على سيكيداس العظيم من ساموس ، أو على فيليتاس ، والإسأكون مثل ضفدعة تنافس زيزان الحصاد » .

(٨٥) Cf. A. Lesky, op. cit., pp. 765 & 769.

(٨٦) شهد القرن الرابع ق.م. تطورات ملحوظة فى ميدان الإبجرامة تحول بعدها هــذا الفن من مجرد نقش على قبر إلى وســيلة من وسائل التعبير الذاتى المركز والمشحون بالأحاسيس . فهناك الابجرامات القليلة التى كتبها افلاطون فى مقتبل حياته ، والتى اثبت بها انه يملك مقدرة ملحوظة على التعبير الصادق وخلق الصورة الرائعة . كما نرى فى الابجرامة التالية :
(Ep. Gr., p. 47, no. 1 = A. P., vii. 669)

« يانجمتى يامن ترنين الى النجوم ، ليتنى كنت سماء كى أتطلع اليك بحشد من العيون ! » .

او كما نشاهد فى ابجرامة اخرى :
(Ep. Gr., p. 47, no. 2 = A.P., vii. 670) :

« من قبل كُنتِ تبرق كنجمة الفجر بين الاحياء ، والآن بعد موتك صرتِ تلمع كنجمة المســاء بين الهالكين » .

ولقد تحدثنا فيما سبق عن الابجرامات التى صاغتها الشاعرة أنيتى من تيجيا ، والتى كان لها أثر ملحوظ على أعمال الشعراء اللاحقين وبخاصة من أمثال ليونيداس وثيوكريتوس .

(٨٧) عن تطور الابجرامة فى عصر الاسكندرية ، انظر :
A. Lesky, op. cit., pp. 740 - 742.

(٨٨) Ep. Gr., p. 80, no . 2 = A.P., v. 85.

كلمة كيبريس Kypris (اى القبرصية) هى احد القاب الربة افروديتى، التى ولدت وفقاً لاحدى الروايات فى جزيرة قبرص ، وربما يفسر هـذا كثرة معابدها فى الجـزيرة . أما الاخيرون Acherôn فهو احد انهـار هاديس (العالم السفلى) .

(٨٩) Ep. Gr., p. 80, no. 4 = A. P., V. 158.

وربة بافوس Paphiê هى افروديتى . وعند الشاعر اوفيديوس Ovidius ان بافوس كان ابنا للربة من المثال المشهور بيجماليون Pygmalion .

(٩٠) Ep. Gr. , p. 79, no. 1 = A. P., V. 169

وكان ظهور كوكبة الإكليل Stephanos فى السماء امام البحارة بمثابة البشارة بمقدم الربيع المعتدل وانتهاء فصل الشتاء بعواصفه وامطاره التى تهدد الملاحة وتفزع البحارة .

(٩١) Ep. Gr. , p. 89, no. 35 = A. P , V. 189.

كوكبة الثريا Pleias مجموعة من النجوم عددها سبع تتدلى على هيئة الثريا من كوكبة (برج) الثور . وفى الأساطير الاغريقية كانت صيغة الجمع من هذة الكلمة وهى Pleiades تطلق على بنات التيتان أطلس الذى كان مكلفا بحمل السمـاء على يديه وراسـه ؛ ولقـد تحولن فـى الأسـاطير — وعددهـن سـبع — الى مجموعـة من النجوم سميت باسمهن . أما فى العصر السكندرى فكانت هذه التسمية تطلق على اشـهر سبعة فى مجال التراجيديا ، وما زالت هذه التسمية سائدة الى الآن فى فرنسا حيث تطلق هناك على اشهر مفكرى وأدباء فرنسا .

(٩٢) Ep. Gr., p. 81, no 9 = A. A. P., v. 7.

القنديل الذى ذكر أولا والذى اقسمت امامه الحبيبة هو قنديل العاشق، أما القنديل الثانى الذى توسل إليه العاشق ان ينطفىء فهو قنديل الحبيبة . أما تساؤل العاشق عما إذا كان القنديل حقاً من الارباب فسببه ان الحبيبة

قد أقسمت بـــه ثلاثا . ويتردد نفس هـــذا المعنى فى ابجـــرامة اخرى (Ep. Gr., p. 82, no. 10 = A. P. , V. 150) يقول فيها اسكليبياديس :

« لقد أقسمت نيكو ، ذات السمعة ، انها ستأتى ليلا الى منزلى ، وكان قسمها بالربة المهابة واهبة القوانين (= ديميتر) .. ومع ذلك فلم تأت رغم فوات الميعاد . أفهل كانت تريد أن تحنث بقسمها ؟ أيها الغلمان ، اطفئوا القنديل (فلا جدوى من الانتظار) . »

Ep. Gr. , p. 88, no. 34 = A. P., Vii. 217. (٩٣)

ولدينا ابجرامة لافلاطون (Ep. Gr. p. 49, no 9) تكاد تماثل هذه الابجرامة . وقد يدفعنا هـــذا التشابه الى النظر الى الاعتقاد بأنها نسبت خطأ الى افلاطون ، خصوصاً وأنها لم ترد فى الانثولوجية بل نسبها لافلاطون كل من ديوجينس لائيرتيوس (iii, 31) واثينايوس (xiii, 589 C) .

Ep. Gr., p. 80, no . 5 = A. P., V - 210. (٩٤)

Ep. Gr., p. 83, no. 14 = A. P., V. 167. (٩٥)

وهناك ابجرامة أخرى لأسكليبياديس (Ep. Gr., p. 82, no, 13 = A. P. , V. 164) تقدم لنا صورة مشابهة ولكنها اكثر طرافة ، حيث يقول فيها الشـــاعر :

« أيها الليل ، انى أشهدك وحدك دون الآخرين على الاهانة البالغة التى الحقتها بى بيثياس ابنة نيكو ، وهى فتاة مولعة بالخداع . فعندما قصدتها أوصدت فى وجهى الأبواب واقصتنى عنهـــا دون ما ترحيب .. الا ليتك تعيرين بنفس ما أعير به الآن وتقاســـين الأمرين حينمـــا تقفـــين بدورك أمام بابى ! » .

Ep. Gr. , p. 82, no. 11 = A. P. V. 64. (٩٦)

ولدينا ابجرامة مجهـــولة المؤلف ربما كانت من تأليف بوسيديبوس ، او ديوسكوريدس وفقا لرأى شتا تمولر Stadtmuller (A. P., V. 64 =) تعكس لنا أصداء الفكرة ذاتها حيث ارتفعت صورة زيوس رب الأرباب لدى شعراء العصر السكندرى بغزواته الغرامية التى صورتها الأساطير :

« تنزل زيوس على هيئة نسر ليفوز بجانيميديس شبيه الإله ، وعلى صورة

بجعة ليحظى بالشـــقراء والدة هيلينى (= ليدا) . وهكـــذا فان كل من هاتين الحادثتين يستعصى على المقارنة : فكلتاهما تبدو للآخرين أعظم من الاخرى ، اما بالنسبة لى فالامران على قدم المساواة » .

(٩٧) Ep. Gr., p. 83, no . 15 = A. P., xii. no. 46.

(٩٨) Ep. Gr., p. 85, no. 21 = A. P., xii, no. 75.

انظر كذلك الإبجرامات التالية التى يخصصها الشاعر أسكليبيادیس لرسم صور متنوعة للإله اروس :
Ep. Gr., p. 85 , nos. 22, 23, 24 = A.P. , xii, nos 105, 162, 16.

(٩٩) Ep. Gr. ,p. 83, no. 16 = A. P., xii . 50.

قارن ايضاً إبجرامة هيدولوس
(Ep. Gr., p. 110, no. 5 = Athenaeus, xi, 472f)
التى تتشـــابه فى الصورة الشـــعرية مع هـــذه الابجرامة .. وفى الحقيقة فإن الاشـــعار التى تدعو للتمتع بملذات الحياة من خمر ونســـاء وغير ذلك معروفة فى كل العصـــور والآداب تقريباً ، كما أنها تتشـــابه فيما بينها فى المعانى والاخيلة . ويكفى ان نذكر فى أدبنا العربى خمريات أبى نواس وفى الأدب الفارسى اشـــعار عمر الخيام .

(١٠٠) Ep. Gr., p. 80, no. 3 = A.P., V. 153.

(١٠١) Ep. Gr., p. 81, no. 8 = A. P., V. 162.

(١٠٢) Ep. Gr., p. 81, no. 7 = A. P., V. 207.

(١٠٣) Ep. Gr., p. 82, no. 12 = A. P., V. 145.

(١٠٤) Theocritus, Idyllion vii = Thalysia, L. 40.

ومن تلاميـــذ فيليتاس ايضـــاً نجد الشـــاعر هرمسياناكس والناقد زينودوتوس .

(١٠٥) A. Lesky, op. cit., p. 701.

(١٠٦) Propertius , iii. 1 : « Callimachi manes et Coi sacra Philetae .... » ; Ovidius, Tristia, I. vi. 2 : « Nec tantum Clario est Lyde dilicta poetael nec tanum Coo Bittis amata suc est. »

Cf. also Ovidius, Epistulae ex Ponto , III. i. 57; Quintilianus Inst. Orat., x.i. 58.

A. Lesky, Loc. cit., p. 701. (١٠٧)
ibid., p. 602. (١٠٨)

وتوجد ابجرامتان منسوبتان الى فيليتاس فى مجموعة اوكسفورد التى نشرها الأستاذ د.ل. بيج
(Ep. Gr. , p. 75, nos. 1 , 2 = Stobaeus, Florida, iv. 56. 11 & 17. 5)
وتدور الأولى منهما على النحو التالى :

« أنا لا أبكيك ، يا أعز الغرباء ، فلقد عرفت اموراً عديدة خيرة ، غير أن إلها قد قدر عليك من جديد نصيبك من الشرور » .

(١٠٩) فيليب اميل لجران ، شعر الاسكندرية ، ترجمة د . محمد صقر خفاجه ، القاهرة (١٩٥٢) ، ص ٢٣ .

A. Lesky, op. cit., p. 747. (١١٠)

Oxford Classical Dictionary2 (= O. C.D.) , ed. (١١١) by N. G.L. Hammond & H.H. Scullard, Oxford (1970), s.v. Hermesianax , p. 503.

A. Lesky, op. cit., p. 755. (١١٢)

O.C.D., pp. 503 - 504. (١١٣)

A.Lesky, ibid., p. 755; O.C.D., s.v. Phanocles,p.810. (١١٤)

Vergilius, Georgica, iv, ll. 453 ff. (١١٥)

Ep. Gr., P. 77, no. 6 = A.P., vii. 647. (١١٦)

A. Lesky, op. cit., p. 725; O.C.D., s.v. Simmias (١١٧) (2) , p. 991.

A. Lesky, ibid., pp. 550 & 627. (١١٨)

ibid., pp. 767 - 768. (١١٩)

ibid., p. 781. (١٢٠)

ويشبه هـذا العمل الزاخر بالخيـال مؤلفات الروائى الانجليزى

جوناثان سويفت عن رحلات جليفر وانشـــعوب الخرافية التى صادفها .
وكان الإغريق يطلقون على الكتـــاب الذين يؤلفون اعمـــالا تقوم على الخيال
— مثل عمل هيكاتيوس — اسم « كتاب الخوارق » Paradoxographoi .

(١٢١) A. Lesky, op. cit., p. 781.

(١٢٢) رغم ان النظرية اليوهيميرية قد صادفت هوى فى نفوس مفكرى ذلك العصر ، إلا ان هنـــاك عدداً من مشـــاهير الكتاب مثل كاليماخوس وإراتوسثينيس قد نقدوها بشـــدة . أما عند الرومان فكان إنيوس Ennius أول مبشر بها لدى قومه فلقيت من بعده رواجاً وحماساً شديدين بين معظم كتـــاب روما .

(١٢٣) A. Lesky, op. cit., p. 587.

(١٢٤) ibid., p. 770.

(١٢٥) ibid., p. 771.

وتحت نفس العنـــوان Indika ايضاً دون دايماخوس من بلاتيا Daimachos ho Plataieus ، الذى كان مبعوثاً فى سفارة من قبل ملك ســـوريا انطيوخوس الأول سوتير (٢٨١ — ٢٦١ ق.م.) الى بلاد الهند ، كتاباً مماثلا عن جغرافية شبه الجزيرة الهندية وعادات اهلها .

(١٢٦) F. A. Wright, op. cit., p. 61.

(١٢٧) O.C.D., s.v. Euclid, p. 413.

(١٢٨) دون كـــل من بابوس وهيرون Hêrôn — وهما من علمـــاء الرياضيات فى العصر السكندرى — وكذلك بورفيريوس Porphyrios وبروكلوس Proklos ، وهما من علمـــاء الرياضيات فى العصر الرومانى ، تعليقات مسهبة وشروحاً ضافية على اعمال إقليدس . كما اصـــدر العالم ثيون السكندرى Theôn ho Alexandreus طبعـــة منقحة لمؤلفات إقليدس قام فيها بتعديلات وإضافات هامة . اما لدى الرومان فقد اضطلع بوئيتيوس Boëthius بترجمة اعمال اقليدس الى اللغة اللاتينية .

(١٢٩) A. Lesky, op. cit., p. 790; F. A. Wright, op. cit., p. 62.

(١٣٠) Euclid, Stoicheia, Horismoi : 1 - 10.

الفصـــل الثــــانى

فترة الأدب الســـكندرى

العصر الذهبى للأدب الســـكندرى

(٢٨٥ – ٢٢١ ق٠م٠)

العصر الذهبى للأدب السكندرى

(٢٨٥ — ٢٢١ ق٠م٠)

فى عام ٢٨٥ تنازل بطلميوس الأول سوتير عن العرش لابنه بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، رغم تحذير الفاليرى الذى كان يبادل عداء فيلادلفوس بنفور وعدم ارتياح • لذلك ما أن تولى فيلادلفوس مقاليد الحكم حتى أمر بالقبض على الفاليرى وايداعه السجن حيث قضى نحبه فى ظروف غامضة[١] • ورغم اختفاء ديمتريوس الفاليرى عن مسرح الأحداث الا أن خطته ومنهجه ظلا سائدين حتى نهاية حكم بطلميوس الثالث يورجيتيس • اذ ظلت الاسكندرية طوال ستين عاما أو يزيد مركزاً للعلوم والآدب والفنون ، وكان الكتاب فيها على صلة طيبة فيما بينهم — باستثناء بعض الحالات من المنافسة التى تحولت الى عداء — تجمعهم محبة البيت المالك الذى يحيون فى كنفه ، خصوصاً حينما وجدوا الفرصة سانحة عند زواج فيلادلفوس من أخته الشقيقة أرسينوى الثانية Arsinoê B [٢] • فرغم أن هذا الزواج قد أثار سخط الاغريق لأنه يخالف عقيدتهم وما درجوا عليه ، الا أن جمهرة المتملقين من الشعراء قد سارعوا الى مباركته ، ولم يكتفوا بذلك بل شبهوه بالزواج المقدس بين زيوس وهيرا • ولكن فى الوقت الذى كان فيه معظم الشعراء — وعلى رأسهم كاليماخوس شاعر البلاط الرسمى — يخطبون ود البيت المالك عن طريق الملق المفضوح ، كان هناك نفر من الشعراء ذوى النزعة الاستقلالية الذين لم ينزلقوا الى المداهنة لأنهم كانوا يدركون أن الحاكم الطاغية قد ينقلب رضاه الى سخط فى أى وقت • ولقد ظهر صدق هذا القول فى حالة الشاعر سوتاديس من مارونا Sôtadês ho Maronitês ؛ فقد كان الوحيد الذى واتته الجرأة فأقدم علناً على استهجان هذا الزواج الشائن ونعته

بأقذع الصفات ، لكنه دفع حياته ثمنا لجرأته فوضع فى صندوق مغلق وألقى به فى اليم وفقا لرواية أثينايوس [٣] .

فى مثل هـذه البيئة كان الشـعراء يعيشون وهم محاطون بالمكائد والدسائس التى تحفل بها القصـور فى كل عصر ، من دس للسم أو طعن بالخناجر فى الظلام الى سـجن أو نفى . لقد ازدهر الشـعر فى الاسـكندرية بسبب تشجيع الملوك المسـتمر واغداقهم الأموال على الشـعراء ، ولكنه لأسـباب عديدة منها هـذا الجو المشحون بالدسائس فقد أهم ميزاته وهى الصدق فى المشـاعر والاخلاص فى التعبير . ورغم كل شىء سيظل الفضل الأكبر فى ازدهار الشـعر يعزى دوما الى فيلادلفوس ، لأنه كمحب للأدب والفن قد جعل مدينة الاسـكندرية أعظم مدن العـالم القديم ، ولأنه جعل منها كعبة للمشـاهير فى كل فرع من فروع المعرفة مما عجل بازدهار الأدب واكتسابه روحا جديدة .

كان هـذا فى الاسكندرية أهم المراكز الأدبية فى العالم الهيلنستى ومنه نسـتنتج ما كان يوجـد فى الممالك الأخرى مثل مقدونيا وسـوريا وبرجامون : ففى بلاط مقدونيا على سـبيل المثال تجمع رهط من الأدباء والشـعراء فى بلاط الملك انتيجونوس جوناتاس Antigonos Gonatas (٢٨٣ — ٢٣٩ ق.م.) بمدينة بيلا Pella عاصـمة مقدونيا . وكان من بـين هـؤلاء الأدبـاء كاتب الابجـرامة بوسـيديبوس من بيـلا Poseidippos ho Pellaios ، الذى ألف أشـعارا للأبوليين عندما كرموه ثم اتجه الى الفلسـفة قبل أن يتفرغ لكتابة الابجرامة على طريقة أسكليبيادس[٤] . ومنهم أراتوس السولى مؤلف قصيدة الظواهر الفلكية والذى سنتحدث عنه فيما بعـد ، وهيرونيموس من كارديا Hierônymos ho Kardianos المؤرخ الذى قورن فى دقته وبراعته بثوكوديديس والذى رجع كل من بلوتارخوس وديودوروس الصقلى الى كتابه عن تاريخ خلفاء الاسـكندر الأكبر من الفترة التى تلت موت الاسـكندر

حتى نهـاية عهد بيرهوس • ومن بينهم أيضاً تيمون من فليوس الفيلسوف الشكاك تلميـذ بيرهون ، والذى كان قبل التحاقه بمدرسـة الشكاك يهوى الفنون ويحب الشـعر والأدب وفلاحة البسـاتين والذى دون عدة مسرحيات من التراجيديا والكوميديا • ولقد عاش تيمون فى الفترة من ٣٢٠ — ٢٣٠ ق•م• وجمع آراءه الفلسـفية فى كتاب بعنوان بيثون Py.hôn ، كما خصص كتابا عن الأكاديمية بعنوان « وليمة أركسيلاؤس الجنائزية » Ark.silaou Perideipnon • لكنه اشتهر بمقطوعاته الهجائية Si.loi التى أوردنا احداها عند الحديث عن الموسيون ، وكان تيمون سليط اللسـان لاذع النقد وخاصـة للفلاسـفة والباحثين : فقد هجا الفلاسـفة طراً من سـقراط حتى أبيقور ولم يسـلم من لسـانه سوى أسـتاذه بيرهون(٥) • وكان هناك كذلك الفيلسوف بيون البوريسثينى Biôn ho Borysthenites ، وهو عبد معتق اكتسب خبرة فى مدينة أثينا ثم قضى شطراً من الزمن فى بلاط الملك أنتيجونوس جوناتاس وصار صـديقاً شخصياً لذلك العاهل الذى توفى عام ٢٣٩ ق•م• ولدى ظهور بيون لأول مرة فى البلاط الملكى بادره الملك أنتيجونوس — وكان متفقهاً عالمـاً بالتراث — سـائلا باللهجة الهومرية(٦) : « من أنت ؟ من أين قدمت ؟ ما هما والداك ؟ وما هى مدينتك ؟ » ، فأجابه بيون على الفور : « أبى عبد معتق كان يمسح أنفه بكم ازاره ، ولم يكن له وجـه لأن سـيده قد محا معالم وجهه من فرط قسـوته • أما أمى فكانت أنسب امرأة لوالدى حيث أنها قدمت من أحد المواخير » • ولقد ألف بيون مقالات فلسـفية diatribai هجائية الطابع امتدحها هوراتيوس(٧) وهى مقالات تحمل بصحة المدرسـة الكلبية • ومن أقوال بيون الحكيمة : « الشهرة أم الفضيلة والثروة عصب النجاح » ، « ليس البخيل من ملك النقود ، لكنه من ملكته النقود » • وكان بيون يهاجم فى مؤلفاته كثيرا من العواطف الجامحة والأحكام المسبقة التى تجعل المرء يتحيز ويتحامل دون موضوعية(٨) • ولقد أثنى العالم السكندرى اراتوسثينيس على بيون وامتدح مقدرته كثيراً •

كان يجدر بالكتـاب وفقاً للفكرة السـائدة لدى مدرسـة المشائين أن يقتصر على جمع الحقائق وترتيبها دون تنميق ، كذلك استحبت تقاليد العصر أن يكون السرد القصصى مبرراً كى يعرض الكاتب عن طريقه أسـلوبه الذى بالغ فى زخرفته بالمحسـنات والأساليب الريتوريقية ، ونتج عن ذلك أن أصبح الأدب المدون نثراً أدبياً ذا طابع عملى لا يعرف الطريق الى جذب القارىء • كذلك أصبحت كتابة السيرة biographia فى هـذا العصر لوناً محبباً فضله الكتـاب على تدوين التاريخ[9] : فبينما يحتاج التاريخ الى نظرة شـاملة وعقلية فذة بمقدورها عقـد المقارنات وبوسعها التحليل والتفسير ، نجد كتابة السيرة وفقاً للمفهوم السـائد تقتصر على تسـجيل أعمـال رجل شـهير ورصد منجزاته وآثارها ، ولكنها قلما تتضمن تقويماً لشـخصية هـذا الفرد أو تحليلا لتصرفاته فى ضـوء البيئة التى نشـأ فيها أو تفسيراً لدوره التاريخى وللأفكار والمذاهب التى لعبت دوراً فى تكوين شخصيته •

ولدينا فى مجال كتابة السـيرة أسماء عديدة منها أرستوكسينوس الذى دون الى جانب مؤلفاته فى مجال الموسيقى سـيرة حياة الفلاسفة من فيثاغورث حتى أفلاطون وخصص أحـد مؤلفاته لوصف « الحياة على الطريقة الفيثاغورية » bios Pythag rikos ، وخامايليون Chamailcón الذى دون قدراً كبيراً من سـير حياة الشـعراء على اختلاف اتجاهاتهم وعصورهم وكانت مؤلفاته مطعمة بالنوادر والحكايات الأسطورية ، وكذلك هرميبوس الأزميرى Hermippos ho Smyrnaios — تلميذ كاليماخوس — الذى ترك لنا مجموعة من السير لا تختلف عن غيرها فى الطابع ، وهناك أيضا سوتيون السـكندرى Sôtiôn ho Alexandreus الذى ألف عملا بعنوان « الخلافة » Diadochai فى القرن الثانى ق•م• أثناء حكم بطلميوس السادس فيلوميتور[10] •

ورغم كثرة أســماء مؤلفي الســير الا أن نتاجهم كان في صورة تدعو الى الأسف ، وربما التمسنا لهم العذر لفقر مصادرهم وعــدم تنوعها بالقياس الى ما هو ســائد في عصرنا الحديث • وكان ولعهم بالنوادر والغرائب مبعثة اتجاه نما في ذلك العصر نحو الفن الروائي ، ولكنه قد يكون من ناحية أخرى رغبة في تعويض جفاف الموضوعات المعالجة وفقرها[11] • ولقد عثر الأستاذ هنت Hunt عام ١٩١١ على بردية تحتوى على جزء من الكتــاب السادس لمجموعة الســير التي ألفها ساتيروس Satyros (من كاللاتيس على البحر الأسود) ، ويتضمن هــذا الجزء فقرات لا بأس بها من ســيرة يوريبيديس ، وقام الأستاذ هنت بنشر هــذه البردية في المجلد التاسع من مجموعة أوكسيرنخوس تحت رقم ١١٣٥ • وأهم ما يلفت النظر في هــذه البردية — التي يرجع تاريخها الى القرن الثاني ق•م• — أنها تروى قصــة حياة يوريبيديس على هيئــة محاورة يدور الحديث فيها بين عــدد من الشخصيات من بينها شخصية نســائية ، وبذلك يكون ساتيروس أول كاتب للســيرة يبتكر شــكل المحاورة كاطار لسرد قصــة حياة المشــاهير[12] • وهناك في هذه المحاورة شخصية رئيسية يجيب صاحبها على معظم أسئلة المتحاورين ويردهم الى الخط الرئيسي للحوار كلما خرجوا عنه ، ويبدو أن المتحاورين كانوا يتحادثون في صالون أدبي تملكه يوكليا Eukleia احدى مشاهير ســيدات المجتمع • وتتميز المحاورة — بغض النظر عن ما سقناه آنفاً من ضعف مســتوى كتاب الســيرة عموماً — بســهولة لغتها وفصاحتها وبأنها تنم عن ذوق أدبي رفيع ، ولكن نص البردية المليء بالثغرات حرمنا من الاستمتاع بنص ســيرة حياة يوريبيديس كاملا[13] •

ورغم أن التاريخ لم يزدهر في تلك الفترة كما ازدهرت كتابة السيرة الا أنه ظهر ما بين الفينة والأخرى كتــاب نابهون مثل تيمايوس المؤرخ المخضرم الذي سبق الحديث عنه ، ومثل فيلارخوس Phylarchos المولود في ناوكراتيس Naukratis والذي ازدهر في النصف الثاني

من القرن الثالث ق•م•وقد دون فيلارخوس مؤلفه التاريخى Historiai فى ثمانية وعشرين كتاباً بحيث يشـــمل الفترة من بداية حكم بيروس Pyrrhos عام ٢٩٠ ق•م• حتى موت بطلميوس الثالث يورجتيس عام ٢٢١ ق•م•(١٤) • ولقد غدا تاريخ فيلارخوس مصدراً رئيســـياً عن هـــذه الحقبة الزمنية للمؤرخين من العصـــور التالية ، فأفاد منه بلوتارخوس وبوليبيوس وديودوروس الصقلى • ومع ذلك فقد وجـــه اليه المؤرخ النابه بوليبيوس نقـــداً شديداً واتهمه بالتخلى عن أساسيات الكتابة التاريخية : وهى الملاحظة الدقيقة والتزام الحياد والموضوعية فى سرد الوقائع التاريخية لكى تصير صادقة ، وقال انه ضحى بذلك من أجـــل أن يخلق التـــأثير بأى ثمن لأن هدفه كان الادهاش والترويح ekplêxai kai psychagógesai دون ســـواهما ، ولأنه كان يبغى الوصـــول الى اضفاء الحيوية enargeia على موضوعاته • ومثل هذه الطريقة التى اتبعها فيلارخوس فى كتابه التاريخ بحيث يستثير فى نفوس القراء أحاسيس الشـــفقة eleos والتعاطف Sympatheia كانت مرفوضة من قبل بوليبيوس ، على اعتبار أنه لابد من وجود اختلاف بين أهداف التاريخ وأهداف التراجيديا • وفى الحق أن المدرســـة التاريخية التى يمثلها فيلارخوس ومعه دوريس ومن قبلهما كتيسياس Ktêsias (فى القرن الرابع ق•م•) كانت تحاول جاهدة مسرحة الأحداث على طريقة التراجيديا ، وتهدف الى طمس الفروق بين الخيال والتاريخ حتى يمتزجان معاً فى بوتقة واحدة • أما بلوتارخوس فلم يكن أقل من بوليبيوس انتقاداً للطريقة التى اتبعها فيلارخوس فى تســـجيل الأحداث التاريخية(١٥) •

وكان فيلارخوس بالفعل ممتعاً فى وصفه التاريخى لأحداث اسبرطة، ولكن صـــداقته للملك الاســـبرطى كيلومينيس الثالث Kleomenês جعلته منحازاً للاسبرطيين متحاملا على المقدونيين • ومثل كل معاصريه كان فيلارخوس مولعاً بوصف العادات الغربية وغير المـــألوفة ، ويعتبر

وصــفه لأهل سيباريس Sybaris ولأهل بيزنطة Byzantion فائق الأهميــة لأنه يوضح لنا كثيراً من سلوكهم وعاداتهم[١٦] . كذلك كان فيلارخوس مغرماً باســتخدام النوادر anekdota ، وهى أقاصيص قصيرة ذات مغزى تضفى حيوية على السرد التاريخى وان كانت تقطع تسلسل الأحداث وتشتت الانتباه وتمنع التركيز . ونســوق فيما يلى نموذجين طريفين من هــذه النوادر ، يتحدث فى أولها فيلارخوس عن أنثى فيل مدهشــة[١٧] : « كانت هناك أنثى فيل تدعى نيكايا Nikaia عهدت اليها زوجة ملك الهند قبيل موتها برعاية طفلها الرضيع الذى يبلغ من العمر شــهراً واحداً . وبلغت عاطفة أنثى الفيل نحو الرضيع حدا يثير الدهشــة : فلم تكن تطيق أن يبعد الطفــل عن بصرها ، وحينما يحال بينها وبينه كانت تصبح فى حال يرثى لها . لذلك كانت حاضنة الطفل — حينما تناوله اللبن ليشربه — تعمد الى وضع أرجوحته بين قدمى أنثى الفيل والا امتنعت الأخيرة عن تناول طعامها . وحين كان الطفل يستسلم للنوم كانت أنثى الفيل تهش عنه الذباب بحزمة من العشب ، أما حينما كان ينخرط فى البكاء فانها كانت تحرك أرجوحته بخرطومها حتى تهدهده فيكف عن النحيب » .

وفى الثانية يروى فيلارخوس حكاية عن بطلميوس فيلادلفوس غدت منذ أن قصها حكاية دائعة الصيت عبر العصور[١٨] :

« كان بطلميوس ملك مصر أكثر الملوك مثاراً للاعجاب وأكثر الناس علماً وفضلا ، لكنه رغم ذلك يتوهم من فرط تنعمه واستمتاعه بملذات الحيــاة الفاخرة الموسرة أنه سيظل حياً الى أبد الآبدين وكأنه من الآلهة الخالدين . غير أنه ما لبث بعد فترة أن أصيب بمرض النقرس الذى سبب له آلاماً مبرحة لفترة طويلة . ثم بعد أن دبت بوادر التحسن شاهد وهو يطل من شرفة قصره بعض العمال المصريين يرقدون فى استرخاء على الرمال بجوار ماء جار ويلتهمون من الطعام ما تقع عليه أيديهم ، فصاح قائلا : « ما أتعسنى لأنى لست واحداً من هؤلاء ! » » .

وهناك أيضاً المؤرخ المدقق هيرونيموس من كارديا الذى سبقت الاشـــارة اليه ، والذى يحتمل أنه عاش تقريباً فى الفترة التى تمتد ما بين عام ٣٥٠ وعام ٢٦٠ ق٠م٠ ، وعاصر أحداثها الجسام وقام بالتأريخ للفترة التى تبدأ من موت الاســكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق٠م٠ حتى موت الملك بيروس عام ٢٧٢ ق٠م٠ ولقد لعب المؤرخ هيرونيموس دوراً هاماً فى حروب الخلفاء : اذ اشـــترك فى موقعة ابسوس التى دارت رحاها عام ٣٠١ ق٠م٠ ، وكان يقف فى صف الملك يومينيس والعاهل أنتيجونوس جوناتاس وابنه الحاكم ديمتريوس البوليوركيتى ، وظل هيرونيموس صديقاً شخصياً للملك أنتيجونوس جوناتاس حتى رحل الأخير عن الحيـــاة ، ثم تفرغ لكتابة تاريخ هــذه الفترة الحافلة فى الســـنوات الأخيرة من عمره • ولقد أصبح مؤلف هيرونيموس التاريخى ، وعنوانه « تاريخ الخلفـــاء » hai peri Diadochôn Historiai ، مصدراً أساسياً لا خلاف عليه عن الفترة آنفة الذكر لكل المؤرخين اللاحقين وعلى رأسهم ديودوروس الصقلى (الكتب من ١٨ — ٢٠) ، وأريانوس (فى كتابه الذى يحمل عنوان « فترة ما بعد الاسكندر » « ta meta Alexandrou وبلوتارخوس (فى كتابته سير كل من يومينيس وبيروس وديمتريوس)[١٩] •
ولقد تميزت معالجة هيرونيموس للأحداث التاريخية بالدقة وبالموضوعية المؤسسة على معرفته بكثير من بواطن الأمور ومعاينته لمواقع الأحداث واتصاله الشخصى بالساسة صناع القرار من الملوك والحكام والقادة •
ولو قارنا تاريخ هيرونيموس بتاريخ سلفه بطلميوس وتاريخ معاصره دوريس Douris مؤرخ ساموس عن نفس الفترة لوجدنا أن كفـــة الميزان تميل لصالح هيرونيموس الذى لا يقل شأناً عن الأول ويتفوق كثيراً على الثـــانى لأنه امتاز بدقته وموضوعيته فاستحق ثناء مؤرخى العصور التالية عليه[٢٠] •

العلميـــون

منذ أن بدأ العصر الهيلنستى والعلم بمختلف فروعه يلاقى ازدهاراً عظيما ، اذ أن قواعد التفكير العلمى التى أرسى دعائمها أرسطو ومن بعده تلميذه ثيوفراستوس ومدرســة المشائين قد آتت ثمارها تباعاً ، فاهتم العلمــاء بدراسة الظواهر ورصدها ووضعوا التجربة التطبيقية فى المرتبة الأولى بعد أن كانت الصدارة دوماً للفكر النظرى فى العصر الكلاسى • وحينما فتح الاســكندر الأكبر عالمــاً جديداً أمام الكتــاب كان من الطبيعى أن ينشط الباحثون فى كل مجال الى تسجيل كافة ما هو جديد وغريب فى أقطار هــذا العالم الجديد • ولقد أسفر هــذا كله عن نهضة رعاها الملوك باغداقهم الأموال والعطايا على المفكرين والأدباء والمخترعين •

وسنبدأ حديثنا بالباحثين فى مجال الطب الذى خطا خطوات واسعة منــذ عصر هيبوكراتيس وأصبح ميداناً مفضلا لمعظم الدارســين • ومن أشــهر العلمــاء فى مجــال الطب هيروفيلوس من خالقيــدون Hêrophilos ho Chalkêdonios ، عالم التشريح الذى ازدهر فى أوائل القرن الثالث ق•م• وأسس مدرســة فى مدينة الاســكندرية ظلت مزدهرة حتى نهاية القرن الأول ق•م• ولقد أكد هيروفيلوس على أهميــة التجربة أكثر من الدراســة النظرية ، ورغم أنه كان عالمــاً الا أنه لم ينس عمله كطبيب فاعتبر الصحة أساساً لكل لياقة بدنية وســعادة عقلية • وأهم انجاز لهيروفيلوس كان ممارسة التشريح ســواء على جثث الموتى أو على أجسام الأحياء من المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام ، وكان هــذا بمثابة ثورة فى عالم الطب لأن هيروفيلوس لم يكن يستمد معلوماته ودراساته من تشريح الحيوانات كما كان الحال قبله بل خطا خطوة جريئة بتشريحه للبشر أنفسهم[٢١] • كذلك اهتم هيروفيلوس بدراســة المخ enkephalos واعتبره أداة للروح ، وقام كذلك بدارسة

أعضـــاء الجسم الأخرى مثــل الكبد والعين والأعضـــاء التناسلية • أما أشـــهر اكتشافات هيروفيلوس فكانت اهتدائه الى الجهاز العضبى وتيقنه من أن الأوردة تحمل دماً لا هواء كما كان الاعتقاد سائداً قبله ، وكان أول من اعتبر المخ مركزاً للأعصاب neurôn enkephalos archê tôn • [٣٢]

ولقد ألف هيروفيلوس أعمالا كثيرة لم يصلنا منها شيء ، ولكننا نعلم من مؤلفات جالينوس الطبيب وكلســـوس أن من بينها كتـــاباً هاماً عـــن التشريح Anatomika وكتـــاباً بعنـــون « عن النبضـــات » Peri Sphygmôn • ويعتقد قدامى الباحثين أن هيروفيلوس قد توصل فى الكتـــاب الأخير الى احصـــاء نبضات القلب عن طريق ســـاعة مائية خاصـــة ابتكرها لهذا الغرض ، كما توصل الى قانون رياضى يحسب به انقباض Systolê عضلة القلب وانبساطها diastolê [٣٣] • وهناك الكثير مما كتبـــه هيروفيلوس أو ابتكره أو اكتشـــفه ليسدى بذلك أكبر خدمة للانســـانية فى عالم الطب ، حيث فتح أمامها آفاقاً جديدة أحدثت طفرة فى علم التشريح والتشخيص وطرق العلاج •

وهنـــاك أيضاً اراسستراتوس من كيوس Erasistratos الطبيب وعالم الفسيولوجيا الذى ازدهر فى أنتيوخيا (= أنطاكية) فى أوائل القرن الثالث ق•م• ، وكان معاصراً لهيروفيلوس وعاش معه فى الاســـكندرية خلال النصف الأول من القرن الثالث ق•م• وظلت مدرسته موجودة ومزدهرة حتى أيام جالينوس ، أما مؤلفاته فظلت ذات تأثير حتى القرن الرابع الميلادى• [٣٤] • وكان اراسستراتوس مهتماً بعلم التشريح حيث أفاد فى هـــذا المجال من آراء هيروفيلوس وأكملها ، بحيث ميز بين الأعصـــاب الحـــس ta aisthêtika neura وأعصـــاب الحـــركة ta kinêtika neura • ولقد آمن اراسستراتوس بأن الطبيعة لا تفعل شـــيئاً دون أن تكون له جدوى ، وفى مجال الفسيولوجيا درس نمو الجســـم واهتم بعملية الهضم وكون نظـــرية عن تدفق الدم خـــلال

الأوردة ودخول هواء التنفس الى الشرايين ، وفسر كافة الأمراض بأنها ترجع الى سبب واحد هو الامتلاء الدموى Plethora : أى امتلاء الجسم بغذاء غير مهضوم • ومع ذلك فلم يهمل اراسستراتوس اختلافات الأمراض وحالة كل مريض ، غير أنه أعطى أهمية فى العلاج لطريقة التغذية وعارض بشدة طريقة الفصد والتطهير[٣٥] •

وفى مجال علم الفلك astronomia نجد العالم الشهير أرستارخوس سن ساموس Aristarchos الذى ازدهر حوالى ٢٨٠ ق•م• ، وكان تلميذا للفيلسوف المشائى استراتون من لامبساكوس Stratôn • ولقد اشتهر أرستارخوس بأنه صاحب نظرية مركزية الشمس ومؤداها : أن الشمس ومعها النجوم الثوابت لا تتحرك وان الأرض تدور حولها فى مجال على شكل الدائرة ، وربط ذلك بدوران الأرض حول محورها • ولم يبق لنا من أعمال أرستارخوس سوى كتابه الهام « عن أحجام وأبعاد الشمس والقمر Peri Megethôn kai Apostêmatôn Hêlion kai Selênês ، الذى بدأه بستة افتراضات تلاها بثمان عشرة مسألة (أو مبحث) قائمة على الحسابات الهندسية الخاصة بالحجم والمسافة • ولم يستطع أرستارخوس أن يصل الى نتائج صحيحة لوجود بعض الأخطاء فى فرضياته ، ورغم أن الأساس الرياضى فى فرضياته صحيح الا أن اختياره للمنهج كان خاطئاً •

ولقد نسبت المصادر القديمة الى أرستارخوس فضل اختراع المزولة الشمسية نصف المستديرة والمجوفة Skapne ، وقيل انه أضاف مقدار ١/١٠٢٣ من اليوم الى حساب كالليبوس Kallippos الذى قدر فيه السنة الشمسية بواقع ٣٦٥ ١/٤ يوماً • ولقد صحح الفلكى هيبارخوس Hipparchos نظريته فجعل مسار الكواكب حول الشمس بيضاوياً لا دائرياً ، ومع ذلك سيظل لأرستارخوس فضل احراز قصب السبق على كوبرنيكوس فى نظرية دوران الأرض حول الشمس[٣٦] •

أرخميديس (= أرشميديس) : Archimêdês (٢٨٧ — ٢١٢ ق٠م٠) :

وفى مجـال الرياضيات نجد العالم الأشـهر أرخميديس من سيراقوسة Syrakousai بصقلية ، الذى ولد حوالى ٢٨٧ ق٠م٠ ويعد من أعظم علماء عصره وأكثرهم عبقرية وغزارة فى الانتاج ٠ ولقد بلغ شأواً كبيراً فى علم الفلك والرياضيات والطبيعة والميكانيكا (حركة الآلات)، ويبدو أنه درس بمدينة الاسـكندرية ثم استقر به المقام فى سيراقوسة حيث قربه ملكها هيرون الثانى Hierôn وضـمه الى بلاطه ٠ وكان أرخميديس ذا نزعة تطبيقية فى أبحاثه مما أسـفر عن ابتكاره لكثير من المخترعات ، كما ألف قدراً كبيراً من الكتب والمقالات فى شتى فروع العلم نذكر من بينها :

١ — عن قياس الدائرة : Kyklou Metrêsis .

٢ — عن الكرة والاسطوانة : Peri Sphairas kai Kylindrou .

٣ — عن الأجسام شبه المخروطية وشبه الكروية :
Peri Kônoeideôn kai Sphairoeideôn .

٤ — عن الموازين : Peri Zeugôn ê peri Isorropiôn .

٥ — عن الزنبركات : Peri Helikôn .

٦ — عن الأجسام الطافية :
Peri tôn Hydati Ephistamenôn ê peri tôn Ochoumenôn .

٧ — عن نظريات الحركة ضد هجوم اراتوسثينيس :
Peri tôn Mêchanikôn Theôrêmatôn pros Eratosthenên Ephodos .

وبالاضافة الى كتبه العـديدة ومقالاته فقد اخترع أرخميديس الطمبور kochlia الذى استخدمه المصريون منـذ القدم فى رفع المياه من الأماكن المنخفضة ، وابتكر الحاسب الرملى Psammitês من أجـل

حساب الأعداد الكبيرة التى كان من الصعب احصاؤها ، واخترع القبة السماوية Planêtarion التى كانت على شكل مستدير يضاء فتظهر فيه حركة الشمس والقمر والكواكب السيارة ، وصنع البكرات المستخدمة فى الموازين(٣٧) .

ولقد اخترع أرخميديس أيضاً عدداً من الآلات الحربية التى استعان بها مواطنوه أهل سيراقوسة فى درء الغزو الرومانى لمدينتهم ، وأسفر استخدامهم لها عن تأخير احتلال روما للمدينة عدة أشهر • وفى هذا المجال يروى أن أرخميديس قد تفتق ذهنه عن ابتكار آلات تقذف حمم الرصاص المصهور على سفن الأعداء فتدمرها تدميراً ، ورافعات ضخمة تنشب مخالبها فى السفن المعادية وترفعها عالياً ثم تتركها تهوى وتتحطم ، ومرايا عاكسة تقوم بتجميع أشعة الشمس وتركزها على السفن فتشتعل فيها النيران(٢٨) .

أما فى وقت السلم فكان أرخميديس يوجه جهوده لاختراع أشياء باهرة : فحين عجز الجميع عن تحريك سفينة الملك هيرون الى الماء اخترع أرخميديس آلة يمكن لشخص واحد أن يقوم بتحريكها بسهولة وبساطة . وأمكن بواسطة هذه الآلة تحريك السفينة الضخمة . وهنا قال أرخميديس : « أعطنى مكاناً أقف عليه أحرك لك الأرض : «Pâi bôi kai kinô tan gân (٢٩) • وحين كلفه هيرون عاهل سيراقوسة بأن يكشف له عما اذا كان تاجه الملكى مصنوعاً من ذهب خالص أم من ذهب مخلوط ، شغلت هذه الفكرة باله أياماً عديدة ظل فيها يقدح زناد فكره بحثاً عن الطريقة التى يتمكن بها من معرفة حقيقة المعدن دون اللجوء الى صهره • وحين نزل أرخميديس حوض الماء ليستحم دهش حين لاحظ للوهلة الأولى أنه بمجرد نزوله أزاح جسمه مقداراً من الماء مساوياً لحجمه فصاح قائلا : « وجدتها ! وجدتها heurêka , heurêka » ذلك أنه أدرك بذكائه عن طريق هذه الملاحظة العابرة أن كل جسم

وبالتالى كل معدن له كثافة خاصـــة تتم معرفتها عن طريق غمسه فى المـــاء ، لأنه حينذاك سوف يزيح قدراً من المـــاء مساوياً لحجمه ، وهذا ما نعرفه اليوم باسم قانون الكثافة النوعية[٣٠] ٠

ورغم أن اهتمام أرخميديس كان موجهاً لعلوم متعددة الا أن نبوغه كان واضحاً بوجه خاص فى الرياضيات ، فهو يباهى بأن انتصاره الأكبر فيها هو اكتشافه النســـبة التى توجد بين حجمى الأسطوانة والكرة وهى ٣ : ٢ ٠ ولقد روى لنا بلوتارخوس تفاصيل كثيرة وطريفة عن حيـــاة أرخميديس فى معـــرض سرده لســـيرة القائد الرومانى ماركيللوس Marcellus ، كذلك حدثنا شيشرون بأنه شاهد أثناء عمله كوايستوراً quaestor بجزيرة صقلية قبر أرخميديس وفوقه عمود رسمت عليه كرة بداخل أســـطوانة تخليداً لاكتشافه المشـــار اليه ٠ ولقـــد توفى أرخميديس عام ٢١٢ ق٠م٠ حينما احتل الرومان مدينته بعد حصار دام أكثر من عامين بذل فيهما أرخميديس كل ما فى وسعه كى يدرأ خطر الغزو الرومانى بقيادة ماركيللوس ٠ ويروى فى هـــذا الصدد أن أرخميديس كان قبيل موته جالســـاً يخط رســـومه الهندسية على الأرض ، حينما اقترب منه جنـــدى رومانى لم يلمح انهماكه فى عمله فوطىء بقدميه رســـومه ٠ واستشاط أرخميديس غضباً وصاح قائلا : « حذار أن تبعثر دوائرى ! mê mou tous kyklous taratte » ٠ وبسبب خشونة أرخميديس وفظاظته لم يتحمل الجندى الرومانى الاهانة فأهوى بسيفه على العالم الشـــهير وقضى عليه وهو يمارس أبحاثه الرياضية حتى آخر لحظات حياته[٣١] ٠

اراتوسثينيس : Eratosthenês : (٢٧٥ — ١٩٤ ق٠م٠) :

وفى مجـــال علم الجغرافيا اشـــتهر العالم الكبير اراتوسثينيس القـــوريني ho Kyrênaios الذى ولد حوالى عام ٢٧٥ ق٠م٠ وتأثر كثيراً بمنهج أرخميديس الرياضى ، وكان واحداً ممن تولوا رئاســـة مكتبة

الاسكندرية كما سلف القول . ولقد استدعاه بطلميوس الثالث يورجتيس لتولى هـذه المهمة عام ٢٤٦ ق.م. بعد أن ظل وقتاً طويلا قبل ذلك التاريخ يدرس فى مدينة أثينا . ورغم تفوق اراتوسثينيس فى الرياضيات والجغرافيا الا أنه ترك لنا مؤلفات عديدة فى الفلسفة والتاريخ والنقد الأدبى وعلم الفلك وعلوم اللغـة بالاضافة الى كونه شـاعراً ألف عدداً من القصائد الملحمية والاليجية . وهكـذا كان اراتوسثينيس عالمـاً موسـوعى المعرفة ، متعدد المواهب ، جمعت مؤلفاته كل خصائص عصر الاسـكندرية واتجاهاتها . وكان اراتوسثينيس أول من أطلق على نفسـه اسم « الفقيه » philologos ، وهو لقب يدل على موسوعية المعرفة . كذلك عرف بين أقرانه فى الموسـيون بلقب « بيتا » to bêta بمعنى أنه الثانى مباشرة بعد أشـهر المتخصصين فى أى علم أو فرع من فروع المعرفة . وسـواء أكان هـذا اللقب صادراً عن غيرة وحسد من جانب زملائه كما يرى بعض الباحثين[٣٢] ، أو كان معبراً فعلا عن الواقع فقد أصاب من أطلقه عليه وذهبت غيرة الحاسدين من معرفته الواسـعة أدراج الرياح ، وانقلب تهكمهم الى اقرار بالتفوق له . فاراتوسثينيس كان بالفعـل يحتل المرتبة الثانية فى الأدب بعد أستاذه كاليماخوس ، وكان يأتى بعد خريسبوس Chrysippos فى الفلسفة ، وبعد أرستارخوس فى الفلك ، وبعد أرخميديس فى الرياضيات ، وبعد زينودوتوس فى علوم اللغة والتحقيق ، أما فى الجغـرافيا والتأريخ chronographia فكان الأول دون منـازع[٣٣] . كذلك أطلق زملاء اراتوسثينيس عليـه لقباً آخـر هـو « صاحب الفنون الخمسـة » ho pentathlos[٣٤] .

ومن أعمال اراتوسثينيس فى الأدب قصيدة بعنوان « اريجونى êrigonê » منظومة فى البحـر الثنائى الاليجى ، وتتناول قصـة الفلاح الأتيكى أيكاريوس Ikarios الذى أكرم وفادة الالة ديونيسوس فكافأه الأخير بهدية من النبيذ . وما أن شرب جيران هـذا الفلاح من

نبيذ الرب حتى ثملوا وقتلوا التعس ايكاريوس ، وعندما عثرت عليه ابنته اريجونى مقتولا شنقت نفسها حزناً وكمداً ، ولذا أشفقت عليهما الآلهة وحولتهما الى كوكبين فى السماء[35] • كذلك ترك لنا قصيدة فى البحر السداسى بعنوان «هرميس» Hermês يتحدث فيها عن مولد هذا الاله وطفولته وكيف قام بأعمال خارقة وهو لم يزل بعد طفلا ، ثم ينتقل بعد ذلك الى فترة شبابه وصعوده الى السماء وقيامه بتنظيم الأفلاك والكواكب فى مداراتها الكونية[36] • وواضح أن اراتوسثينيس يقتفى فى أعماله الأدبية خطى أستاذه كاليماخوس فيما يتعلق بايراد الأسباب : فبسبب شنق اريجونى نفسها نشأ احتفال الأرجحة الأتيكى المعروف باسم Aiêra ، وبسبب قتل الماعز التى قضمت أوراق العنب نشأت احتفالات نبتت فيها التراجيديا • وهناك أيضاً قصيدة بعنوان « ضد ربة العذاب » Anterinys أو « هسيودوس » ، تدور حول موت هسيودوس وعقاب قاتليه[37] •

وفى مجال علوم اللغة والنقد الأدبى ألف اراتوسثينيس عملا بعنوان « عن الكوميديا القديمة » peri Archaias Kômôidias فى اثنى عشر كتاباً ، ويدور هذا العمل حول أمور تتعلق بالأدب واللغة والتاريخ والآثار ومشكلات تأليف المسرحيات الكوميدية وعرضها • وهناك عمل آخر بعنوان Katasterismoi يعالج الأساطير التى تدور حول نشأة النجوم والأبراج السماوية وتحول البشر على يد الآلهة الى صورة نجوم سماوية ، ولقد أثبت بعض الباحثين أن هناك علاقة بين الأساطير التى وردت عند اراتوسثينيس وبين المذهب الأفلاطونى الذى كان يعتنقه عن نشأة الروح من الكواكب النجمية[38] • أما فى مجال التأريخ فنجد مؤلفه الشهير عن التقويم Chronographiai الذى دون فى تسع كتب حيث يبدأ بعام ١١٨٤ ق•م• ، وهو التاريخ الذى حدده اراتوسثينيس لسقوط طروادة ، وينتهى بعام ٣٢٣ ق•م• وهو تاريخ موت الاسكندر الأكبر • ويعتبر اراتوسثينيس أن الحقبة

التاريخية التى يعول فيها على دقة الأحداث وانضباط تأريخها ، تبدأ فقط منذ عام ٧٧٦ ق٠م٠ وهو العام الذى بدأت فيه أولى الدورات الأوليمبية فى بلاد اليونان • ويرى أن الأحداث الواقعة قبل ذلك التاريخ تنتمى لعالم الأساطير أكثر من انتمائها للواقع • ولقد اعتمد اراتوسثينيس فى تأريخه للأحداث التى تقع قبل الدورات الأوليمبية على قوائم ملوك اسبرطة وسـجلات ملوك مصر ، أما بالنسبة للأحداث الواقعة بعد هذه الدورات فقد اتبع المنهج الذى سبقه اليه المؤرخ المخضرم تيمايوس ، ألا وهو التأريخ بالفترات الأوليمبية olympiades • ومن الشذرات القليلة التى بقيت من هـذا العمل يمكننا أن نقف على دقـة منهج اراتوسثينيس فى التاريخ . فهو يرجح أن هوميروس قد عاش فى عصر سـابق على عصر هوميروس لاعتبارات جغـرافية استقاها من أعمالهما • وحيث أن هوميروس لم يكن يعرف شيئاً عن الأعياد البانيونية ta Paniônia ، فهو بذلك يكون سـابقاً على الهجرات الايونية • ويعتبر هذا العمل أول محاولة علمية قام بها باحث من أجل تحديد تواريخ مضبوطة لكل من التاريخ السياسى والأدبى[٣٩] •

وأهم أعمال اراتوسثينيس العلمية على الاطلاق هما كتاباه فى الجغرافيا : وأولهما بعنوان « عن قياس الأرض » peri tês Anametrêseôs tês Gês — الذى يرى بعض الباحثين أنه ربما كان جزءاً من مؤلفه المشهور « الجغرافيات » — ولقد توصل فيه اراتوسثينيس الى انجاز أعظم اكتشافات العالم القديم ، وهو قياس محيط الكرة الأرضية بدقة تدعو الى الدهشـة[٤٠] • فقد لاحظ اراتوسثينيس أن الشمس فى فصل الصيف تكون عمودية تماماً فى أسـوان ، فقام بقياس زاوية ميل الشمس فى نفس الوقت من السنة بمدينة الاسـكندرية عن طريق gnômôn ، فوجد أنها تساوى ١/٥٠ من قطـر الدائرة التى تتكون منها المزولة[٤١] • وحيث أن المسـافة من الاسكندرية حتى أسوان كانت تقـدر بخمسة آلاف (٥٠٠٠) ستاديون stadion[٤٢] ، فقد اهتدى اراتوسثينيس الى أن محيط الكرة الأرضية هو حاصل ضرب

٥٠ × ٥٠٠٠ = ٢٥٠٫٠٠٠ ستاديون ، أى ما يساوى تقريباً ٢٤٫٦٦٢ ميلا بفارق مائتى ميل فقط عن محيطها الصحيح المعروف الآن . أما المؤلف الثانى فعنوانه « الجغرافيات » Geôgraphika ، وهو مكون من ثلاثة كتب يبين المؤلف فى الأول منها خطأ مناهج من سبقوه فى الكتابة فى هذا المجال وكيف ترددوا فى مفارقات مضحكة نتيجـة جهلهم بالجغرافيا . ويخص اراتوسثينيس بنقده قدامى الشـعراء الذين كانوا يهدفون فى نظره الى الترويح psychagôgia والامتاع لا التعليم didaskalia فهو يقـول عن هوميروس : « قد يجد المرء الطـريق الذى هام فيه أوديسيوس على وجهه ، لو أنه عثر على الاسكافى الذى حاك (لأيولوس) حقيبة الرياح » . وفى الكتاب الثانى يشرح اراتوسثينيس نظرياته عن حجم الأرض وشكلها الدائرى وعن المحيطات وامتدادها ، أما الكتاب الأخير ففيه وصف جغرافى للأرض مزود بخريطة للعالم المأهول بالسكان والمعروف على أيامه ، مقسماً هـذه الخريطة بخط يفصلها الى شـمال وجنوب بحيث يمتد من جنوب أسبانيا حتى وسط آسيا(٤٣) .

ان عظمة اراتوسثينيس كعالم فوق كل مناقشة ، ولكن قدرته على التعبير الأدبى كانت عموماً دون المستوى ، وربما كان هـذا سبباً فى عزوف الكتاب المتأخرين عن ايراد أو اقتباس مقتطفات من أعماله بكثرة . ولدينا شذرة حفظها يوتوكيوس Eutokios ، عالم الرياضيات البيزنطى الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى ، وهى شذرة على شكل خطاب موجه الى الملك بطلميوس يورجتيس يصف فيها العالم اراتوسثينيس آله للقياس تسمى mesolabê (٤٤) :

« من اراتوسثينيس الى الملك بطلميوس ، تحية وسلاماً : يخبروننا أن أحـد كتاب التراجيديا القدامى قدم على المسرح مينوس وهو يعد قبراً لفلذة كبده جلاوكوس ، وحينما علم (مينوس) أن طول كل ضلع من أضلاع القبر مائة قال (المهندس) : « ضئيل ما قدرت لبنـاء قبر ملكى ، ضاعف حجمه ولا تنس فى عجلتك أن تجعل كل ضلع من أضلاع هـذا القبر المجيد ضعف ما هى عليه الآن ... » » .

الترجمـة السـبعينية للتـوراة

سبقت الاشـارة الى أن العهـد القـديم Palaia Diathêkê (= التوراة) قد تمت ترجمته من اللغة العبرية الى الاغريقية على يد عـدد من علماء اليهود فى مدينة الاسـكندرية ، وأن هـذه الترجمة كانت محفوظة فى مكتبة الاسـكندرية • وسبق القول كذلك بأن معلوماتنا فى هذا الصدد مستقاة من خطاب تبين فيما بعد أنه منحول ؛ وأن اغريقيا يدعى أرستياس Aristeas — كان يعمل فى خـدمة الملك بطلميوس السادس فيلوميتور (١٨٠ — ١٤٥ ق•م•) — قد أرسله الى أخيـه فيلوكراتيس Philokratês [٤٥] • وتبعاً لهذا الخطاب فان بطلميوس الثانى فيلادلفوس حينما رغب فى توثيق الروابط بين الاغريق واليهود بنـاء على اقتراح ديمتريوس الفاليرى ، أرسل الى اليعازر كبير كهنة أورشليم طالباً منه ارسال عـدد من الأحبار البارزين لترجمة العهـد القديم (باللاتينية Vetus Testamentum) الى الاغريقية كى ينتفع به يهود الاسكندرية • واختار اليعازر ٧٢ حبراً من الاثنتى عشرة قبيلة التى انحدر منها الجنس اليهودى ، بواقع ستة أحبار من كل قبيلة ، ثم خصص لهم فيلادلفوس مكاناً منعزلا بجزيرة فاروس Pharos حيث أتمـوا الترجمة فى ٧٢ يوما[٤٦] •

ومما لا شك فيه أن اليهـود كجالية أجنبيـة فى مصر قد تمتعوا بامتيازات خاصـة منذ عصر الاسـكندر الأكبر ، ثم أقر الملوك البطالمة براعتهم فى الاشتغال بأمور المـال ونالوا تبعاً لذلك الحظوة الملكية • غير أن ثبوت زيف خطاب أرستياس جعل الباحثين يرجحون أن يكون العهد القديم قد ترجم على يد أحبار اليهود المقيمين بالاسـكندرية فى فترات متعاقبة من القرون الثلاثة السـابقة على الميلاد ؛ وأن ناموس موسى Môüsês وأسفاره الخمسة Pentateuchos قد ترجمت الى الاغريقية فى النصف الأول من القرن الثالث ق•م• والأسـفار الخمسة هى :

سفر التكوين Genesis ، سفر الخروج Exodos ، سفر اللاويين Leutikon (نسبة الى قبيلة ليوى أو ليفى) ، سفر الأعداد Arithmoi ، وسفر التثنية Deuteronomion • ويبدأ سفر التكوين بالفقرة التالية[٤٧] :

« فى البدء خلق الله السماوات والأرض • وكانت الأرض قفراً لا معالم لها والظلام مخيماً فوق وجه الفراغ اللامتناهى • وكان روح من الله يسرى فوق سطح الماء ، فقال الله للضوء كن فكان • ثم رأى الله أن الضوء جميل ففصل الله الضوء عن الظلام • ثم سمى الله الضوء نهاراً على حين سمى الظلام ليلا ••• » • ومن رأى هؤلاء الباحثين أيضاً أن بقية أسفار العهد القديم قد ترجمت على مدى القرنين الثانى والأول ق•م• ويبدو أن الترجمة السبعينية التى تمت على فترات متعاقبة من العصر الهيلنستى قد بدأت على الأرجح فى عهد البطالمة الأوائل ، حيث شهدت الاسكندرية أزهى فترات ازدهارها وحيث شهد اليهود أكثر امتيازاتهم • اذ ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن اليهود كانوا دائماً وفى كل فترات تاريخهم فى الاستيطان الخارجى يسعون الى حيث يوجد الازدهار الاقتصادى والرواج التجارى ، وأن يهود الشتات Diaspora كانوا يستقرون حيث وفرة المال واستتباب الرخاء خاصة حينما يكون موطن استقرارهم مكاناً جديداً فى نشأته وتطوره ونظام حكمه ، وموطنا تتجمع فيه أجناس متعددة ذات حضارات مختلفة •

ورغم أن السبعينية ترجمة اغريقية للنص العبرى القديم (أو ربما الآرامى) الا أنها تضمنت عدة كتب دونت أصلا بالاغريقية وكتباً أخرى لم يعثر لها على أصل عبرانى Hebraios ، وهذه الكتب تسمى اصطلاحاً بالأسفار المنحولة ta Apokrypha [٤٨] • ويحمل أحد هذه الأسفار عنوان « حكمة سليمان » ويتضمن تحذيراً ليهود العصر الهيلنستى من الخطر المحدق بهم ، حيث أنهم محاطون بعبدة

الأوثان من كل جانب ، ولقد دون هـذا الكتاب بأسلوب يمثل بكل وضوح تأثير المحسنات الريتوريقية • وهناك أيضا سـفر « المكابيين » Makkabaioi فى أربعة كتب : الثانى منها سقيم فى أسـلوبه ، والثالث زاخر بالمحسنات الريتوريقية ، أما الرابع فهو أحسـنها على الاطلاق ويعد قطعة رائعة من الكتابة الوصفية[٤٩] ـ وربما ينتمى كذلك الى النصوص المنحولة ـ مع بعض التحفظ ـ « أنشودة الأطفال الثلاثة » التى تعد اضافة لسـفر النبى دانيال Daniêl ، وهى تبدأ بدعوة الى عناصر الطبيعة فى أسـلوب رائع جذاب[٥٠] :

« أيتها الرياح ، أيها الندى ، أيتها العواصف الثلجية . أيتها البحار ويا أيتها الأنهار ، أيتها الحيتان التى تجوس فى أعماق البحار ، أيها البشر ذوى القلب الطيب الطـاهر البسيط : باركوا الرب ، امدحوه ومجدوه فى كل مظهر الى أبد الآبدين » •

* * *

ليـــكوفرون :

بعد أن قضى ديمتريوس الفاليرى نحبه وصل الى الاســكندرية غريمه ليكوفرون الخالكيدى Lykophrôn ho Chalkideus الذى ولد فى خالكيس Chalkis عاصمة جزيرة يوبويا Euboia حوالى عــام ٣٢٠ ق٠م٠ ، وكان تلميذاً للفيلســوف المعمر ميندموس Menedêmos (من ارتريا بجزيرة يوبويا)[٥١] • وكان ليكوفرون قبل وصــوله الى الاســكندرية مقيماً فى بلاط الملك المقــدونى أنتيجونوس جوناتاس ، وفور وصــوله الى الاســكندرية حوالى عام ٢٨٣ ق٠م٠ عهد اليــه الملك فيلادلفوس بتصنيف وتبويب وتحقيق diorthôsis نصــوص مؤلفى الكوميديا فى مكتبة الاسكندرية • وبعد أن أتم ليكوفرون مهمته قام فيما يبــدو بتأليف دراســة عن الكوميــديا peri Kômôidias فى تسعة كتب على الأقل ، لم تبق منها سوى شذرات قليلة • ثم ألحق ليكوفرون بهذه الدراسة تفسيراً للمفردات الصعبة والنادرة أســماه Glôssai ويبدو أن اراتوسثينيس قد أكمل هــذه الدراسة وحققها وصوبها فى عمله المشار اليه أعلاه عن الكوميديا القديمة ثم اهداه الى ليكوفرون Pros Lykophrona [٥٣] •

ووفقاً لمعجم سويداس والمصادر القديمة فقد ألف ليكوفرون أعمالا عديدة تتضمن حوالى ٢٠ تراجيدية تحمل العناوين التالية : أيولوس — أندروميــدا — الجوال Alêtês — أبنــاء أيولوس — اليفينور — هيراكليس — المتضــارعات Hiketides — هيبوليتوس — لايوس — أبطال ماراثون Marathônioi — ناوبليوس — أويديبوس (ا • ب) — اليــتيم Orphanos — بنثيوس — آل بيلوبس Pelopidai — الحلفــاء Symmachoi — تيلجونوس — خريسيبوس ، وأخيراً مسرحية تاريخية عنوانها أهل كاساندريا Kassandreis تدور حــول

أحداث معاصرة ، حيث أن تأسيس كاساندريا قد تم عام ٣١٦ ق٠م٠ ولا نملك من كل هـــذه المسرحيات سوى شذرة واحـــدة من تراجيدية آل بيليبس تتكون من أربعة أبيات ٠ ولقد ألف ليكوفرون كذلك مسرحية ساتيرية عن أســـتاذه عنوانها « مينديموس » ، لا ريب أنه يصور فيها فكر أســـتاذه العظيم وحياته المتواضعة[٥٣] ٠

ولكن العمل الذى نال من أجله شـــهرة ذائعة فى العالم القديم هو قصيدته الغريبة والفريدة ألكساندرا Alexandra ، التى أودعهـــا ليكوفرون كل جهـــده وخبرته وتفقهه ٠ وتتكون هـــذه القصيدة من ١٤٧٤ بيتـــاً فى البحـــر الايامبـــى الثلاثى iambikos trimetros نظمها شاعرنا فى صورة درامية كما لو كانت تراجيدية ، رغم أنه لا شىء هنـــاك يدل على أنها ألفت لتمثل على المسرح ٠ فهى عبارة عن مونولوج بالغ الطول ساقه ليكوفرون على لسان أحد عبيد الملك الطروادى برياموس Priamos ، وكان هـــذا العبد مكلفاً بحراسة كاســـندرا (وهو اسم آخر لابنة الملك برياموس أليكساندرا) ، ويحكى العبد فى هذا المونولوج كافة النبوءات التى فاهت بها العرافة كاسندرا قاصدة عن طريقها تحذير والدها الملك مما سيحل بمملكته فى مستقبل الأيام ٠ وتتكون القصيدة التى اعتبرها عدد من قدامى النقاد تراجيديا من مقدمة (أبيات ١ — ٣٠) وخاتمتين (أبيات ١٤٥١ — ١٤٧٤) ، وتنقسم من حيث المضمون الى ثلاثة أقسام الأول منها (أبيات ٣١ — ٣٦٤) يدور حول دمار طروادة وجريمة أياس ، ويتحدث الشاعر فى القسم الثانى عن عودة الاغريق الى وطنهم بعد انتهاء هذه الحرب الطاحنة (أبيات ٣٦٥ — ١٢٨٢) ، أما القسم الثالث والأخير فيتناول قصة الصراع بين أوروبا وآسيا[٥٤] (أبيات ١٢٨٣ — ١٤٥٠) ٠

ويمس الشـــاعر فى هـــذه القصيدة ما بين الفينة والأخـــرى الموضوعات التى تشكل جوهر شـــعر الملاحم وخاصـــة ما ورد منها عند

شـــعراء الدائرة الملحمية ، غير أن الفـــكرة المحورية التى تلف حولها القصيدة هى المعاناة التى كابدها الاغريق والكوارث التى حاقت بهم جزاء ما صـــنعوه بطروادة ، وهى فـــكرة وردت قبلا فى مسرحيـــة « الطرواديات » ليوريبيديس • ولقد اعتمد ليكوفرون فى الجزء الواقع من البيت ٣٦٥ الى البيت ١٢٨٣ على المؤرخ تيمايوس فيما يتعلق بالأحداث التاريخية التى دارت فى غرب بلاد اليونان ، وهناك اشارة فى القصيدة (أبيات ١٤٤٦ ـــ ١٤٥٠) احتدم حولها الجدل بين الباحثين ، حيث أنهـــا تتحدث فى غموض عن منتقم ينحدر من نســـل كاساندرا سيقدر له أن يحارب ذئب جادارا (مقدونيا ؟) ثم يتصالح معه ويتقاسمان الأسلاب • ولقد فسر البعض هـــذا المنتقم بأنه بيروس ، ورأى البعض الآخر أنه قوة روما التى بدت واضحة فى العصر الهيلنستى[٥٥] •

ان الأسلوب الذى دون به هـــذا العمل صعب وملغز ، ملىء بالتفقه والحذلقة ومكدس بالمعلومات النادرة والاشارات الأسطورية ، والحق أنه لا توجد فى الأدب اليونانى كله قصيدة تضارع قصيدة الكساندرا غموضاً ســـواء فى أسلوبها أو مفرداتها أو مغازيها : فمن بين حوالى ٣٠٠٠ كلمة مستخدمة فى القصيدة نجد ٥١٨ كلمـــة لم ترد فى أى عمل آخـــر ، ١١٧ كلمة ترد للمرة الأولى ، أما الباقى فعبارة عن شروح وتعليقات مستقاة من شـــعر الملاحم وتراجيديات أيسخيلوس ، كما أن هنـــاك ألفاظاً مصكوكة وجديدة وعامية عسيرة الفهم واستخداماً للمحسنات الريتوريقية يتسم بالشطط والاسراف • ولا يذكر ليكوفرون أســـماء البشر والآلهة التى نعرفها من الأساطير والتراث الالماً ، ويضع بدلا منها كنيات وصفات غير مألوفة : فزيوس عنده هو أجاممنون والعكس صحيح ، والآلهة عادة تسمى بأسماء بعض عباداتها الغامضة والأبطال بأسماء حيوانات أو بعبارات يحتاج فهمها الى اطلاع غير عادى على ما هو نادر من الروايات الأسطورية ، أما البلاد فيسميها باسم أحـــد أنهارها أو جبالها أو مدينة لا تكاد تعرف من مدنها[٥٦] • ولكى نعطى

مثالا على ذلك نورد هنا فقرة مختصرة من بداية القصيدة لنبين أنه دون الشروح والتعليقات لا يتمكن المرء من فهم المغـزى والألفاظ بحال من الأحـوال[٥٧] :

« واحسرتاه ! أى حاضنتى التعسة ، يامن أضرمت فيك النيران بأشـجار الصنوبر المقاتلة على يد أسد الليـالى الثلاث ، الذى التهمه كلب تريتون ذو الأنياب الحادة بفكيه • لكن ممزق أكباد (الضوارى) ظل حياً يغلى فى بخار غلاية وضعت على موقد بلا لهب ، وجعل شـعر رأس (خصمه) يسقط على الأرض • انه قاتل أطفـاله ومدمر وطنى وأرض آبائى ومن أصاب أمه الثانية فى صدرها الذى لا يجرح بسـهم وبيل • انه أيضاً من حمل بذراعيه فى وسط الحلبة جسم أبيه الذى كان ينازله بالقرب من جرف كرونوس شديد الانحدار ، حيث قبر أيسخينيس ابن ربة الأرض الذى يصيب الخيول بالفزع • وانه أيضا الذى صرع أنثى الكلب الضارية التى كانت تحرس مضايق البحر الأوسونى الداخلية ، والتى كانت تمارس الصيد من كهفها • تلك اللبؤة التى كانت تصرع الثيران والتى ردها والدها للحيـاة من جديد بأن أحرق جسـدها بالمشـاعل ، وهى التى لم تخش ليبتينيس ربة العالم السفلى • ولكن حانت السـاعة التى قضى عليه فيها جثمان ميت عن طريق خدعة لا بنصل السيف ، قضى على ذلك الذى قهر فيما مضى هاديس ذاته »[٥٨] •

ويبدو أن هـذه القصيدة قد ألفت بعـد عام ٢٧٣ ق•م• حينما أرسلت روما بعد انتصارها على بيروس سـفارة الى الاسكندرية لتقابل العاهل البطلمى فيلادلفوس • ومن محتـوياتها يمكن الاستنتاج بأن ليكوفرون يقارن الموقف المعادى الذى تتخذه روما من الممالك الهيلنستية بموقف طروادة أزاء الاغريق قبيل الحرب الطروادية وبموقف الفرس من بلاد اليونان قبل نشوب الحروب الفارسية ، بمعنى أنه موقف مضاد لحـركة التاريخ وسينتهى حتما بدمار روما • فاذا كانت هـذه نبؤة

ليكوفرون فهى نبؤة أثبتت الحقائق التاريخية فشلها ، لأن روما استطاعت أن تلتهم الممالك الهيلنستية واحدة اثر الأخرى • وأيا كانت الآراء التى حكمت على ليكوفرون وقومت انتاجه فلا بد أنه كان يحظى قديماً بالتقدير والاعجاب ، يدل على ذلك اختيار معاصريه له ليكون عضواً فى كوكبة شـــعراء التراجيديا المعروفة باسم الثريا Pleiades (٥٩) •

ليونيـــداس :

ازدهر ليونيـــداس من تارنتوم Leônidas ho Tarantinos حوالى عام ٢٧٤ ق•م• فى جنوب ايطاليـــا ، وعاصر فى طفولته الخطر الذى كان يتهدد الدويلات الاغريقية فى جنوب ايطاليـــا بسبب تعاظم قوة روما ورغبتها فى بسط نفوذها على ايطاليـــا بأسرها • وازاء هـــذا لجأمعظم هذه الدويلات الى ملوك ابيروس êpeiros ، التى كانت تقع فى مواجهة ايطاليـــا على الســـاحل الغربى لبلاد اليونان ، بقصد حمايتها من بطش روما • وعندما صار ليونيداس شاباً ألف ابجرامة يطلب فيها من الملك نيوبتوليموس Neoptolemos أن يمد يد العون لبلده تارنتم ، لكن القـــدر لم يمهل ذلك الملك فقد أقدم ابن عمه بيروس Pyrro; على اغتياله ، ومنذ ذلك الوقت أخذ بيروس على عاتقه بعد أن تولى الملك أن يصبح حامى حمى الاغريق ضد القوى الأجنبية • أما ليونيداس فبلغ حماســـه للقضية الوطنية ذروته وكرس أشـــعاره لبث العزم فى نفوس بنى وطنه ، كما تزعم عام ٢٨١ ق•م• الحـــركة الوطنية التى ارتأت دعوة الملك بيروس لخوض عمار الحرب مع اغريق جنوب ايطاليا • ولكن لا شجاعة بيروس ، دون كيخوته الاغريق ، ولا بيان ليونيداس وفصاحته التى جعلت منه ديموسثينيس تارنتم ، قد أفلحا فى وقف زحف روما • وعنـــدما تقهقر بيروس عائداً الى بلاد الاغريق صحبه ليونيداس ليمدح فيما بعد انتصـــاره الهزيل على أنتيجونوس ملك مقدونيا عام ٢٧٤ ق•م• وبعد أن وافت المنية بيروس واحتلت روما

تارنتوم أصبح ليونيداس دون راع ودون وطن ، فطفق يتجول من بلد لآخر وصار فى تجواله أشبه ما يكون بالشـاعر القديم هوميروس • وظل ليونيداس يعيش حياة الفقر والبؤس ويخالط الكادحين والفقراء والبسطاء ويعتبر نفسـه واحداً منهم ، الى أن مكث بعض الوقت فى جزيرة كريت ثم طاب له المقام آخر الأمر فىجزيرة قوص عام ٢٨٠ق•م• حيث مات على الأرجح عام ٢٦٠ ق•م•[٦٠] •

ولقد برع ليونيداس فى تصوير الحيـاة البسيطة ومال الى نقل الواقع دون زخرفة ، وأحب الريف لبساطته ، وكان متقشفاً يعزف عن التنعم والترف والانغماس فى الملـذات لأنه كان من أتباع الفلسـفة الكلبية • وكان ليونيداس يجد متعة فى وصف الحيـاة البسيطة لاسيما حياة الصيادين[٦١] الفقراء ، ولم يكن يجد غضاضة فى أن يصف فقره المدقع أو حياته البائسـة التى كانت تخلو من الاسـتقرار • ولقد اختط ليونيداس لنفسه منهجاً خاصـاً فى كتابة الابجرامة يمكن أن نلحظه بوضوح فى ابجراماته التى تزيد على المـائة : فهو يجب أن يصـور الصيادين والفقراء وهم يهدون للأرباب أدواتهم التى يعتزون بها والتى هى مصدر رزقهم • ورغم جو البؤس والواقعية العارية الذى يميز تقريباً كل ابجرامات ليونيداس ، الا أن لغته بالغة التنميق والمتميزة بالزخرفة كانت تقف على طرفى نقيض من موضوعاته • غير أن ليونيداس كان قادراً على أن يعبر عن نفسـه فى أحيان كثيرة ببساطة مدهشة ، كما كان يهاجم خصومه بقوة دون أن تأخذه بهم رأفة ومع ذلك فلا نملك سوى التعاطف مع قضيته[٦٢] •

وفى بعض ابجراماته كان ليونيداس يقـدم لنا صورة مستمدة من الطبيعة ولكنه يلمح خلف كل مظهر مألوف من مناظر الطبيعة حكمة جديرة بالتسجيل كما فى الابجرامة التالية[٦٣] : « ذات مرة أقدم التيس الوثاب ، زوج العنزة ذو اللحية الكثة ، على قضم كافة أغصان الكروم

الرقيقة فى كرمة من العنب • ومن أرض الكرمة تلقى فحسب هـذه الكلمات : « يا أشـد المخلوقات شراً ، اقضم بفكيك أغصانى المثقلة بالثمار فان جذورى راسخة ولسوف تنبت من جـديد النكتار الحلو (= النبيذ) ، الذى سيراق كسكيبة ، أيها التيس ، عند نحرك كأضحية » •

ولقد برع ليونيداس فى نظم قصائد الاهداء حيث العادة المتبعة أن يهدى الأشـخاص للأرباب ما يعتزون به من أدوات كانت تخص مهنتهم ، تعبيراً عن اعترافهم بجميل الأرباب : فنجده مرة يحدثنا عن عازفات الناى اللائى يهبن بعدما تقدمت بهن السن مزماراً ونايا الى الموسيات ، ومرة أخرى عن فتاة أهدت للاله اروس صورتها المطعمة بالفضة ومرآتها البرونزية ورباط شـعرها الوردى ، ومرة ثالثة عن صبى بعد أن شب عن الطوق يهدى للاله هرميس لعبه عندما كان طفلا[٦٤] • ونسوق كمثال على ابجرامات الاهداء هاتين القصيدتين المعبرتين عن حياة الصائدين ، ذلك أن مهنتهم الشاقة وقناعتهم بالقليل وحياتهم البسيطة قد مست شغاف قلب شاعرنا الرحيم • أما الابجرامة الأولى فتدور حول صائد ممن يدعى سوسيبوس Sôsippos : [٦٥] •

« للاله هرميس وهب سوسيبوس فخاً صلداً يطبق على القـدم وشراكاً للصيد وشباكاً ، وهـذه المصيدة المستديرة التى توقع بالأرانب البرية ، وهـذه الجعبة المجوفة للسهام التى تخترق طيور السمان ، وشبكة مجدولة باحكام لا تفلت منها الأسماك الطافية • ذلك أنه قد سبح (بتوفيق من الاله) بحذاء الشـاطىء بعنفوان يفوق ما للشـباب ، بعد أن طرح الكسل عن شيخوخته » • على حين تتحدث الثانية عن ديوفانتيس[٦٦] :

« وفقاً للعادة المرعية وهب صائد الأسـماك ديوفانتوس الى مولاه الذى يرعى مهنته هـذه الأدوات التى تبقت من حرفته القديمة : شصه المعقوف جيداً وقصبة صنارته الطويلة مع عيطها المتين ، وسـلاله التى كان يضع فيها الأسماك ، وهـذا الشرك المجدول كى يحتجز الأسماك

الطافية ، وهو ابتكار من صنع الصائدين الجوالين ، وكذا حربته الصلدة ذات الشعاب الثلاث ، سلاح بوسيدون ، ومجدافين من قاربه » .

أما مراثى القبور epitaphoi فقد طوعها الشاعر بحيث تخدم اتجاهاته وتتناسب مع طريقته ومنهجه الذى اختطه لنفسه ، فأحيانا تكون موجزة للغاية ولكنها كافية لحمل فكرته أو فلسفته (٦٧) :

« أيها المارة ، فلنشرب نخب يوبولوس نقى السريرة ، اذ أن هاديس الرحيب سكون مرفأ الجميع . »

وأحيانا يرسم عن طريقها ليونيداس صورة كوميدية طريفة من الصعب نسيانها ، حيث تنم عن قدرة الشاعر على خلق البسمة من قلب المأساة وعلى أنه رجل عرك الحياة وتمرس بأحداثها أكثر من سواه(٦٨):

« ها هنا ترقد مارونيس المولعة بشرب النبيذ ، تلك السكيرة العجوز التى تماثل أنثى القرد ، وفوق قبرها تنتصب الكأس الأتيكية معروفة للجميع . انها تئن وترسل من تحت الثرى زفرات حارة لا من أجل زوجها ولا من أجل بنيها الذين تركتهم يعانون الفاقة فى حياتهم ، بل من أجل أمر واحد يعدل عندها كل شىء وهو أن كأسها فارغة » .

وكان ليونيداس شأنه شأن معاصريه يبحث جاهدا عن الشكل المبتكر والاطار غير المسبوق ، ذلك أن ولع شعراء عصره بالابتكار والتجديد أمر ليس بحاجة الى التوضيح . وربما كان شاعرنا أسبق شعراء عصره فى ابتكار صورة السؤال والجواب كى يصوغ بها مراثى القبور ، هرباً من الشكل التقليدى الذى استنفذ (٦٩) :

« — من تكونى ، أيتها المرأة ، يا من ترقدين تحت ذلك العمود المنحوت من رخام باروس ؟

ـــ أنا بريسكو ، ابنة كالليتيليوس Kalliteleus .

ـــ وما هو موطنك ؟ ـــ جزيزة ساموس .

ـــ ومن قام بدفنك ؟ ـــ انه ثيوكريتوس الذى زوجنى اياه والدى .

ـــ وممَ قضيت نحبك ؟ ـــ مت وأنا ألد عندما جاءنى المخاض .

ـــ وكم عمرك ؟ ـــ اثنا وعشرون عاما .

ـــ ألم تنجبى أطفالا ؟

ـــ بلى . لقد تركت طفلا يدعى كالليتيليس عمره ثلاث سنوات .

ـــ اننى أدعو (الأرباب) أن يعيش وليدك هــذا حتى يصل الى ذروة الشيخوخة .

ـــ وأنا بدورى ، أيها المار ، أتمنى أن يهبك الحظ كل ما هـــو طيب » .

وهناك ابجرامة أخرى أكثر ايجازا نلمح فيها نفس الرغبـــة فى التخلص من الشكل التقليدى دون تكلف أو حـــذلقة [٧٠] : « ألا ليت الحياة العاصفة تكون عنك بمبعدة (أيها المار) ، فأنا أتمنى أن تسبح الى بر الأمان مثلما فعلت أنا ، فايدون بن كريتيس ، فى رحلتى الى هاديس . » .

وأحيانا أخرى ينتهز ليونيداس الفرصة ليثنى على النزعة الواقعية فى الفن التشكيلى من خلال ابجراماته ، وتلك كانت سمة لعـــدد من شعراء العصر الذين اتسعت اهتماماتهم لتشمل حضارة عصرهم [٧١] .

« لا لم ينحتنى ميرون ! كذب من قال هذا . انه فقط ربطنى هكذا فى قاعدة من الحجر عندما ساقنى بعيداً عن القطيع . » وواضح أن شاعرنا كان يعجب بالفن الذى يكاد يماثل الطبيعة حيث يعجز المرء عن التفرقة بين العمـــل الفنى وبين الأصل المحاكى ، وهـــو رأى معـــاصره هيروندواس أيضا كما سنرى فيما بعد . ولقد امتاز ليونيداس أيضا بمقدرته على الوصف سواء وصف الطبيعة أو وصف الحياة الكادحـــة البسيطة ، ولا أحد من الشعراء يمكنه أن يجارى ليونيداس فى بساطة الأسلوب أو فى الايجاز الرائع أو فى التأمل الواعى لحياة البشر أو فى الصدق والتلقائية المحببة بلا تعالم .

وهـــذه ابجرامة يدعو فيها الشاعر الانسان الى التمتع بجمـــال الطبيعة وألا يضيع عمره فى جمع المال (٧٢) .

« ما أجمل الرحلة الآن فى عرض البحر ! فطائر السنونو المغرد قد لاح فى الأفق ، وكذا بدأت رياح الغرب الهـــادئة تهب ، وازدانت المروج بالأزهـــار ، وسكن البحر الذى كان يفور بالأمـــواج ويجيش بالنسمات العنيفة . أيها الملاح ، ربما تكون قد آليت بمرساتك وشنفت أذنيك ببلوغ البر . لكنى أنا بريابوس ، رب الموانى ، أطلب منك أن تفرد جميع أشرعتك وبهذا آمرك . أيها الانسان ، واهاً لك ! أو تبحر دوما من أجل التجارة ؟ » .

وفى ابجرامة أخرى يصف لنا ليونيداس حياة كهل فقير لا يملك الكثير من حطام الدنيا ، وما لديه من سنوات العمر يفوق ما يقتنيه من ممتلكات (٧٣) : « هذا هو كل ما يملكه كليتون من متاع الدنيا : قطعة صغيرة من الأرض القابلة للزراعة ، وكرمة عنب تقرب من حد البساطة، وهذه الأجمة التى لا تنتج سوى أخشاب قليلة . وفوق ذلك يحمـــل كليتون (على كتفيه) ثمانين عاماً من العمر . »

ولقد تحدث ليونيداس فى ابجراماته كثيرا عن نفسه وعن حياته الفقيرة وعن تجواله بعيداً عن وطنه ، وفى هذا ألم لنفسه لا يحتمل وعذاب ليس بعده عذاب • ولأن شاعرنا محب للانسانية فهو لا يتمنى أن يعانى غيره ما قاساه هو من الاغتراب ، ويعتبر أن شظف العيش فى الوطن نعمة من نعم الحياة ، لأنها خير من حياة التجوال (٧٤) : « أيها الانسان لا تدمر نفسك وتعيش حياة كلها تجوال شاداً عصا الترحال من بلد الى آخر • لا تلقى بنفسك الى التهلكة : فمجرد كوخ خشبى خاو قد يمنحك المأوى المنشود ، ومهما كانت النار التى تضرمها ضئيلة فستدفئك • وقد تكفيك فطيرة من الشعير بسيطة غير فاخرة لو أنك مت بعجنها بيديك ، وقد تقنع بنبات نعنع الماء أو الزعتر أو حتى الشراب المخلوط مع مرارته ، لو كان سميك القوام ليؤكل مع الخبز كادام • »

ولا يأنف ليونيداس قط من فقره ولا يجد غضاضة فى الحديث عنه ووصفه، حتى أننا قد نعتقد أحيانا أنه يجد سعادة فى كونه فقيرا • غير أنه لا يستسلم لفقره ولا يتقاعس ويتمنى أن تجود عليـــه الآلهة فتجعل حياته أيسر (٧٥) :

« (أى مولاتى) ألا فلتقبلى دون علانية هذا الفضل من ليونيداس ذلك الجوال الفقير الذى لا يملك (من حطام الدنيا) شيئا : اليك هذه الحبوب القليلة مع عدد من فطائر الشعير الدسمة وقليـــل من الزيت الثمين ، وهذه التينة الخضراء المقطوفة من شجرتها • خذى كذلك هذا العنقود من العنب الممتلىء بالنبيذ الحلو ، وهذا الغصن الذى يحمل من التوت خمس ثمرات ، واليك أيضاً ، يا مولاتى ، هذه السكيبة فى كأسها الصغير • ولكن ياربتى ، ان أنقذتنى من فقرى المدقع وأقلت نفسى من عثرتها فاقبلى منى أن أضحى لك بعنز » •

وفى ابجرامة أخرى يخاطب ليونيداس الفئران التى تسللت الى كوخه ويحذرها من خيبة الأمل ، اذ أنها لن تجد فى داره ما يسد رمقها

من الطعام • ويلتمس منها أن تبحث لنفسها عن زاد فى بيوت الآخرين الذين لديهم طعام وفير [٧٦] :

« أيتها الفئران الداكنة ، لوذى بالفرار من كوخى اذ ليس هناك من الحنطة شىء يمكن لفأرمسكين أن يتغذى عليه فى بيت ليونيداس • فبعد أن بلغ من الكبر عتياً لايملك سوى ما يكفيه من ذرات الملح وحبات الشعير الجاف ، وانى لقانع بهذه الحياة التى آلت الى من آبائى • فعلام تبحث اذن فى هذا الركن القصى ، يا من تنشد أطايب الطعام ولذائذه؟ واحسرتاه ! فلن تتلمظ شفتاك بعشاء حتى من النفايات • هيا ، أيتها الفئران ، حثى خطاك الى منازل قوم آخرين فان منزلى فقير ، ولسوف تغنمين من هذه المنازل طعاماً أوفر • »

ولم يكف ليونيداس فى ابجراماته عن مهاجمة الشراهة والشرهين لأنهم يفسدون الحياة بجشعهم وطمعهم ، على حين يصف لنا فى ابجرامة مؤثرة محتويات خزانة بائس ليس بها سوى حقيبة وجلد عنز وقنينة زيت قذرة وحافظة خالية من النقود وقلنسوة من الصوف وعصا [٧٧]• ولكن ليونيداس يبدو كأروع ما يكون فى شعر الحكم والتأمل الفلسفى ولا يضارعه شاعر آخر فى هذا المضمار • وهذه ابجرامة تعد من أمتع ما كتب الشاعر حيث أنه يبلور فيها فلسفته ونظرته الى حياة الانسان، ويحذر البشر من الغرور والتطاول [٧٨] :

« أيها الانسان ، ان دهراً لا نهاية له قد مر قبـــل أن ترى نور الحياة ، كما أن دهراً آخر يماثله ينتظرك فى هاديس • فأى حيز يتبقى لحياتك ؟ لحظة أو ما هو أقل من اللحظة ؟ ان حياتك المحدودة سريعة الزوال وخالية من البهجة ، انها أبغض من الموت الكريه • فالبشر الذين صوروا فى أحسن صورة وأنشئوا من عظام متجاورة متناسقة، يطاولون الأثير والسحاب • أنظر ، أيها الرجل ، كم هو عبث لا طائل من ورائه ،

فالدودة قابعة عند نهاية الخيط ، والثوب لم يتم بعـد نسجه • (ان الحيـاة) مثل جلد ثعبان ينتزع وهى أكثر مدعاة للبغض من نسـيج العنكبوت • والآن ، أيها الرجل ، عندما تلاحظ قوتك (وهى تضمحل) من صباح الى صباح فليكن هذا أدعى لجعل حياتك بسيطة • تذكر هذا وضعه فى اعتبارك حتى نهاية عمرك بين الأحياء : أنه من مثل هـذه القشة الواهية صيغت حياتك • »

ولم ينس ليونيداس فى غمرة حماسه وشغفه بتأمل حياة الآخرين ووصف ما بها من معاناة وقسوة ، لم ينس أن يكتب مرثيته بنفسـه لتوضع على قبره وتحكى للأجيال القادمة قصة حرمانه من ترابوطنه•

ووسط المرارة والألم يحتفظ شاعرنا بالأمل ويجد العزاء فى الخلود وينشد السلوى فى رفقة ربات الفنون (الموسيات) ، فعندهن الراحة من الألم وبيدهن منح الخلود الشاعر بين الأمم (٧٩) :

« ها أنذا أرقد (رقدتى الأبدية) بعيدا عن تراب ايطاليا ، بعيدا عن ثرى وطنى ومسقط رأسى تارنتوم • ان هذا الأمر أشد مرارة على نفسى من الموت ذاته : فحياة جوال هائم على وجهه ليست بحياة • لكن الموسيات وهبتنى حبهن ، لذلك فبدلا من المرارة والألم أجنى الحـلاوة والنعم • ولن يذهب اسم ليونيداس هباء وسدى ، فان ما وهبته الى الموسيات من عطايا قد منحنى الشهرة تحت كل شمس • »

أراتوس :

ولد أراتوس السولى Aratos ho Soleus عام ٣١٥ ق•م• فى بلدة سولوى باقليم كيليكيا فى آسيا الصغرى ، ثم درس بعض الوقت فى مدينة افسوس Ephesos على يد الفيلسوف مينيكراتيس Menekratês ، توجه بعدها الى مدينة أثينا حيث أكمل دراسته على يد الفيلسوف الرواقى المشهور زينون الذه قام بتقديمه الى العاهل

المقدونى أنتيجونوس جـوناتاس • وفى عام ٢٧٧ ق٠م٠ استدعاه أنتيجونوس الى بلاطه فى مدينه بيلا حيث ألف شاعرنا قصيدة بعنوان نشيد الى الاله بان يمجد فيها انتصار الملك المقدونى على الكلتيين ، ويصور الاله بان Pan وقـد قذف الرعب فى قلوب الكلتين ومهـد لأنتيجونوس كى ينتصر عليهم • وفى نفس العام احتفل أنتيجونوس بزواجه من فيلا Phila ، أخت ملك سوريا سليوكوس الاول نيكاتور ، فانتهز أراتوس هذه المناسبة وألف قصيدة يهنىء فيها العاهل الكبير بعروسه • وبعد سنوات توجه أراتوس الى سوريا على أثر تصـدع دائرة مقدونيا الأدبية بسبب غزو بيروس ، وهناك فى بلاط سليوكوس أكمل تحقيق نص الأوديسية ، لكنه ما لبث أن عاد ادراجه مرة أخرى الى بيلا وظل فيها الى أن قضى نحبه مابين عامى ٢٤٠ — ٢٣٩ ق٠م٠ قبيل وفاة راعيه الملك أنتيجونوس [٨٠] • وطوال فترة وجوده بمقدونيا كان أراتوس أعظم الشعراء منزلة وأرفعهم مكانة ، وكرم فى حياته كما لم يكـرم شاعر آخر ونال بعـد موته شهرة تـكاد تدانى شـهرة كاليماخوس •

ولقـد ترك أراتوس عـدة مؤلفات لم تصل الينا ، منها الأشعار الجنائزية Epikêdeia ، وعدد من الابجرامات ، وقصائد اليجية وأناشيد ، وقصائد عابثة Paignia ومجموعة من القصائد القصيرة بعنوان القصائد المصغرة (؟) ta kata lepton ، وأعمال أخرى فى مجال علمى الفلك والطب كما نتبين من عناوينها • ولكن عمله الذى منحه شهرة ذائعة فى العالم القديم هو القصيدة التى ألفها بتكليف من العاهـل أنتيجـونوس ، والتـى تحمـل اسـم الظواهر الفلكيـــة ta Phainomena وهى قصيدة بقيت لنا كاملة لحسن الحظ •

وتتكون قصيدة الظواهر من ١١٥٤ بيتا فى البحر السداسى وبلهجة تحاكى اللهجة الهرموية ، ويدور موضوعها حول علم الفلك كما وضعه

سلفه يودوكسوس من كنيدوس Eudoxos ho Knidios (حوالى ٣٩٠ — ٣٣٧ ق٠م ٠) فى عدة مقالات نثرية ٠ وتنقسم القصــيدة من حيث محتوياتها الى عدة أقسام : الأول (أبيات ١ — ١٨) عبارة عن مقدمة تحمل تحية وتمجيدا للاله زيوس ، والثانى (أبيات١٩ — ٤٥٣) مخصص لوصف مختصر للقطبين وللنجــــوم الشمالية والجنوبيــــة الثابتــة asteres aplaneis (أى التى ليس لها مدار) ٠ أما مدارات الأجرام السماوية وأفلاكها فيخصص لها القسم الثالث (أبيات ٤٥٤ — ٥٥٨) ، على حين يصف ظهور المذنبات واختفائها فى القسم الرابع (أبيــات ٥٥٩ — ٧٣٢) ٠

ويحمل الجزء الباقى من القصيدة (أبيات ٧٣٣ — ١١٥٤) عنوانا منفصلا هو التنبؤات عن طريق العلامات Prognôseis dia Sêmeiôn (وأحيانا يسمى علامات الجو Diosêmiai أو عن علامات الجــــو peri Sêmeiôn) ، ويتحــــدث أراتوس فى هــــذا الجـــزء عن الطقس وأحواله والتنبؤات المحتملة والتغيرات المتوقعة التى يمكن أن تحدث فيه ، ويرى النقاد أن هــذا الجزء قائم بذاته ومســتقل عن القصيدة ٠ وفى كثير من المواضع ينقلنا الشاعر عند حديثه عن النجوم والكواكب الى عالم الأساطير ويكثر من اشاراته الأسطورية من أجــل تفسير التسميات وأصولها [٨١] ٠

ورغم أن الظواهر لم تمتدح كثيراً سواء كشعر أو كمعلومات فلكية الا أنها نالت شهرة كبيرة فى العالم القديم ، على اعتبار أنها كتــاب يدوى يسهل على من يريد معلومات فى علم الفلك بوجه عام الرجوع اليه : فلقد وجد فيها البحارة المعــلومات التى تنفعهم عن الابحــار ومواعيده ومعرفة السبل والاتجاهات عن طريق النجوم ، ووجد فيها الزراع الارشادات التى تفيدهم عن مواقيت الفصول والزراعة والأمطار ودرجات الحرارة المناسبة للحصاد ٠ وكان هذا الطابع العملى لقصيدة

الظواهر سببا فى اعجاب الرومان بها حيث كانت تلائم طبيعة تفكيرهم المحب للمنفعة ، فقام شيشرون بترجمتها الى اللغة اللاتينية وكذلك فعل فارو على حين ترجم كل من جرمانيكوس وأفينيوس الجزء الأخير منها • أما لوكريتيوس Lucretius فقد تأثر عند كتابته لقصيدته الهامةعنطبيعةالموجودات De Rerum Natura بأسلوبالترجمةاللاتينية التى قام بها شيشرون ، على حين تبع فرجيليوس نص أراتوس حرفياً فى مواضع متعددة من زراعياته (٨٢) •

وليس بوسعنا أن نعتبر الظواهر قصيدة ممتازة نظرا لجفافهـا وصعوبتها ، فلم يوفق مؤلفها فى اختيار الشعر كوعاء يناسب موضوعا علميا مثل الفلك يتضمن الكثير مما هو غامض أو معقد : فالنتيجة الفعلية لذلك هى أن يفرض جفاف الموضوع نفسه على الشعر مهما كان الشاعر قديرا فى نظمه • ومن ناحية أخرى فقد وجهت كثير من الانتقـادات لقصيدة الظواهر بسبب الأخطاء الفلكية والعلميـة التى تردى فيهـا أراتوس ، وكان أبرز المنتقدين العالم السكندرى هيبارخوس (حوالى ١٩٠ — ١٢٥ ق٠م٠) والخطيب الرومانى شيشرون • ولكن الى جانب هذه العيوب نجد الحسنات التى لايمكن تجاهلها : فالظواهر تكاد تخلو من التحذلق والتفه ، وهذه ميزة قل أن توجد فى مؤلفات العصـر السكندرى التى تزخر بالغموض والحذلقة العلمية التى تعلن عننفسها دون مواربة ، وعلاوة على ذلك فقد شحن أراتوس قصـيدته بأفكار رواقية سامية أكسبتها وقارا وجلالا • من أجل ذلك امتدحها الشاعر ليونيداس فى احدى ابجراماته بقوله(٨٣) : « هذا كتاب أراتوس الخبير الذى تحدث فيه بعناية فائقة عن النجوم المعمرة ، وعن كل من الأجرام الثابتة والكواكب السيارة التى منحتها السماء اللامعة الدوارة مساراتها وأفلاكها • فليحظ هذا العمل الذى نال الجهد الوفير بثناء عظيم ، والمجد من بعده لزيوس الذى جعل النجوم أكثر بريقا » • أما كاليماخوس فقد أعجبه الصقل والاتقان الذى نالته القصيدة على يد أراتوس ،

وان كان لا يخفى أن تأثير هسيودوس واضح عليها ، لذلك فهو يخصص لمدحها البجرامة رقم (٢٧) فى ديوانه [٨٤] : « ان الانشاد والطريقة لهسيودوس ، ولكن الشاعر هنا ليس هو المنشد المذكور • وان كنت فى الحق لست أبغى القول بأن الشاعر السولى (= أراتوس) قد أخذ قصيدته أو نقلها عن أكثر الأشعار عذوبة وطلاوة • مرحبا أيتها الكلمات المنظومة بعناية ، يا من تشهدين على سهر أراتوس لليالى • » وفيما يلى مطلع قصيدة الظواهر الذى يعد فى نظرى أمتع مقطوعة فيها حيث أنه خال من الغموض وزاخر فى الوقت نفسه بالمشاعر الدينية [٨٥] :

« فلنبدأ بزيوس الذى لم نتركه نحن البشر أبدا دون أن نسميه: فكل طرقات البشر وكل أسواقهم تزخر بروح زيتوس ، وكذا البحــر والموانى• ونحن جميعا بحاجة اليه على الدوام : فنحن ذريته [٨٦] وهو الشفوق الذى منح البشر علامات مباركة وحثهم على العمل ، مذكرا اياهم بوسائل الحياة • انه يعلمنا متى تكون التربة أكثر صلاحيةللحرث بالفأس وبالثيران ، ومتى تكون المواقيت مناسبة لغرس الأشجار أو بذر كافة الحبوت • وهو الذى وضع بيده المباركةعلامات الأفلاك فى السماء وحدد الأبراج ، وقدر على مدار العام النجوم لتى تضح للبشر علامات أكيدة للفصول حتى تنمو المحاصيل كلها ولا تخيب • لذا فهو جدير بأن يعبد دوما لأنه البداية والنهاية • سلاما ، أيها الأب ، أيها المعجــزة الكبرى ، يا أكبر عون ونصير للبشر ، ســلاما لك وللذرية الأولى • وتحية لكن ، أيتها الموسيات ، يا من تتصفن كلكن بالرشاقة والبهاء • فكل ما تتق اليه نفسى هو أن تباركن برعايتكن نشـــيدى كله ، حتى يصبح من حقى أن أخاطب النجوم فى أفلاكها • » •

كاليماخوس :

ولد كاليماخوس Kallimachos — أشهر شعراء عصره بغض النظر عن كونه أفضلهم — فى قورينة Kyrênê حوالى عام ٣٠٥

ق٠م٠ ولو صح وكان والده باتوس Battos من سلالة ملوك برقة ، لكان شاعرنا منحدرا من أسرة نبيلة ثرية • وهناك احتمال أن يكون والد كاليماخوس قد نفى من برقة على أثر نزاع سياسى ترتب عليه فقده لثروته ومعاناة أفراد أسرته ، أما الاحتمال الآخر فهو أن يكون اسم باقوس لا صلة له فى الحقيقة بسلالة ملوك برقة وبالتالى تكون أسرة كاليماخوس من الأسر العادية • ولقد درس شاعرنا فى صباه على يد الفيلسوف براكسيفانيس ثم هاجر للاسكندرية حيث عمل فترة بالتدريس فى ضاحية اليوسيس Eleusis (الحضرة) بالاسكندرية حوالى عـام ٢٧٨ ق٠م٠ ثم أفلح كاليماخـوس فى أن يجتذب نظـر الملك فيلادلفوس الذى ضمه الى بلاطه حوالى ٢٧٦ ق٠م٠ حيث تربع بعدها على امارة الشعر وظل يحتل المكانة الأولى بين شعراء عصره حتى قضى نحبـه عام ٢٤٠ ق٠م٠ تقريبـا ابان حـكم الملك بطلميوس الثالث يورجيتيس • لقد كافح كاليماخوس طويلا ولقى من المتاعب والعقبات الكثير حتى حظى بمكانته الرفيعة وشهرته الواسعة ، لذا نلمح دوما فى أشعاره الاحساس بالترفع والكبرياء والميل الى النقد والشعور بالمرارة مما يدل على أنه لم ينس العقبات التى اعترضت طريقه وهو لم يزل بعد مغمورا (٨٧) •

ولقد ألف كاليماخوس أعمالا بالغة الكثرة ، فمعجـم سويداس ينسب اليه أكثر من ٨٠٠ عمل ، ولكننا هنا سنذكر أهم أعماله وأكثرها شهرة وتأثيرا على عصره وعلى العصور التالية • وأطول هذه الأعمال وأكثرها شهرة هى قصيدته التى تحمل عنوان الأسباب أو الأصـول Aitia : وهى عبارة عن قصيدة روائية مطولة تقع فى حوالى ٧٠٠٠ بيت منظومة فى البحر الاليجى الثنائى ومقسمة الى أربعة كتب • ويسرد فيها الشاعر سلسلة مسهبة من الأساطير التى تفسر أو توضح سبب تسمية أمور عديدة فى التراث الاغريقى ، مثل العادات والطقـوس والأماكن وغيرها • ويتخيل كاليماخوس نفسه فى هذه القصيدة كما

لو كان فى حلم ينقله من مسقط رأسه ليبيا حتى جبل هيلكون موطن ربات الفن (الموسيات) ، اللائى قمن بتثقيفه وتعليمه شتى الأساطير. ولم تصلنا من هذه القصيدة سوى شذرات نستدل منها على أن الشاعر خصص الكتابين الأول والثانى لمحاورة بينه وبين الموسيات ، على حين يروى فى الثالث والرابع قصصا متنوعة لكنها لا ترتبط فيما بينها برباط من الوحدة العضوية . وأطول الشذرات الباقية لدينا تحكى قصة حب بين الشاب أكونتيوس Akontios وفتاة تدعى كيديبى Kydippê ولقد نجح كاليماخوس فى تحويلها من حكاية محلية بسيطة الى قصيدة شيقة رائعة [٨٨] . وألف كاليماخوس أيضا مليحمة بعنـوان هيكالى Hekalê نظمها فى البحر السداسى ، ويحكى فيها قصـة البطل الاغريقى المشهور ثيسيوس Thêseus بعد قضائه على ثور ماراثون ويركز الشاعر على حكاية شعبية استطرادية عن استضافة سيدة عجوز تدعى هيكالى للبطل فى منزلها . ولقد نظم كاليماخوس هذه المليحمة فى ما يقرب من ألف بيت للرد على منافسيه الذين ادعوا أنه غير قادر على نظم الملاحم ، وليثبت بها مهارته كقصاص بارع .

ومن أهم أعمال كاليماخوس أناشيده hymnoi الستة التى نظم أربعة منها فى البحر السداسى هى : نشيد الى زيوس eis Dia الى أبوللون eis Apollôna ، الى أرتميس eis Artmin ، الى ديلوس eis Dêlon . ونظم نشيدا واحدا باللهجة الدورية وفى البحر السداسى أيضا هو نشيد الى ديميتر eis Dêmêtra ، أما النشـيد الأخير فقد نظمه الشاعر فى البحر الاليجى المثنوى وهـو بعنوان حمام الربة اثينا eis Loutra tês Pallados . ومن مؤلفـات كاليماخوس أيضا قصيدة بعنوان رد على الحدادين Telchines ويعنى بهذه اللفظة خصومه الذين اختلفوا معه فى الرأى حول نظم الملحمة الطويلة . ويرى البعض أن هذه القصيدة جزء من عمله الضخم الأسباب ، وأن هذا العمل يتضمن أيضا قصيدة أخرى بعنوان خصـلة

شعر برنيقى Berenikês Plokamos وهى التى ترجمها الشاعر الرومانى كاتوللوس بنفس العنوان Coma Berenices • وهناك كذلك القصائد الايامبية Iamboi التى يبلغ عددها ١٣ فى نحـــو من ألف بيت منظومة فى البحر الأعرج Skazôn وفى البحر الايامبى الثلاثى، ويتقمص الشاعر فى هذه القصائد شخصية هيبوناكس شـــاعر الهجاء القديم ويثبت أنه أروع مقلديه • وتزخر هـــذه القصائد بموضوعات طريفة : فمن انتقاد للأخلاق السائدة والعادات الأدبية (قصائد ١ — ٣ ورقم ٥) ، الى هجوم على نقاد الأدب (قصائد ٤ ، ١٣) ، الى وصف لتمثال زيوس الذى صنعه فيدياس فى أوليمبيا (قصيدة ٦) ، الى قصائد عن أصول بعض التسميات على غرار قصيدة الأسباب (قصائد ٧ ، ١١) ، الى وصف ميلاد ابنة صديق له يدعى ليون (قصيدة ١٢) • هذا الى جانب قصيدة بعنوان « طائر أبو منجل » Ibis خصصها لنقد معارضيه وحواها هجوما مقزعا •

ومن أعمال كاليماخوس أيضا ابجراماته المتنوعة epigrammata التى بلغ عددها ٦٤ ابجرامة والتى بلغ فى نظمها درجة عالية من الاتقان والتفوق •

أما أعمـــاله النثرية فنذكر من بينها أهمها وهى قوائم مكتبـــة الاسكندرية التى فهرس فيها محتويات المكتبة الشهيرة فى نحو من ١٢٠ كتابا ، وكان عنوانها الكامل كما يلى :

«Pinakes tôn en pasêi paideiâi dialampsantôn kai hôn synegrapsan»
أى قوائم بمؤلفات الكتاب اللامعين فى كل فرع من فروع المعرفة •

وهناك أعمال أخرى نثرية عن الفيلسوف ديموقريطوس وعن كتاب الدراما الأثينيين ، وعدد من المعاجم عن الحوريات والطيور والمسابقات والرياح والأنهار •• الخ [(٨٩)] •

ولو ألقينا نظرة فاحصة على أناشيد كاليماخوس لوجدنا أنه يغلب على معظمها الجفاف والتفقه المجوج وأنها تحتوى على كثير من الملق الواضح ، ولم ينجح من السقوط فى هذه المثالب سوى نشيد ديميتر المتدفق حيوية وسوى نشيد حمام الربة أثينا الزاخر بالتعبيرات الرائعة وعدة أجزاء من الأناشيد الباقية • وفيما يلى جزء من النشيد الأخير يصور فيه الشاعر كيف أصيب العراف تيريسياس Teirisias بالعمى حينما أبصر رغما عنـه الربة أثينا وهى تسـتحم [٩٠] : « كان سكون الظهيرة يكتنف الجبل ، وكانت الربة (مع رفيقتها) تستحم فى ساعة القيلولة ، على حين كان الهدوء الغامر يلف ذلك الجبل • وفى تلك الأثناء كان تيريسياس وحيدا الا من كلاب الصيد يجوب المكان المقدس ، ولم تكن لحيته قد نبتت بعد • وعندما شعر بظمأ يجل عن الوصف اتجه صوب ينبوع جار ، وهناك رأى التعس رغما عنه ما هو محرم عليه أن يراه » •

وفى النشيد الثانى المهدى للاله أبوللون نجد التفقـه ممزوجا بالشاعرية ونجد الرغبة فى الابهار جنبا الى جنب مع المشاعر الصادقة الفياضة ، فرغم العيوب التى كانت سمة للعصر نجد نفحات تدل على أن شاعرنا لا تنقصه الموهبة ولا الدراية بأصول فنه • ولقد اخترنا الفقرة التالية من هذا النشيد لأنها تتميز عن سواها وتتفوق لبساطتها ولأنها تنبض بالحياة والحرارة [٩١] :

« انظر كيف ترتجف شجرة الغار (المقدسة) لدى أبوللون وكيف يهتز معبده بأسره ! فليمض بعيدا عن هنا كل خاطىء مذنب ، فالاله فويبوس يدق الآن دون شك الباب بقدمه البديعة • ألا ترى ذلك ؟ ان نخلة ديلوس أحنت هامتها فجأة بطريقة خلابة وشدت البجعة بأغنية عذبة فى الفضاء • أى مزاليج البوابات تراجعى من تلقاء نفســك ، ويا أقفال انفتحى طواعية واختيارا فالاله قد صار على مقربة • أما أنتم

أيها الشباب فخذوا أهبتكم للغناء والرقص • ان أبوللون لا يتبدى بهيئته لكل انسان بل للأخيار فقط •

عظيم شأن ذلك الذى يرى الاله وهان أمر من لايبصره • ولسوف ننصرك أيهـا الاله يا من ترمى بقذائفك من بعيـد ولن نكـون أبدا من الوضعاء — لا تدعوا الشبان يسلمون قيثارتهم للصمت أو أقـدامهم للراحة ولا تدعوهم يكفون عن الرقص الصاخب أثناء زيارة الاله أبوللون لنا • ليفعلوا ذلك لو كانوا يرغبون فى اتمام زواجهم وفى الحياة حتى يقصوا شعرهم الأشهب وحتى يرسوا الجدار فوق الأساس العتيق — اننى أغبط الشباب لأن القيثارة قد دب فيها النشاط • صمتا يا من تصغون الى أنشودة أبوللون ! فالبحر ذاته قـد صمت ليصغى الى العازفين وهم يمجدونه سواء على أوتار القيثارة أو على أوتار القوس، سلاح فويبوس الليكورى • ولم تعد ثيتس تولول باكية على ابنهـا اخيليوس وهى تسمع هتاف الاله المقـدس : « أيهـا الشافى ! أيهـا الشافى ! » • ونسيت الصخرة الباكية آلامها ، تلك الصخرة المرمرية الرطبة القائمة فى فريجيا والتى تحاكى امرأة تفغر فاها ألما وحزنا •»

ونلاحظ أن كاليماخوس لم ينس فى الفقرة الأخيرة أن يبين لنا سعة علمه سواء بالأساطير كما هو الحال فى اشارته لثيتس أو بالآثار كما هو الحال فى الصخرة الفريجية ، وتلك آفة انزلق اليها معظـم الشعراء وقل من نجا من الوقوع فيها • وفى النشيد الثالث يصـور لنا الشاعر جماعة المردة ذوى العين الواحدة الكيكلوبيس Kyklôpes وهممخلوقات مفزعة يصاب من يراها بالرعب، ويكفى وصف هوميروس لواحد منهم هو بوليفيموس الذى التهم الكثير من رفاق أوديسيوس• أما هسيودوس فيذكر منهم ثلاثة هم برونتيس Brontês (المرعد) وستروبيس Steropês (المبرق) وأرجيس Argês (المضىء) ، ويصفهم بأنهم يصنعون لزيوس صواعقه المهلكة • لكن كاليماخـوس

يختلف عن الشاعرين الكبيرين فى وصفه لهؤلاء المردة : فرغم أن كافة صوره وأوصافه تهدف الى جعلنا نستشعر الرعب من هيئتهم ، الا أن رغبته الخفية وطريقته المتميزة فى تجريد الأساطير من جلالها القديم ومن رهبتها تجعلنا دون أن نشعر نحس بأننا أمام مجموعة من الحدادين تعمل فى دأب وبهمة لا تعرف الكلل ، وبأن هؤلاء المردة لا يخيفون حقـا سوى أطفال الالهة الصغار كما نفعل نحن مع أطفـالنا الذين لا يصغون للنصح أو يرفضون النوم (٩٢) :

« وفى التو انطلقت (أرتميس) لزيارة الكيكلوبيس الذين وجدتهم فى جزيرة ليبارا ، (وليبارا هو اسمها الآن ولكنها فى ذلك الحين كانت تسمى ميليجونيس) واقفين حول كتلة من الحديد الملتهب فوق سندان هيفا يستوس : فقد كانوا مكلفين بمهمة عاجلة وهامة وهى صنع مزود لفرس بوسيدون • ارتعدت فرائص عرائس البحر عندما شاهدن تلك المخلوقات المخيفة التى تشبه صخور أوسا ، ذوات العين الواحدة التى تماثل فى حجمها ترسا مدرعا بطبقات أربع من جلد الثور ، وكل عين منها ترسل من تحت جفنها بريقا مرعبا ، وعندما سمعن (أى عرائس البحر) دويا مفزعا ينتج عن طرقهم على السندان ، وتيارا هائلا من الهـواء يندفع من منفاخ الكى ، وزمجرة مزلزلة تصدر عن الكيكلوبيس أنفسهم • ومن هول (هذه الزمجرة) تأوهت اتنا وتريناكيا ، مقـر السيكانيين ، وكذا ايطاليا المجاورة وكيرنوس ، فدوت صرخاتها احتجاجا وألمـا • وعندما رفع (الكيكلوبيس) مطارقهم فوق أكتافهم كى يهووا بها على البرونز الذى كادت تصهره الأفران أو على الحديد ، كانوا يلهثـون بفحيح عال • بسبب تلك الهيئة لم تستطع بنات أوقيانوس (عرائس البحر) النظر اليهم وجها لوجه دون أن يصبن بالذعر ، لا ولم تتحمل آذانهن كل تلك الضجة الهائلة • ولا لوم عليهن فى ذلك ! فحتى بنات (الآلهة) المباركين — وهن مازلن بعد فى طفولتهن — لم يكن بوسعهن النظر الى الكيكلوبيس دون أن يرتجفن فرقا • وعندما كانت احدى هؤلاء البنات

الصغيرات تعصى أمها ، كانت الأم تنادى على الكيكلوبيس ، أرجيس أو ستروبيس ، ليعاقب الطفلة • حينئــذ كان الاله هرميس يأتى من أقصى مكان فى مقر (الأرباب) وهو مغطى بالسناج ويقوم بتمثيل دور الغول « البعبع » الذى يخيف الأطفال ، وسرعان ما تغوص الطفلة فى حجر أمها وهى تغطى عينيها بيديها من الخوف » •

أما قصيدة « الأسباب » فتفتقر الى الوحدة ويغلب عليها التفكك لتنوع موضوعاتها وكثرتها ، وكثيرا ما يقع الشاعر فيها فى مهــاوى العلمية والغموض والحذلقة فتعجز أبياته عن التأثير وتفقد قوة الجذب • غير أنه فى أكثر من موضع من هذه القصيدة يثبت مهارته كقصـــاص لا يبارى : ومن أجمل أجزاء القصيدة التى وصلت الينا روايته لقصة حب جمعت بين الشاب أكونتيوس والفتــاة كيديبى ، وهى تستحق أن نوردها هنا لروعتها [٩٣] :

« ان اروس نفسه هو الذى علم أكونتيوس عنــدما كان الفتى يلتهب بحب العذراء الجميلة كيديبى ، ولم يكن أكونتيوس يضمر المكر بل كانت غايته فى الحياة أن يكون زوجا شرعيــا • ذلك أنه ، يا اله كينثوس (= أبوللون) ، قد وفد من يوليس أما هى فوافدة من ناكسوس كى يشهدا مهرجان التضحية بالثور الك فى جزيرة ديلوس • وكان الشاب ينحدر من نسل أسرة يوكسانتيوس أما الفتاة فكانت من آل بروميثوس : وكلاهما من نجوم الجزيرة الساطعة • فكم من أم تاقت الى أن تتخذ كيديبى — وهى ما زالت بعد طفلة — عروسا لابنها فقدمن لها من هدايا العرس ثيرانا ذات قرون : فمن قبلها لم تفد فتاة أخرى بمثل ذلك الوجه الصبوح كالبدر الى نبع سيلينوس القديم الأشعث ذى المياه الوفيرة ، ومن قبلها لم ترقص فتاة أخرى بمثل هذه القدم الرقيقة أثناء نوم أريادنى •••

وكانت العذراء (كيديبى) فى ذلك الوقت نائمة فى فراشها مع

الصبى : لأنه كان هناك طقس يقتضى أن تنام العروس قبل زفافها مع صبى يكون كل من والديه على قيد الحياة • فهم يحكون أن الربة هيرا ذات مرة — ولكن أيها الكلب ، توقف يا أيها الكلب ، ويا نفس أمسكى عليك لسانك ، يا من لا تعرفين الحياء ، فلسوف تنشدين ما يعتبر تجديفا فى حق الآلهة ! انها لنعمة كبرى أنك لم تشاهدى طقوس الربة ديميتر) التى يرتجف المرء من هولها فرقا ، والا لكنت أفشيتى قصتها أيضا • واحسرتاه ! ان المعرفة الزائدة شر يهلك الانسان الذى لا يعرف كيف يتحكم فى لسانه ، فمثل هذا الانسان كمثل طفل يمسك سكينا — •

وفى الصباح كانت الثيران تكاد تتمزق نياط قلوبها لدى رؤيتها لنصل السلاح الحاد ينعكس على صفحة الماء أمام أبصارها • وبعـــد الظهيرة أصاب شحوب حاد وجه كيديبى وامتقع لونها ، اذ ابتليت بذلك المرض الذى ندرأه عنا وننسبه الى الماعز البرية ، المرض الذى نسميه زورا وبهتانا بالمرض المقدس : هذا الداء الوبيل جعل الفتـــاة تشرف على الموت وتدنو من بوابات هاديس • وفى المرة الثانية تناثرت وسائدت فراشها وتبعثرت ، فى المرة الثانية ظلت الفتاة مريضة وهى تهذى بفعل الحمى سبعة شهور • أما فى المرة الثالثة فقد أصابت الفتاة كيديبى من جديد رعشة مهلكة • وفى المرة الرابعة لم يعد والدها قادرا على تحمل مرضها أكثر من ذلك فتوجه الى (نبؤة الاله أبوللون فى دلفى كى يستطلع الأمر) ، وفى المساء جاءه رد فوبيوس على النحو التالى :

« ان ما يبطل زواج ابنتك هو قسم عظيم أقسمته للربة أرتميس: ففى ذلك الوقت لم تكن أختى المقدسة تولى ليجداميس رعايتها ، ولم تكن تجدل السمار فى معبدها بأميكلاى أو تغسل بقع الدماء المتخلفـــة من الصيد فى نهر بارثينيوس ، بل كانت فى مقرها (المقدس) بديلوس عندما أقسمت ابنتك أنها لن تتخذ لها زوجا ســـوى أكونتيوس دون سواه •••• »

كان هذا ما نطق به الإله ، ومن ثم قفل والد الفتاة عائدا أدراجه الى ناكسوس وهناك استفسر من الفتاة نفسها عن جلية الأمر فأفضت اليه بالحقيقة كاملة ، من بعدها تم شفاؤها وصارت من جديد بخير حال • وما بقى بعد ذلك ، يا أكونتيوس ، هو دورك الذى ستقوم به عندما تذهب الى ناكسوس • وهكذا أبرت (كيديبى) بقسمها للربة ، وفى التو قامت فتيات من نفس عمرها بترتيل أنشودة زفافها دون ابطاء ولا تقاعس • بعدئذ أعتقد أنك ، يا أكونتيوس ، حينما لمست زنارها فى تلك الليلة لم تكن لترضى بكعب افيكليس (العداء السريع) الذى جرى فوق سنابل القمح (دون أن يثنيها) ، ولا بثروة ميداس الكيلاينى •••• الخ » •

وحينما يهاجم كاليماخوس خصومه يكون عنيفا صارما ، فهو يشبههم بالحدادين الذين يطرقون المعادن فيصدرون جلبة تصم الآذان بقصائدهم الضخمة الطنانة التى تفتقر الى الصقل ، وهم يضرمون نيرانا يتصاعد منها الدخان ولا يومضون بنور ساطع أو يشدون بعذب الألحان • ومن قصيدة الأسباب نختار هذه الفقرة التى توضح اتجاهات كاليماخوس فى التأليف والنظم وتبين العيوب التى يأخذها على معارضيه [٩٤] :

« انى أعرف أن التيلخينيس (الحدادين) الجهلة العاجزين عن نيل الحظوة لدى ربة الشعر يزمجرون غضبا من أشعارى ••• « اذهبوا بعيدا ، أيها السفاحون الحاسدون ، فمنذ الآن ستحكمون على الشعر بقوانين الفن لا بمقياس الأرض الفارسى • ومنى لا تنتظروا قصيدة تدوى مثل الرعد ، فلست أنا الموكل بالرعد بل هو من اختصاص زيوس » • وحينما وضعت لأول مرة لوح الكتابة على ركبتى اخبرنى أبوللون الليكى بالتالى :

«يامن تنشد الأشعار ، اجعل أضحيتك سمينة على قدر ما تستطيع ،

ولكن يا صديقى الطيب ، دع ربة الشعر رشيقة نحيفة • كما أنى آمرك أيضا ألا تطأ بقدمك سوى الطريق الذى لم تسلكه المركبات من قبل وألا تسوق مركبتك فى طريق اعتاد الآخرون أن يطرقوه حتى ولو كان طريقك أنت أكثر ضيقا • دع الآخرين ينهقون مثل البهائم ذات الآذان الطويلة ، ولأكن أنا رقيقا أحلق بجناحين وذلك حقا من أجل أن أشدو وأنا أحيا على قطرات الندى التى تتخذ الهواء المقدس مقرا لها ، وكى أنضو عنى ثوب الشيخوخة الذى أرزح تحته مثلما يرزح أنكيلادوس الرهيب تحت الجزيرة المثلثة • لكن لا تبتأس ، فإن لم تكن الموسيات قد نظرن اليك شذرا فى صباك فلن يتخلين عن حبهن لك حينما يخط الشيب شعرك » •

وأحيانا يجنح كاليماخوس فى قصيدة الأسباب الى التأمل الفلسفى ويميل الى رسم المغزى عن طريق الصورة الشعرية التى تحمل تجاربه وخبراته المختزنة ، مثل الصورة التالية التى تعبر عن ما ينفع الناس وما يقصر عن الوصول الى ذلك (٩٥) :

« ان كل العطور الرقيقة والزيوت التى تبرق كالذهب والتى ضمخت بها رأسى آنذاك مع الأكاليل التى يتضوع شذاها قد فقدت جميعا عبيرها بالضرورة • وان كل ما مر من بين أسنانى واستقر فى بطنى الناكر للجميل لم يبق منه شىء فى صباح اليوم التالى • ولكن ما سمعته بأذنى واستقر فى سمعى هو الشىء الوحيد الذى ما زلت احتفظ به » •

وفى أحيان أخرى ينجح الشاعر فى أن ينقل الينا صورة تحوى قدرا من المشاعر الانسانية الخالدة التى لا تبلى مع الزمن ولا تفلح العصور فى طمسها لأنها من خصائص النفس البشرية (٩٦) :

« ذلك العجوز يخطو نحو الشيخوخة دون خوف ولا وجل ، يحبه الشباب كما لو كان والدهم ويأخذون بيده حتى باب منزله » •

وتزخر القصائد الايامبية بقدر كبير من الموضوعات الطريفة التى تنم عن خيال أدبى خصب وقدرة لا تبارى على النظم وموهبة فريدة فى السرد القصصى تستمد حيويتها من التراث الشعبى • وفى مطلع هذه القصائد نجد شاعرنا يشبه نفسه بشاعر الهجاء القديم هيبوناكس ويشرع مثله سارح البحر الايامبى لينقد به ما يتراىء له [٦٧] :

« اصغوا الى هيبوناكس ! اننى قادم حقا من ذلك المكان (يقصد هاديس) الذين يبيعون فيه الثورة بثمن بخس (أى عملة صغير تسمى كالييــــوس) ، حامـــلا معــى البحــر الايامبــى الــذى يتغنــى لا بالمعركة مع بوبالوس بل بأنباء جديدة (يحملها الموتى للأحياء) » •

ويحمل كاليماخوس فى جعبته خبرة السنين ويختزن فى ذاكرته حكمة الشعوب ، ويعيد الى اذهاننا قدرة الطبيعة التى أودعت سرها للمخلوقات ولكن بحساب وقدر • وهو يستمد من الكائنات معـــانى وأفكاراً رمزية تصلح نبراسا لبنى الانسان لو كانوا ممن يقبلون المعرفة من الأدنى ، لذلك فهو يجرى لنا حوارا طريفا بين شجرة غار وشجرة زيتون ، وكأنه أيسوبوس الذى يستخلص الحكمة من أفواه الحيوانات • وللحظة ننسى أننا أمام أشجار تتكلم بل يخيل الينا أننا أمام اثنين من البشر أحدهما مغرور طائش والثانى عركته السنون [٦٨] :

« ••• يروى أهل ليبيا القدامى أنه فى ذات مرة نشب نزاع بين شجرة غار وشجرة زيتون فى تمولوس ، [فقالت شجرة الغار] : « اننى شجرة جميلة ••• وان الجزء الأيسر (منى ؟) أبيض اللون مثل بطن ثعبان الماء ، أما الجزء الآخر المكشوف فى معظمه فقد لوحته أشعة الشمس • فأى منزل هـــذا الذى لا أقف (شامخه) أمام بابه ؟ وأى عراف أو كاهن لا يحمل أغصانى وهو يقدم الأضاحى ؟ ففى الحقيقة أن الكاهنة البيثية تتخذ مقعدها فوق الغار وتتغنى بالغار وتتخذ الغار وسادة لها • أى شجرة الزيتون الحمقاء ، ألم يشف برانخوس أبنـــاء

الايونيين ــ الذين غضب عليهم الاله فوييوس ــ بأن ضربهم بالغار وهو يتلو تعويذته الغامضة مرتين أو ثلاث ؟ كما أننى أذهب الى المهرجانات وأرتاد احتفـــالات بيثو الراقصة ، وأمنح جائزة للفـــائزين • وان الدوريين يقطعون (أغصانى) من مرتفعات وادى تمبى ثم يحملوننى الى دلفى حيث يتم الاحتفال بمهرجان أبوللون • أى شجرة الزيتون الحمقاء اننى لا أعرف الحزن ولا أعرف الطريق الذى يسلكه حملة (جثث) الموتى ، لأننى نقية طاهرة ، كما أن الرجال لا يطأوننى بأقدامهم لأننى مقدسة • أما أنت فكلما أراد الناس أن يحرقوا جثمانا أو أن يواروه الثرى ، فانهم يستخدمونك كى يصنعوا منك أكاليلهم ، ثم وا أســفاه ينثرونك تحت جثث من صاروا لا يتنفسون بالحياة » •

هكذا تحدثت شجرة الغار ولم ترد على ذلك • ولكن الشجرة المثقلة بثمار الزيتون وزيته ردت عليها قائلة بهدوء لا مزيد عليــه : « أى صاحبتى ، يا من فى كل مظهر تتصفين بالجمال ، لقد كان شدوك مثل شدو البجعة غير أنك فى ختام أنشودتك شهدتى بما لى من فضــل عظيم •• ليتنى اذن لا آكل ولا آمل من هذا الفعل : فأنا أرافق الرجال الذين أوردهم آريس مورد التهلكة •• والأمــراء •• وعندما يحمــل الصبية الى المقابر تيثيس العجوز ذات الشعر الأشهب ، أو تيثونوس الذى بلغ من الكبر عتيا ، فأنا التى أذهب معهم وأتناثر فوق الطريق الجنائزى • وانى فى الحق لأجد مع هؤلاء سعادة أكثر من سعادتك بأولئك الذين يحضرونك من وادى تمبى • ولكن ما دمت قد ذكرت هذا أيضا ، أفلست أفضل منك كجائزة ؟ فالمســابقات الأوليمبية أعظــم بلا جدال من تلك (المسابقات) التى تقام فى دلفى • وأيا كان الأمر فان الصمت أفضل : ومن ناحيتى لن أتفوه بكلمة مدح أو قدح لك • ولكن زوجا من الطيور حط طويلا على أفنانى وأخذ يثرثر بهذه الكلمات :

« من الذى اكتشف شجرة الغار ؟ الأرض (هى التى أنبتت ؟) أشجارا مثل البلوط الأخضر والسعد والبلوط والصنوبر • ومن اكتشف

شجرة الزيتون ؟ الربة باللاس : وذلك عندما كانت تتشاحن مع قاطن البحر (الاله بوسيدون) فى الزمن الغابر حول الظفر (بافايم) أثينا، وكان الحكم بينهما كيكروبس الذى كان له ذيل ثعبان • « هذه أول نقطة تحسب ضد شجرة الغار » • أى اله يكرم شجرة الغار وأى رب يكرم شجرة الزيتون ؟ أبوللون يكرم شجرة الغار وباللاس تكرم شجرة الزيتون التى اكتشفتها بنفسها • « وهذه نقطة تعادل بين الطرفين حيث أننى لا أفرق ولا أميز بين الأرباب » • ما هى اذن ثمرة شجرة الغار ؟ وما هى الفائدة التى تعود على منها ؟ أنا لا آكل الغار كما أننى لا أشربه ولا أستخدمه كدهان ، أما ثمرة شجرة الزيتون فأولا يأكل (الناس) لحمها وهو ما يسمونه فطيرة الزيتون ، وثانيا يستخرجون منها الزيت ، وثالثا يصنعون منها المخلل الذى كان يلتهمه حتى ثيسيوس • « أنا أحتسب هذه نقطة ثانية ضد شجرة الغار » • أى أوراق شجر يحملها المتضرعون فى صلواتهم ؟ انها أوراق شجرة الزيتون • « وهذه نقطة ثالثة تحرز الآن ضد شجرة الغار » • ياويلتاه ! ما لهذه المخلوقات تمضى فى ثرثرتها ؟ ايه أيها الغراب ، يا من لا تعرف الخجل ، أو لن تصـــاب شفتاك بالقروح ؟ أى جذع شجرة يحافظ عليه سكان ديلوس ؟ أنه جذع شجرة الزيتون الذى منح ليتو الراحة •• »

هكذا تحدثت شجرة الزيتون ، على حين وخز الألم قلب الشجرة الأخرى من هذا الحديث فصارت تتوق أكثر من ذى قبل للدخول فى منافسة أخرى مع غريمتها ••• وهنا نطقت شجيرة شوك — لم تكن تبعد كثيرا عن الشجرتين — بهذه الكلمات : « أيتها التعستان ، فلنتوقف كى لا نمنح أعداءنا البهجة والسرور ، ليس لشجرة منا أن تتفوه بمثل هذه الكلمات الخبيثة عن الأخرى •••• » • ولكن شجرة الغار كشرت عن أنيابها واندفعت مثل الثور الجامح قائلة : « أيتها الشقية الوضيعة هل تعدين نفسك واحدة منا ؟ ألا فلتحفظنى يازيوس من هذا (البلاء) ! ان مجرد وجودك الى جوارى يخنق أنفاسى ••• لا بحق فويبوس ،

لا بحق مولاتى (كيبيلى) التى يدق لهـا الصناج ، لا بحق نهـــر باكتولوس .... » .

ومن مليحمة هيكالى نسوق طرفا من بدايتها حيث يصور الشاعر قدوم البطل ثيسيوس الذى لا يكاد يعرفه أحد حتى يتوجه الى الجمع بالحديث ، وهذه نزعة تبدت لدى شعراء العصر الذين كانوا يجدون لذة فى تجريد البطولة من سماتها التقليدية ، ويركزون فقط على ما هو عادى أو مألوف فى حياة البطل ، وهو موضوع سوف نتعرض له تفصيلا فى الفصل الذى سنعرض فيه لخصائص الأدب السكندرى (٩٩) :

« كان (ثيسيوس) فى الناحية المقابلة وقد ثبت حسامه فى (غمده) . وحينما أبصروه اعترتهم جميعا الرجفة وتحاشوا النظـر بامعان الى مثل هذا الرجل العظيم والى مثل هذا الوحش الهائل ، الى أن توجه ثيسيوس بالحديث اليهم من على مبعدة : « لا تخشوا شيئا وظلوا حيث أنتم ، ودعوا أسرعكم يذهب الى المدينة كى يحمـل الى والدى أيجيوس رسالتى هذه ليخلصه من هموم كثيرة وكى تقر عينه ولا يحزن : « أن ها هو ثيسيوس قد جاء بعد أن أحضر معه من ماراثون ذات المستنقعات الثور حيا » .

ونلمح فى موضع آخر من هذه المليحمة تبرم كاليماخوس بصخب المدينة وضجيجها حيث لا يجد المرء فرصة للراحة ، وهو شعور انتاب أدباء العصر السكندرى الذين كانوا يعيشون فى مـدن كبيرة مثـل الاسكندرية حالت بينهم وبين التمتع بالهدوء فى أحضان الطبيعة الرؤوم. لقد كان الحنين الى الحياة الهادئة فى الريف أو فى المراعى مطمحا لكثير من الشعراء الذين تركوا مسقط رأسهم كى يعيشوا حيث الحضـــارة والازدهار (١٠٠) :

« وبينما كانت تتفوه بهذه الكلمات استولى النعاس عليها وعلى

سامعها ، فاستغرقا فى سبات عميق لم يستمر وقتا طويلا (فما لبثا أن استيقظا) — اذ سرعان ما حل الفجر المبكر بصقيعه ، وكف اللصوص أيديهم عن الأسلاب لأن مصابيح الفجر بدأت تبعث بضيائها • وطفق كل سقاء يرفع عقيرته بأغنية عن الينبوع ، وأخذت العجلات تصـــدر صريرا تحت العربات فتوقظ من كان سكنه بجوار الطريق العام • بينما كان الحدادون من العبيد الذين فقدوا حاسة السمع يعـــذبون الآذان بطرقاتهم المتكررة على السندان ••• » •

لكن كاليماخوس يبدو أروع ما يكون كشاعر فى الابجـــرامات ، حيث وجدت مقدرته فى هذا اللون الأدبى نفسها ، وحيث وجد حبـــه للصقل فى هذا الحيز المحدود مجاله : فاستطاع أن يفصح عن موهبته ببراعة ويعبر عن ملكاته فى ابداع • ولقد أجمع الباحثون على تفوقه وامتيازه فى ابجراما الرثاء التى استطاع فيها أن يظهر صدق احساسه وأن يجدد ويبتكر مع الحفاظ على البساطة والابداع الخلاق • ولنبدأ بعرض أروع ابجراماته وأكثرها صدقا فى المشاعر وأشدها بساطة فى

التعبير وأكملها اتقانا فى الصورة وسحرا فى اللفظ [١٠١] :

« أى هيرا كليتوس ، لقد نقل الى شخص نبأ وفاتك ففاضت عيناى بدمع غزير ، اذ تذكرت كم من مرة بأحاديثنا جعلنا سويا الشمس تجنح للمغيب • والآن ها أنت أيها الوافد الهاليكار ناسى ، ترقد حفنة من تراب فى مكان ما • لكن أصوات عنادلك الشجية ستظل دوما حيـــة ، لأن هاديس مختطف كل شىء لن يتمكن من أسرها فى قبضته » •

ولا تقل عن هذه بساطة الابجرامة التالية التى يعكس فيها الشاعر اعتقادا راسخا ترسب فى الأذهان على مر السنين [١٠٢] :

« هنا يرقد ساؤون بن ديكون ، من أكانثوس ، فى سبات قدسى • لا تقل إن الأخيار يموتون » •

ان عظمة كاليماخوس ترجع الى اقتصاده المدهش فى الكلماتوالى اختياره الموفق للألفاظ الموحية كما فى الابجرامة التالية [١٠٣] : « هنــا وارى الأب فيليبوس ولده البالغ من العمر اثنى عشر عاما ، هنا وارى الوالد أمله الكبير » •

ولا يكتفى كاليماخوس باظهاره تميزه فى حدود الشكل التقليدى لابجراما الرثاء بل جدد وابتكر محاولا الهروب من العبارة التقليــدية « هنا يرقد •••• » ، وفى الابجرامة التالية يبتكر الشاعر شكلا طريفا يبدو فيه وكأنه مار فى الطريق فشاهد احدى معارفه مصادفة ، فيبدى دهشته ثم يجرى معها حوارا كما لو كانت من الأحياء [١٠٤] :

« تيمونوى ! من أنت ؟ وحق الأرباب لم أكن لأتعرف عليك لو لم يكن اسم والدك تيموثيوس منقوشا على شاهد القبر ، وكذا اســم مدينتك ميثيمنى • وأقول ، أنا يوثيمينى ، وقولى الحق ان زوجك الذى ترمل قد صار غاية فى التعاسة » •

وفى مجال ابجراما الحب احتل كاليماخوس مركــزا مرموقا بين الشعراء الذين برعوا فى هذا اللون الأدبى ، وان كان يقل عنهم فى تدفق المشاعر وصدق الأحاسيس • غير أنه حاول على أية حال أن يبدى كثيرا من التظرف والرقة التى تتسم بالمبالغة ، كما أنه أجهد نفسه فى البحث عن الصورة غير المسبوقة والتعبيرات غير المطروقة • وهــذه احدى ابجراماته التى يصور فيها شكوى العاشــق وأنينه أمام باب الحبيب ، وهو كما سبق القول موضوع لقى رواجا فى ذلك العصر [١٠٥] :

« أيمكن لجفونك أن تغمض هكذا ، ياكنوبيون ، فى حين تحملينني على الرقاد فوق هــذه الأعتاب الباردة أمام منزلك ؟ أهكذا ، يا أشــد الناس ظلما ، تستسلمين للسبات بينما تدعين عاشقك يستلقى على هذا النحو ! ألا تعرفين الرحمة حتى فى أحلامك ؟ لقد انفطرت قلوبالجيران

شفقة عليّ وأنت فى أحلامك لا تشفقين . لكن المشيب الذى سيكلل وشيكا خصلات شعرك سيذكرك بكل هذا » .

وهناك ابجرامة أخرى رشيقة العبارة طريفة الفكرة يتخيل فيها الشاعر أنه فقد نصف روحه ويظل يبحث عنه ويسأل كل من يصادفه ، ولكن فى النهاية نعرف أن نصف روحه هو فتاته التى تركته وفرت مع أحد الشبان . ومع كل هذا التطرف فالفكرة ما تلبث أن تفقد رونقها حينما يعود الشاعر الى ترديد ما سبق أن ردده أسكليبيادیس فى ابجراماته ، فنحس بالاشمئزاز والتقزز من مسلك هذا العاشق المشين [١٠٦] :

« لم يبق من نفسى على قيد الحياة سوى نصفها ، أما النصف الآخر فلا أدرى أسلبنى اياه اروس أم هاديس ! (لا أدرى) سوى أنه اختفى . ترى هل ذهبت من جديد الى أحد الفتيان ؟ ومع ذلك فكثيرا ما نهيتكم قائلا : « أيها الفتيان ، لا تستقبلوا الهاربة » . من ذا الذى يبحث معى عن ثيوتيموس ؟ ذلك أننى موقن أن تلك العاشقة النافرة ، المستحقة للرجم بالحجارة ، تتسكع هنالك فى مكان ما » .

ولكن هناك ابجرامات أخرى لكاليماخوس تفيض رقة وعذوبة وتتميز لغتها بحسن التصوير وجودة الصياغة ، مثل الابجرامة التالية التى يصور فيها الشاعر نوعا من الحب المتأنق تجاه أحد الغلمان على عادة أهل هذا العصر [١٠٧] :

« لو كنت اجترأت عليك عامدا ، أى أرخينوس ، فلمنى اذن عشرة آلاف مرة . أما أن أفد عليك رغما عنى فسحقا للتهور ! ان الخمر والعشق قد كبلانى بأغلالهما : جذبنى أحدهما ولم يسمح لى الآخر باجتناب التهور . غير أننى حينما قدمت اليك لم أهتف باسمك أو باسم والدك بل لثمت قائم بابك . فان يك هذا جرما فانى للجرم مقترف » .

ويبدو كاليماخوس أقل تكلفا فى الابجرامة التالية التى يصـــور فيها عاشقا يخشى الغرق فى لجة الحب الصاخبة ، فرغم أن هـــذه الصورة تكررت عند شعراء العصر السكندرى الا أنها تبدو عنده أكثر اشراقا : فالنار عنده تظل مشتعلة تحت الرماد وتيار النهر الهادىءالذى لا يكاد يحس أقوى من الموج المتلاطم لأنه يقوض الجدار الصلب (١٠٨) :

« قسما بالاله بان ان هناك شيئا مختبئا ! أجل وحق ديونيسوس ان نارا ملتهبة تتأجج تحت الرماد ! آه ان شجاعتى تتبدد فلا تعانقنى • فكثيرا ما يجرف نهر هادىء التيار جدارا صلبا خفية ، واننى لأخشى الآن ، يا منيكسينوس ، أن يتسلل الى قلبى هذا الأفاق المترلفويسلمنى الى العشق » •

وهذه ابجرامة أخرى لا تقل عن سابقتها اشراقا وتفوقا من حيث جمال الصورة وفراسة الاستنتاج ، ولكن كاليماخوس لا يتخلى فيها عن رغبته فى اظهار ســـعة معلوماته وتفقهه ودرايته بمختلف الأســـاطير والروايات (١٠٩) •

« لقد أقسم كاالیجنیتوس لا یونیس أنه لن یتخذ أبدا حبیبا أو حبیبة أعز منها • لقد أقسم ، ولكن ما يقولونه هو الحق : وهو أن قسم العاشقين لا يبلغ آذان الآلهة الخالدين • فالآن بات يلتهب عشقا لفتى ، أما فتاته التعســـة فقد غدت مثل أهـــل ميجارا لا فى العد ولا فى الحسبان » •

ولم يتفوق كاليماخوس فى ابجراما الرثاء وابجراما الحب فقط بل أبدى مقدرة لا بأس بها فى ابجراما الاهـــداء والنذور ، وهـــو نمط صادفناه قبلا لدى الشاعر ليونيداس الذى يعد فى مقدمة الشعراء الذين تفوقوا فى نظمه • وهذه ابجرامة نسوقها كمثال يصور فيها الشاعرفتاة تهب لأفروديتى صورتها وزنارها ومشعلها وصولجانها (١١٠) :

« لأفروديتى منحت سيمون الجوالة هذه الهدايا : صـــورة لها وزنارها الذى لثم ثدييها ومشعلها ، والصولجانات ذاتها التى تعودت تلك التعسة أن تحملها كشعار (فى مهرجانات باكخوس) » •

أما فى مجال النقد الأدبى فقد كان لكاليماخوس ابجرامات عديدة يظهر منها اهتمامه بالقضايا الأدبية التى شغلت عصره وكان هو نفسه طرفا فيهــا بل أحد أقطابها • وكان كاليماخوس ينادى دوما بارتياد دروب جديدة ونبذ تقليد السابقين وأن على الأديب أن يبتكر الشـــكل الأدبى الذى يناسب مقدرته والذى تبدو فيه بوضوح مواهبه • وهذه ابجرامة تشرح لنا بوضوح هذا الموقف الذى اتخذه كاليماخـــوس فى عصره (١١١) :

« أمقت القصيدة الموسوعية ولا أجد متعة فى الدرب الذى يقود الكثيرين هنا وهنالك ، وأكره العاشق الجوال وأعاف النبع الذى رشفت منه الشفاة ، وأبغض كل ما هو سوقى مبتذل • « أى ليسانياس ، انك وسيم ، وسيم وأيم الحق » • ولكن قبل أن أجد الفرصة لأردد هــذا بوضوح قال الصدى : « انه ينتمى لشخص آخر » •

وكان كاليماخوس مهتما بكل ما يصدر من أعمال معاصريه وزملائه الأدباء والباحثين ، فلقد أشرنا قبلا الى تقريظه وترحيبه بقصــــيدة « الظواهر الفلكية » التى ألفها أراتوس • ومن أجل هذا خصص شاعرنا عدة ابجرامات يحيى فيهــا بما له من اهتمامات نقدية انتـــاج زملائه الشعرى وبوجه خاص تلك الأعمال التى تصادف هوى فى نفسه وتتفق مع اتجاهاته المتميزة فى التأليف • وهذه ابجرامة يبدى فيها اعجابه باحدى قصـــائد زميله ثيوكريتوس التى تدور حول قصــــة حب بين الكيكلوبس بوليفيموس وعروس البحر جالاتيا ، فلقد أعجب شاعـــرنا بدعـــوة ثيوكريتوس الى التغرى بقرض الشـــــعر عن الفشـــل فى الحب (١١٢) :

« لعمرى كيف اهتدى بوليفيموس الى تعويذة ناجعة للعاشق !
وحق ربة الأرض ان الكيكلوبس لم يكن غـــرا ، يا فيليبوس ، فان الموسيات يذهبن بآلام العشق • حقا ان الحكمة دواء شاف لجميـع العلل والأمراض ، ويخيل الى أن الجوع له أيضا هذه الميزة فحسب أمام الشرور ، فهو يضع حدا لداء عشق الغلمان • لذا صار حقا علينا أن نتوجه بهذه العبارة القاسية الى الاله اروس : « قص أجنحتك ، أيها الطفل العابث ، فلم نعد نخشاك كثيرا لأن كلينـــا لديه فى الدار دواء للجرح الأليم » •

ولا يكتفى كاليماخوس بهذا الثناء على قصيدة الكيكلوس لزميله ثيوكريتوس ، فيلجأ فى ابجرامة أخرى بها كثير من التظرف الى اطلاق اسم ثيوكريتوس على أحد أصدقائه ثم يتوجه اليه بالعتاب الرقيق •

ولقد حار النقاد فى أمر هذه التسمية طويلا وناقشوا المقصود منها ، ولكنها فى نظرنا لا تعدو نوعا من المداعبة (١١٣) :

« أى زيوس ، ألا فلتبغض ذلك الخمرى الوســيم ثيوكريتوس اضعافا مضاعفة لو كان يكرهنى ، أما ان كان يحبنى فلتحبه ! فأنت أيها السماوى ، كنت حقا عاشقا لجانيميديس ذى الخصلات الجميلة •ولست أريد أن أمضى فى قولى أبعد من هذا » •

ونلمح فى خاتمة الابجرامة الســابقة مدى الاســتخاف بكبير الآلهة زيوس ، وتلك سمة صبغت جل مؤلفات شعراء العصر وبوجــه خاص شعراء الابجرامة ، بحيث غدت بمثابة تقليد أدبى : وليس بوسعنا هنا حصر جميع الأمثلة على ذلك لأنها بالتأكيــد كثيرة بصورة تدعــو للدهشة • وفى بعض الأحيان يصور لنا كاليماخوس تأثير بعض المؤلفات بطريقة درامية لا تخلو من الطرافة والبراعة ، مثل تلك الابجرامة التى يعبر فيها عن مدى تأثير آراء الفيلسوف افلاطون الخاصة بخلود الروح

وسموها على أحد تلاميذه المحبين له • فلم ينتظر هذا المغرم بأفلاطون الموت كى يصل عن طريقه الى نعيم الروح الأبدى بل سعى للانتحار كى يحظى بخلود قصرت الحياة الدنيا عن منحه له (١١٤) :

« « وداعا أيتها الشمس » • قالها كليومبروتوس من أمبراكيا ثم قفز من فوق جدار شاهق الى هاديس • لا لأنه رأى (فى حياته) شرا يستحق الموت ، بل لأنه طالع كتاب أفلاطون « عن الروح » •

وهناك هاوية انزلق اليها الكثير من شعراء العصر وعلى رأسهم كاليماخوس ، شاعر البلاط الرسمى ، وهى التملق السافر المفضوح • ولست هنا بصدد تعديد الأمثلة التى يمكن ايرادها من أعمال كاليماخوس كشاهد على هـذا الاتجاه فهى عديدة متناثرة ، ولكنى أسوق هـذه الابجرامة التى نظمها الشاعر بعد أن شـاهد تمثال الملكة برنيقى ، ابنة ماجاس القورينى وزوجة بطلميوس الثالث يورجيتيس • وهى الملكة التى دون من أجلها كاليماخوس قصيدة كاملة ــ لم تصلنا ــ بعنوان « خصلة شـعر برنيقى » •

وفى الابجرامة التى نعرض لها يتخيل الشاعر برنيقى ربة من رباء الحسن والبهاء (أو الفاتنات) Charites فيطنب فى وصـف محاسنها ورشاقتها بطريقة ممجوجة ، لا يشفع له فيها طرافة الفكرة وتنميق العبارة (١١٥) :

« قد زيدت الفاتنات رابعـــة اذ صيغت الرابعـــة الآنـــا
ما زال فوح العطـر فى ردنهـا يلهى العقول ويسبى الناس وجدانا
جـــذلى « برنيق » أخـــاذة بين الحســان زرافات ووحدانا
ما كانت الفاتنـات الا بهـــا تدعى حسانا وكان الحسن فتانا»

لقد كان كاليماخوس ذا مقدرة فذة ككاتب للابجرامة ، وكان متفوقا في قصائده المنظومة في البحر الاليجي المثنوى ، وكان بارعا فيصياغة أشعاره الأخرى كالميحمات والأناشيد والقصائد الايامبية • ولكن ما بقى لنا من مؤلفاته رغم كثرته لا يفسر لنا سر ذيوع صيته في العالم القديم ، أو سر شهرته ومكانته الرفيعة بين شـــعراء عصره ، أو تأثيره الواضح على من خلفوه سواء من أدباء الاغريق أو من شـــعراء الرومان [116] • فالحق أن كثيرا منا نحن المحدثين يجد أشعار ثيوكريتوس أو أبوللونيوس أكثر جاذبية وامتاعا وأشد سحرا من قصائد كاليماخوس ، لكنالعصور القديمة على أية حال لم تكن ترى هذا الرأى • ان شهرة كاليماخوس لا ترجع فى اعتقادى الى موهبته الشعرية — وهى موهبة لا يمــكن انكارها — بقدر ما ترجع الى ما يمثله من أفكار معبرة عن روح العصر ، فهو شاهد على عصره بتعبيرنا السائد هذه الأيام • انه فى نظرىمثل كوليردج أو السير فيليب سيدنى أو جان جاك روسو فى أوربا ، أو مثل عباس العقاد وطه حسين فى حياتنا الثقافية • العبرة اذن ليست بما يؤلفه من أشعار بل بما يمثله من أفكار وبما يضـــعه من قوانين للفن ونظريات للتأليف ، كان فيها صادق الفراسة ملهم البصيرة مستوعبـا لمتطلبات عصره ، متفهما للمتغيرات التى حدثت حوله ومواكبا لها دون تقاعس • من أجل هذه المنزلة وهــذه المكانة التى صار يحتلها ظفــر كاليماخوس بالاعجاب ونال التقدير وحجبت شهرته ما عداه من المعاصرين — الذين قد يكونون أكثر منه ابداعا — وظل المثل الأعلى لأدباءالعصرين الهيلنستى والرومانى على السواء •

ثيوكريتوس :

ولد ثيوكريتوس Theokritos ، أعظـم شعراء الرعاة قاطبة ، حوالى عام ٣١٠ ق•م• فى سراقوسة التى كانت آنذاك أغنى مــدن صقلية وأكبر المدن الاغريقية فى جنوب ايطاليا • ويبـــدو أن أسرة ثيوكريتوس كانت قد نزحت الى صقلية من جريزة قوص التى كانت لها

مستوطنا ، لذلك حين بلغ ثيوكريتوس مبلغ الشباب رجع ثانية الى قوص حيث درس الطب على يد اراستراتوس والأدب على يد فيليتاس ، وغدا مثل هيرونداس عضوا بارزا فى دائرة قوص الأدبية ، وربطته صـلة الصداقة بكل من أسكليبياديس وليونيداس كما يستنتج من ذكره لهما فى النشيد السابع من ديوانه تحت أسماء مستعارة • ومن المحتمل أن ثيوكريتوس قد عاد مرة أخرى الى سراقوسة عام ٢٧٥ ق•م• حيث ألف قصيدة بعنوان ربات البهاء أو هيرون Charites ê Hierôn يمدح فيها راعية هيرون عاهل سراقوسة الذى اختير قائدا عاما لدرء خطر جيوش قرطاجة بعد رحيل بيروس عام ٢٧٨ ق•م• ولكن يبدو أن هذه القصيدة لم تنجح فى كسب عطف هيرون مما حدا بثيوكريتوس الى التوجه الى مدينة الاسكندرية حوالى عام ٢٧٢ ق•م• ، حيث مدح الملك بطلميوس فيلادلفوس بقصـيدة عنوانها أنشودة ثناء على بطلميوس Enkômion eis Ptolemaion ، لاقت هوى فى نفس العاهل الكبير فقرب اليه شاعر الرعاة الذى ظل فى البلاط السكندرى حتى عام ٢٧٠ ق•م• تقريبا [١١٧] • وطوال مدة اقامته فى الاسـكندرية كان ثيوكريتوس على علاقة طيبة بزعيم البرناس السكندرى كاليماخـوس وبباقى شعراء الاسكندرية الآخرين ، حيث ظل بمعبـده عن كافـة الخلافات والصراعات السائدة بينهم آنذاك ولقى الاحترام والحب من الجميع •

ولكن حب ثيوكريتوس للريف وعشقه للحياة البسيطة الهادئة كانا سببا فى جعله يضيق ذرعا بصخب الحياة فى مدينة الاسكندرية وبازدحام طرقاتها ، فسافر من جديد الى أفضل مكان كان يؤثره على ما سواه ، الى جزيرة قوص حيث أمضى بها عدة أعوام قبل ذهابه الى ميليتوس موطن رفيق صباه نيكياس ، وهناك أمضى الحقبة الأخيرة من حياته وألف أناشيده الأيولية الثلاثة • وأقرب تاريخ محتمل لوفاة شاعـر الرعاة الشهير هو عام ٢٦٠ ق•م• ، لأن كافة الاشارات اليه فى المصـادر

القديمة لا تذكر عنه شيئا بعد ذلك التاريخ (١١٨) • وهناك ابجرامة وجدت ضمن ديوان ثيوكريتوس تمدنا ببعض المعلومات عن موطنه وأسرته ، ويحذر فيها شاعرنا من الخلط بينه وبين سمى له من خيوس كان مؤلفا للابجرامات ودون بعض الأعمال فى مجال الريتوريقا (١١٩) :

« انه شخص آخر المنتسب الى خيوس • أما أنا الذى دونت هذه الأشعار (فأدعى) ثيوكريتوس ، أحد مواطنى سراقوسة العديدين ابن براكساجوراس وأمى فيلينا ذائعة الصيت • ولم أدع لنفسى ربة شعر أجنبية » •

ورغم ندرة المعلومات المتاحة لنا عن حياة ثيوكريتوس فقد كان الشاعر السكندرى الوحيد الذى وصلنا ديوانه كاملا عن طريق المخطوطات حيث نسبت اليه ثلاثون قصيدة رعوية تعرف كل منها باسم eidyllion وهى صيغة تصغير من كلمة eidos التى كانت تطلق على أناشيد ~~الشاعر السكندرى الوحيد الذى وصلنا ديوانه كاملا عن طريق المخطوطات~~ eidos harmonias [illegible] تدون فوق كل نشيد • ولقد أصبحت كلمة eidyllion بمثابة اصطلاح يعنى قصيدة قصيرة مستقلة تتحدث عن الحياة الرعوية ، حيث أنها مختصرة عن التعبير الاغريقى eidyllion boukolikon (١٢٠) •

ويمكننا أن نقسم قصائد eidyllia ثيوكريتوس وفقا للموضوع الذى تدور حوله الى سبعة أقسام يضم كل منها القصائد التالية (١٢١):

(١) القصائد الرعوية : ta boukolika

— « ثيرسيس » Thyrsis (الأولى فى الديوان) وتدور حول مساجلة شعرية بطلها الراعى ثيرسيس الصقلى •

— « كوموس » Komos (رقم ٣) وتدور حول الفاتنة أماريلليس التى يقع فى حبها أحد الرعاة .

— « الرعاة » Nomeis (رقم ٤) .

— « رعاة الماعز » Aigopoloi (رقم ٥) .

— « رعاة الماشية » Boukoliastai وعددها ثلاث قصائد : الأولى منا (رقم ٦) عبارة عن حوار بين الراعيين دافنيس وداموبتاس عن قصة حب الكيكلوبس بوليفيموس لعروس البحر جالاتيا ، أما الثانية والثالثة (رقم٨،٩) فعبارة عن حوار بين الراعيين دافنس ومنالكاس.

— « نشيد الحصاد » Thalysia (رقم ٧) حول زيارة الشاعر لمزرعة صديقه فراسيداموس .

—« الحصادون » Theristai (رقم ١٠) وتدور حول الرشيقة بومبيكا التى يهيم بها الراعى باتوس .

— « الكيكلوبس » Kyklôps (رقم ١١) ويصور فيهـا الشاعر الوحش الكاسر بوليفيموس فى صورة راع وديـع رومانسى يذوب عشقا ويتدله فى حب عروس البحر الفاتنة جالاتيا .

(٢) القصائد الوصفية :

ولقد أطلقت عليها هذا الاسم اصطلاحا لأنها لا تدور حـول موضوعات رعوية صرفة ، ولأن معظمها يدور حول وصف حالة المحبين والعشاق المتيمين . ولقد أدرجت معها ثلاث قصائد يرى النقاد أنهـا ليست من تأليف ثيوكريتوس بل دست فى ديوانه نظرا للتشابه الشديد بينها وبين أعماله فى الأسلوب :

ـ « الأثير = المحبوب » Aïtês (رقم ١٢) وتدور حـول موضوع عشق الغلمان erôs Paidikos .

ـ « اروس سارق العسل » (رقم ١٩) وتحكى قصة اروس الطفل العابث الذى أقدم على سرقة العسل فلدغته نحلة ، وعندما ذهب لوالدته أفروديتى يئن ويتوجـع أخبرته بأن وخـزاته للقلوب أنكى وأشد .

ـ وتحكى القصيدة (رقم ٢٠) قصة راع يقع فى حب محظية قادمة من المدينة ولكن حبه لها يذهب هباء .

ـ « الصيادون » Halieis (رقم ٢١) وهى من القصائد الثلاث المنسوبة لشاعرنا ، وتصور لنا حياة اثنين من الصيادين التعساء يعيشان فى فقر مدقع ، ويحلم أحدهما بأنه صاد سمكة ذهبية ولكن الثانى يجعله يصحو من أحلامه ليفتح عينيه على الواقع المرير . وينسب النقاد هذه القصيدة الى الشاعر ليونيداس الذى تفوق وبز جميع شعراء عصره فى وصف الحياة الفقيرة البسيطة .

ـ « العاشق » Erastês (رقم ٢٣) وتحكى قصة غلام جميل تسبب بقسوته وتحجر مشاعره فى دفع عاشقه للانتحار ، وبينما كان الغلام فى حمام السباحة سقط فوقه تمثال الاله اروس فقضى عليه .

ـ « هيراكليس قاتل الأسد » Hêraklês Leontophonos (رقم ٢٥) وهى أيضا من القصائد المنسوبة لثيوكريتوس ، وهى تحكى مغامرات هيراكليس فى تنظيف حظائر أوجياس وقتله لأسد نيميا . ويمكن اعتبارها مليحمة تحمل مواصفات العصر المتعارف عليها ولا يكون التركيز فيها على البطولة بقدر ما هو على الأحداث المألوفة .

— « عابدات باخوس أو المجذوبات » Bakchai ê Lênai (رقم ٢٦) وتدور حـول مصرع الملك بنثيوس على يد عابدات الاله باخوس بسبب انكار هذا الملك لربوبية الاله •

— « المناجاة » Oaristys (رقم ٢٧) وهى محاورة ممتعة بين أحد الرعاة وفتاة ريفية عذراء ما تلبث بعده أن تصبح فريسة لتغريره بها • وهذه هى ثالثة القصائد المنسوبة الى شاعرنا ثيوكريتوس •

(٣) القصائد الدرامية mimoi :

— « الســيراكوسـيات أو المحتفـلات بـأدونيـس » Syrakosiai ê Adôniazousai (رقم ١٥) وهى تحكى قصة سيدتين ذهبتا لمشاهدة الاحتفال بالاله أدونيس فى القصر الملكى بمدينة الاسكندرية• وتحتوى على حوار شيق ومـواقف واقعية ورسم درامى ممتـاز للشخصيات •

— « سيمايثا أو الساحرة » Symaitha ê Pharmakeutria (رقم ٢) وتدور حول امرأة وقعت فى حب شاب رياضى ما لبث أن هجرها ، فلجأت الى فنون السحر من اجل استعادته •

— « حب كينيسكا » Kyniskas erôs (رقم ١٤) وهى عبارة عن قصةحب بين فتاة تدعىكينيسكا وشاب يسمى أيسخينيس، ويكشف الأخير أن فتاته تحب سواه فتثور ثائرته ويعاقبها ولكنه لا يشفى من حبها فينصحه أصدقاؤه بالالتحاق بجيش العاهل فيلادلفوس •

(٤) القصائد الأيولية ta Aiolika :

— « المغزل » Alakata (باللهجة الأتيكية êlakatê) (رقم ٢٨) وهى قصيدة مرفقة مـع مغزل أرسله الشاعر كهـدية الى ثيوجنيس Theugenis ، زوجة صديقه الحميم نيكياس •

— القصديتان (رقم ۲۹ ، ۳۰) عن عشق الغلمان ، وهو موضوع شائع فى أشعار ذلك العصر .

— شذرات متبقية من القصيدة (رقم ۳۱) وهى منظومة باللهجة الأيولية أيضا .

— « المزمار » Syrinx وهى منظومة على شكل مزمار وتنتمى الى فن القصائد المعروفة باسم Tèchnopaignia ، أى الأشعار المصورة التى برع فى نظمها الشاعر سيمياس الرودى .

(٥) الملحمات : ta epyllia :

والمليحمة هى صيغة التصغير epyllion من كلمة ملحمة ta epê (مفردها to epos) وكانت عبارة عن قصيدة قصيرة نسبيا على نمط الملاحم تتناول موضوعات مستمدة من الأساطير ويتم تطويعها وتحويرها بحيث تناسب اتجاهات العصر السكندرى وخصائصه فى التأليف . ولقد سبق أن تعرضنا لمليحمة « هيكالى » التى نظمها كاليماخوس . ولقد نظم ثيوكريتوس أربع مليحمات هى :

— « هيلاس » Hylas (رقم ۱۳) وتحكى قصة خطف الحوريات للشاب الجميل هيلاس رفيق هيراكليس ، وحزن البطل عليه لدرجة الجنون . وموضوعها فيما يبدو مقتبس من ملحمة « الأرجونارتيكا « لأبوللونيوس .

« هيلينى » Helenê (رقم ۱۸) عن زفاف جميلة الجميلات هيلينى .

— « ابنا زيوس » Dioskouroi (رقم ۲۲) عن مباراة للملاكمة بين بوليديوكيس وأميكوس ، ومصارعة بين كاستور ولينكيوس . وهذه هى أطول المليحمات الأربع رغم أنها أقرب للنشيد منها لطابع المليحمة.

ــ « هيراكليس الطفل » Hêrakliskos (رقم ٢٤) عن الأفاعى التى أرسلتها هيرا للفتك بالطفل هيراكليس فى مهده ، ولكنه يقــوم بقتلها كأول عمل بطولى له • ويركز الشاعر بصفة خاصة على جوانب الحياة المألوفة ويميل لرسم الواقع ويجرد الأسطورة من كل مظاهر البطولة •

(٦) قصائد المـديح : ta enkômia :

ــ « ربات البهاء أو هييرون » Charites ê Hierôn (رقم ١٦) فى مدح عاهل سراقوسة •

ــ « الثنــاء على بطليموس » Enkômion eis Ptolemaion (رقم ١٧) فى مدح العاهل فيلادلفوس •

(٧) الابجرامات : ta epigrammata :

وعددها ثلاث وعشرون ابجرامة فى الأنثولوجية •

وتعتبر القصائد الرعوية أكثر انتاج ثيوكريتوس أصــالة واليها تعزى شهرته قديما وحديثا ؛ اذ لم يكن الاطار الرعوى لديه مجــرد وسيلة مقحمة على الموضوع ليعبر بها عن معان أخرى كما كان يفعل غيره من المقلدين ؛ بل كانت شخصيات قصائده فعلا من الرعاة الحقيقيين الذين ينشدون أغان رعوية سمعها الشاعر بنفسه فى مروج الرعاة ، وكانت مناظر قصائده رعوية حقيقية عاينها بنفسه سواء فى صقلية أم فى جزيرة قوص حيث عاش شبابه وكهولته • لقــد كان ثيوكريتوس محاكيا صادقا وأمينا للطبيعة التى نشأ فيها وترعرع بين أحضانها ، على حين كان الشعراء الآخرون الذين نظموا شعرا رعويا ســواء من الاغريق أم الرومان مجرد مقلدين له ، لأنهم ابتعدوا كثيرا عن الصدق

ولأنهم لم يصفوا من الطبيعة ما شاهدوه بل ما قرأوه أو سمعوا عنه فأصبح شعرهم جافا متكلفا لا روح فيه (١٣٢) •

ان شعر الرعاة كما صاغه ثيوكريتوس كان تعبيرا عن حاجة ملحة أحس بها أبناء العصر السكندرى الذين ضاقوا ذرعا بالحياة فى المدن الكبرى وأحسوا بصخبها وضجيجها ، فأحبوا الريف وتاقوا للحياة البسيطة وحسدوا الرعاة على حريتهم وانطلاقهم • وهذا هو الذى جعل لشعر الرعاة كما صاغه ثيوكريتوس قيمة وخلودا: فعلى حين نشعر ونحن نتلو أشعار ثيوكريتوس بأننا انتقلنا الى عالم من الرعاة الحقيقيين ، نحس ونحن نقرأ قصائد مقلديه أن عالم رعاتهم ليس عالما واقعيا بل عالما مقترحا من صنع الخيال وأن رعاتهم لا يتحدثون بلغة الرعاة ولا بأفكار الرعاة بل ينطقون بلغة وأفكار الشاعر نفسه • وشتان بين عالم للرعاة حاكاه ثيوكريتوس محاكاة واقعية بنظرة الفنان المبدع وبصيرته وعالم نقله المقلدون عن أشعار ثيوكريتوس ودسوا فيه مناظر بعيدة عن الاقناع وأفكارا لا تستند الى الواقع (١٣٣) •

وتدور أول قصائد ثيوكريتوس الرعوية حول راع يسمى ثيرسيس يقابل راعيا للماعز ويتحدى كل منهما الآخر فى الانشاد : فينشد راعى الماعز أنشودة يصف فيها كأسا منحوتة من الخشب صورت عليها مناظر عديدة ، منها منظر صائد السمك الذى يطرح شبكته للصيد ومنظر صبى يطرد الثعالب حتى لا تنزل الضرر بالكروم • أما ثيرسيس فيرد عليه بأنشودة عن أسطورة الراعى الشهير دافنس ، وهى أنشودة مكونة من عدة فقرات يفصل بينها بيت متكرر كمذهب ، وفى النصف الأول من القصيدة نجد البيت على النحو التالى :

archete boukolikas, Moisai philai, archet' aoidas.

« ابدأن ، أى ربات الشعر الحبيبات ، ابدأن انشاد الأغنية الرعوية » •

أما فى النصف الثانى من القصيدة فيتغير المذهب ليصبح هكذا :
lêgete boukolikas Moisai, ite lêget' aoidas.

« هلمى ربات الشعر ، هلم توقفن عن انشاد الأغنية الرعوية ».

وهذا الترديد المذهبى كان خاصية من خصائص الشعر الصقلى الذى نقل عنه ثيوكريتوس ، وكان شائعا فى مسرحيات أيسخيلوس وأرستوفانيس ، كما نجده عند مقلدى ثيوكريتوس الشاعرين موسخوس وبيون ، وعند الرومان فى شعر كل من فرجيليوس وكاتوللوس . ونورد هنا فقرتين على قدر من الطول من هذه القصيدة ، الأولى منهما تتضمن أنشودة راعى الماعز التى يصف فيها الكأس (١٣٤) :

« راعى الماعز : وعلى حواف (الكأس) من أعلى يلتف اللبلاب الموشى بثمار التوت الذهبية ، ويلتف معه المحلاق الذى يبهج (النفس) بثمرته الزعفرانية . وبالداخل رسمت (صورة) امرأة وكان الالهة هى التى أبدعت صورتها : يلفها ازار وبشريط تلف (شعرها) . ومن حولها يقف رجلان شعرهما طويل وجميل ، يتعاركان وكل منهما يحادث الآخر . غير أنها لا تلقى بالا لما يقومان به من تصرفات ، مكتفية بالنظر لبرهة الى أحدهما وتبتسم ، ثم تصرف انتباهها عنه الى زميله . فى الوقت الذى كان كل منهما يقاتل زميله عبثا ، وقد غارت عيونهما من فرط الرغبة والاشتهاء . وعلى مقربة من هؤلاء كان هناك صياد عجوز وصخرة وعرة يقف فوقها الرجل المسن وهو يطوى شبكته الكبيرة بحماس استعدادا لطرحها من جديد ، وهو يبذل أقصى جهد يمكن لانسان أن يقوم به . حتى أنه ليمكنك القول بأن الرجل كان يصطاد بكل ما تملك أطرافه من قوة : اذ برزت عروق رقبته وغدت نافرة منتفخة . ورغم أنه كان عجوزا قد وخط الشيب شعره الا أن قوته كانت تماثل قوة الشباب . وعلى بعد قليل من ذلك العجوز الذى أنهكه البحر كانت هناك كرمة عنب تتدلى عناقيدها الوردية ، وثمة صبى صغير يجلس على حجر صلب يقوم على حراستها . وكانت تحوم حوله ثعلبتان احداهما تجوس بين صفوف

الشجيرات جيئة وذهابا ملتهمة ما نضج من ثمار العنب ، على حين كانت الأخرى تستخدم كل ما فى جعبتها من حيلة كى تستأثر بما فى حقيبة الصبى : وكأنها أخذت على نفسها عهدا ألا تدع الصبى حتى تستولى على طعام افطاره • أما الصبى فكان منهمكا فى جدل سلة بديعة يزاوج فيها بين عيدان السمار وعيدان البرواق ، وكان يمارس عمله فى جذل وانشراح فلم يلتفت الى أعنابه ولم يلق بالا الى حقيبته • وفى كل مكان حول الكأس كان الأقذثوس المتهدل منثورا • انه لكذس رائع أسر الناظرين ويدهش لمرآه راعى الماعز ، وانه لأعجوبة تذهل النفس وتحير الفؤاد » •

أما الفقرة الثانية من القصيدة فتشتمل على طرف من أنشـودة ثيرسيس عن الراعى الأسطورى دافنس وعن موته الذى حزنت من أجله القطعان والمراعى وربات الشعر [١٢٥] •

« ثيوسيس : بان ، أى بان ! سـواء كنت فـوق تـلال ليكايوس المرتفعة ، أو كنت تتطلع الى ماينالوس العظيم ، فتعال الى جـزيرة صقلية واترك قمة جبل هيليكى وضريح ابن ليكاؤن شديد الانحدار ، الذى كان يغتبط به حتى الآلهة المباركون » •

هلمى ربات الشعر ، هلم توقفن عن انشاد الأغنية الرعوية •

« وأنت يا مولاى (بان) ، تعال وخذ هذا المزمار المعطر بعسـل مصفى من شمعه السميك والموثق بأحكام عند شفته البديعة ، لأننى الآن أهبط الى هاديس بسبب العشق » •

هلمى ربات الشعر ، هلم توقفن عن انشاد الأغنية الرعوية •

« والآن يانبات العليق المتسلق ليتك تزهر بنفسجا ، ويا ليتك أنت أيضا أيها العوسج تحمل أزهار البنفسج ! ليت زهور النرجس الخلابة

تنبت فوق شجر العرعر ! ليت كل شيء يتغير وياليت أشجار الصنوبر تثمر كمثرى ، لأن دافنس يحتضر • ليت الأيل يمزق كلاب الصيد اربا وليت البوم القاطنة فى الجبال تنافس فى الشدو العنادل » •

هلمى ربات الشعر ، هلم توقفن عن انشاد الأغنية الرعوية •

« ما أكثر ما تحدث (دافنس) قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ! وكم تمنت أفروديتى أن تجعله ينهض من جديد ، ولكن ربات القدر كن قد أتممن غزل خيط عمره ، ورحل دافنس مع مياه نهر (الأخيرون) وغطت الميـــاه جسد ذلك الرجل الذى أحبته الموسيات ولم تبغضـــه عرائس البحر » •

هلمى ربات الشعر ، هلم توقفن عن انشاد القصيدة الرعوية • »

وفى القصيدة الثالثة من ديوان ثيوكريتوس نجد راعيا للغنم يترك قطيعه ويتوجه الى كهف تعيش فيه الفاتنة أماريلليس **Amaryllis** محاولا كسب ودها بأغانيه الناجية ، فلما وجد منها عزوفا وصدا صاح متألما [١٣٦] : « أواه ! ان أنشد بعد الآن بل سأسقط من فورى سريعا فى هذا المكان ، وسأدع الذهاب تلتهمنى وليكن موتى أيتها القاســية كالشهد الحلو فى فمك » • فهل كان تهديده بذى أثر على تلك الفاتنة ؟ أغلب الظن أنها كانت تستمع له بعدم اكتراث لعلمها بأن تهديده لن يخرج الى حيز التنفيذ ، ولأن العواطف لا تفرض بالقوة أو التلويح بالخوف ، ولأن الحب من طرف واحد لا يجدى ولا يدوم • أما قصيدة الكيكلوبس فتصور وحشا كاسرا — كانت أوصافه فى الأوديسية تكفى لبث الذعر فى النفوس — يقع فى حب عروس البحر الفاتنة جالاتيا ، ورغم دمامته المفرطة نجده ينشدها أشعارا تفيض رقة وعذوبة ، ويظل ساعات طويلة منتظرا ظهورها بين الأمواج لكى يظفر منها بنظرة تشفى قلبه الولهان ويتغزل فى محاسنها ويطويها ويمنيها بالأمانى ، ومثـــل أى عاشق رومانسى يحدثنا كثيرا عن عشقه لتلك الفاتنة •

وفى القصيدة العاشرة يدافع باتوس عن حبه للفتاة الرشـيقة بومبيكا التى شغلته عن ممارسة الحصاد وعن انشاد أغنيات الحصـاد مع زميله ذى الجثة الضخمة والقلب الطيب ، والذى لا يكترث بالحب قدر اهتمامه بالعمل والانشاد • وهذه فقرة من القصيدة يتغزل فيهـا العاشق باتوس فى محاسن محبوبته بومبيكا Bombyka ، وهـو يراها بعين العاشق الولهان التى ترى كل شىء جميلا ويترك لخياله ألعنان ليحلق ويرسم صورة المستقبل المشرق مع الفتـاة التى هفا اليهـا فؤاده [١٣٧] :

« باتوس : أى ربات الشعر البيرينية : تغنى معى بالفتاة الهيفاء ، لأنكن اينتها الربات ، تضفين الجمال على كل ما تلمسنه • أى بومبيكا الرشيقة ، الكل يسمونك السورية النحيفة التى لوحتها أشعة الشمس وأنا وحدى الذى أراك ذهبية كالعسل • ان زهرة البنفسج داكنة ومثلها زهرة الياسمنت الملونة ومع ذلك فهما دون جدال أول زهور ننتقيها للباقة أو الاكليل • ان العنز تتبع البرسيم المزهـر ، والذئب يتبع العنز ، والغرنوق يتبع المحراث، أما أنا فقد جننتبك وهمت حبا • أتمنى لوكانت عندى الثروة التى يقولون ان كرويسوس امتلكها فيما مضى! اذن لغدونا كلانا ذهبا مقدما كنذر الى الربة أفروديتى : انت تمسـكين بمزاميرك وبيدك وردة أو تفاحة ، وأنا أرتدى ملابس قشيبة وأضع كلتا قدمـى فى أحذية جددية من اميكلاى • أى بومبيكا الرشيقة ، ان قدميك مثل السلاميات وصونك به بحة محببة وطريقتك فى التصرف تستعصى على الوصف » •

وفى قصيدة « عيد الحصاد » يعمد ثيوكريتوس الى اتخاذ الرعاة نماذج يخفى خلفها شخصيات أصدقائه وزملائه من الشعراء : فهو يسمى نفسه سميخيداس Simichidas ويسمى أسكليبياديس باسم سيكيليداس Sikelidas ، وربما يشير باسم ليكيداس Lykidas الى صديقه هيرونداس أو الى الشاعر ليونيداس ، أما فيليتاس فقد

ذكره دون اسم مستعار • وفى الجزء الأول من القصيدة يصف لنا كيف توجه مع صديق له يدعى يوكريتوس Eukritos الى مزرعة صديقهما فراسيداموس Phrasidamos الذى كان يقيم احتفالا ووليمة بمناسبة عيد الحصاد • ثم يروى لنا كيف قابل فى الطريق الى المزرعة الراعى ليكيداس الذى لا يباريه أحد فى العزف على الناى ويدوربينهما حوار طريف عن الانشاد الرعوى (١٢٨) :

« فيما مضى كان هناك وقت اعتدنا فيه على الذهاب من المدينة الى هاليس : أنا (سميخيداس) ويوكريتوس ومعنا ثالثنا أمينتاس Amyntas • ففى ذلك الوقت كان فراسيداموس وأنتجينيس يقدمان من محصولهما قربانا الى الربة ديو (=ديميتر) — وهما ولدا ليكوبيوس النبيل ، لو كان هناك نبل بين البشر المنحدرين من أصل عريق — حيث أنه ينحدر من سلالة كليتيا وخالكون ذاته ، الرجل الذى ضغط بركبتيه على الصخرة فانثال منها نبع بورينا تحت قدمه • وبجوار هذا (النبع) نسجت أشجار الحور وأشجار الدردار غابة ظليلة مقدسة ، تشكلت أوراقها الخضراء من أعلى على صورة قوس سميك •

وقبل أن نبلغ منتصف الطريق أو نلمح قبر براسيلاس التقينا — والفضل فى ذلك يرجع الى الموسيات — بمسافر من كيدونيا وهو رجل فاضل اسمه ليكيداس كان يعمل راعيا للماعز ، من يراه لا يمكن ان يخطئه لأنه يبدو تماما مثل راعى الماعز : فعلى كتفيه كان يضع جلد عنز أعفر غزير الشعر خشن الوبر تنبعث منه رائحة الانفوحة قوية نفاذة ، وحول صدره يلتف ازار قديم ذو زنار عريض ، وكان يمسك بيده اليمنى عصا معقوفة من خشب شجرة الزيتون البرية • وبابتسامة هادئة ووميض لاح فى عينيه تحدث الى والضحكة ترتسم على شفتيه قائلا : « أى سميخيداس ، الى أين تتوجه سيرا على قدميك فى منتصف النهار ، الوقت الذى تهجع فيه حتى السحالى فى شقوق الجدران وتكف فيه حتى القنابر التى ترتاد المقابر عن الطيران ؟ هل تحث الخطى مسرعا

الى وليمة لم تدع اليها ؟ أم تهرع الى معصرة نبيذ لأحد المواطنين ؟ ذلك أن الحصى تحت نعليك تتناثر وتدور وتصدر صوتا كالموسيقى أثناء سيرك » • فأجبته قائلا :

« أى صديقى ليكيداس ، ان الناس جميعهم يقولون انك أعظم عازف على الناى قاطبة بين الرعاة والحصادين ، وهذا أمر يثلج صدرى لدرجة كبيرة ،ومع ذلك يدور بخلدى ويخيل الى أننى نظيرك فى المقدرة• اننى ذاهب فى رحلتى هذه الى عيد الحصاد فان أصدقائى يقيمون احتفالا للربة ديميتر ذات الاردية الجميلة ، يقدمون فيها باكورة ثمار محصولاتهم قربانا لها حيث أن الربة كدست الشعير لأقصى درجة فى مخازن غلالهم • لكن هيا معى نتقاسم يومنا هذا ورحلتنا هذه : فأنا أيضا صوت ربة الشعر الواضح ولسان حالها والكل كذلك يسموننى افضل المنشدين ، ولكنى وحق زيوس لست مقتنعا بما يقولون • ذلك أنه لم يدر بخلدى أننى سأتفوق بانشادى على سيكيليداس العظيم من ساموس أو على فيليتاس ، والا سأكون مثل ضفدعة تنافس زيزان الحصاد »•

وفى الجزء الأخير من الفقرة السابقة نشعر بتواضع ثيوكريتوس واحساسه بالاحترام والتوقير نحو جيل الرواد من الشعراء الذين سبقوه فى نظم الشعر • وفى الجزء التالى من قصيدة « عيد الحصاد » يصرح ثيوكريتوس برأيه فى المشاحنة الأدبية التى كانت سائدة على أيامه والتى كان قطباها كاليماخوس وأبولونيوس الرودى • ويتضح لنا من رأيه أنه ينضم لجانب كاليماخوس حيث أنه يعتبر تقليد هوميروس ضربا من الجنون ، فهو عندليب ساحر الصوت أما مقلدوه فليسوا سوى ديكة تصيح أو عصافير تزقزق (١٢٩) :

« هكذا تحدثت عن قصد ، أما راعى الماعز فقد أجابنى وابتسامة حلوة ترتسم على شفتيه : «سوف أمنحك عصاى لأنك شاب فطر مزيوس على سرد كل ما هو حقيقى • اننى أكره بوجه خاص البناء الذى يحاول

أن يرفع صرح بيت أكثر ارتفاعا من قمة جبل أوروميدون ، وأمقتطيور رباتالشعر التى تضيع جهدهاسدى فتصيح كالديكة فيمواجهة عندليب خيوس الصداح (= هوميروس) • والآن هيا ياسميخيداس ، دعنا نبدأ فى الحال الأنشودة الرعوية ، وفيما يتعلق بى ، يا عزيزى — لو كان هذا يروقك — فسوف أنشد هذه الأنشودة القصيرة التى انتهيت أخيرا من تأليفها فوق الجبل » •

ويمضى ليكيداس فى انشاد قصيدته الرعوية التى تبدأ برحلة أجياناكس الى ميتيلنى ، وهو غلام مليح يهيم به الراعى حبا • ويمضى بعد ذلك فيسرد طرفا من قصة الراعى المقدس دافنس الذى أنقـذته الميليسيات كاهنات دلفى من حقد الملك الشرير الذى حبسه فى صندوق مغلق كى يهلك ، وكذلك الراعى المبارك كوماتاس الذى تعرض لمصـير مماثل وتم انقاذه بنفس الطريقة (١٣٠) :

« •••• وسوف ينشد لى راعيان أحدهما من أخارناى والآخر من ليكوبى • وبجوارى سوف ينشد تيتروس كيف أحب الراعى دافنس ذات مرة اكسينيا ، وكيف تألمت من أجله الجبال وبكت أشجار البلوط التى تنمو على ضفاف نهر هيميرا وهو يذوى ويذوب مثل الثلج الذى ينصهر تحت جبل هايموس الشاهق أو جبل رودوبى أو جبل كاوكاسوس القاصى • ولسوف ينشد أيضا كيف أن ذلك الراعى قد وضع ذات مرة حيا فى صندوق عريض بسبب حقد الملك وشره ، وكيف أن الميليسيات (= كاهنات دلفى) ذوات الزبانالمؤلوم قن جئن من المروج الىالصندوق المصنوع من خشب الأرز ذى الرائحة العطرة وقمن بتغذيته بالأزهار الرقيقة، بذلك سكبت ربة الشعر النكتار الحلو فى فمه • آه ياكوماتاس المبارك ، لقد خبرت مثل هذه المباهج فأنت أيضا قد حبست فى صندوق وأنتأيضا تغذيت علىأقراصالعسلوقاسيتماقاسيت خلالربيع العام• انى أتمنى لو كنت فى عداد الأحياء فى عصرى ! اذن لقمت برعى عنزاتك الجميلة فوق الجبل بينما أصغى الى صوتك العذب الذى تشدو به وأنت

مستلق ، أى كوماتاس المقدس ، تحت أشجار البلوط أو أشـــجار الصنوبر » •

أما سميخيداس فيبــدأ بدوره أنشــاد أغنية شائقة عن صديقه أراتوس الذى أحب غلاما جميلا يدعى فيلينوس ، ولقد تعذب أراتوس واكتوى بالعشق حتى أنه كان يظل طوال الليل ملازما باب منزله متحملا البرودة والصقيع بينما الغلام لا يكترث بمشاعره ولا يلقى اليه بالا • ورغم أن هذا موضوع متكرر قد طرق مرارا على يد شعراء آخرين وعلى يد ثيوكريتوس نفسه ، الا أن موهبة شاعرنا تتجلى فى مقدرته المدهشة على اضفاء الحيوية على هذا الموضوع المستهلك بوصفه الرعوى الممتع وصوره الرائعة المستمدة من الطبيعة • وهو لا يجعل الملل يتسرب أبدا الى نفوسنا لأنه يبث فى كل فقرة ما يدهشنا وينتقل بين المشــاهد والأشخاص بطريقة درامية أخاذة تشهد له بالتفوق والامتياز [١٣١] :

« لقد تحدث وأسهب فى الحديث حتى انتهى ، ومن بعده تبعته أنا بهذه الكلمات : « أى صديقى ليكيداس ، لقد علمتنى الحوريات أيضا أناشيد كثيرة ورائعة غير هذه حينما كنت أرعى قطيعى فوق التلال ، ولربما بلغ من شهرة هذه الأناشيد أنها كما روى عنها قد وصلت حتى عرش زيوس • لكن هذا النشيد الذى سأبدأ به الآن كى أسبغ عليك آيات التكريم هو أفضلها على الاطلاق • استمع اذن (اليه) يا من تحظى بصداقة الموسيات :

« لقد شمل أرباب الحب سميخيداس برعايتهم لأنه وهو الرجل الفقير أحب ميرتو بنفس الاعزاز الذى كانت تكنه العنزات لفصــــل الربيع • غير أن أراتوس ، أعز الناس الى قلب هذا الرجل فى كل أمر كانت تتأجج فى أعماق فؤاده رغبة جامحة تجاه غلام • وعلم بذلك أرستيس — وهو رجل من صفوة الناس وأفضل فضــلائهم ولم يكن فويبوس نفسه بمقعده ثلاثى الأرجل ليبدى اعتراضا على شدوه بأنغام

القيثارة — لقد علم (أرستيس) حق العلم أن أراتوس يكتوى حتى العظام عشقا لغلام • أى بان ، يا من منح لك سهل هومولى البديع ، ألا فلتضعه (أى الغلام) دون أن ندعوك بين ذراعى صديقى وليكن هذا (الغلام) هو فيلينوس الرقيق أو سواه • ولو أسديت لنا هـذا الصنيع ، أى بان العزيز ، فليت الشبان الأركاديون لا يجلدونك أبدا بفروع العنصلان فوق خاصرتيك وكتفيك عندما لا يجدون سوى مقدار ضئيل من اللحم • لكنك ان أمرت بغير ذلك فليتك تعض نفسك وتخمش كل جزء من جسمك بأظافرك ، وليتك تنام فوق نبات القراص(الشائك) وليتك تجد نفسك فى زمهرير الشتاء فوق ذرى جبال ادوينا منحرفا باتجاه نهر هيبروس بجوار القطب ، وليتك فى قيظ الصيف تقود قطيعك فى أرض اثيوبيا القاصية تحت صخرة بليميس التى لا يرى النيل من بعدها • وأنتم يا أرباب الحب يا من توردت وجناتكم بلون التفاح ، اتركوا مجرى هيتيس العذب ومجرى بيبليس وأويكوس ، ذلك المقر المنحدر لديونى شقراء الشعر ، ومن أجلى اجرحوا بسهامكم فيلينوس الجذاب ، اجرحوه فذلك النكد الطالع قد تجرد من الشفقة على صديقى • وفى الحقيقة أنه صار أنضج من ثمرة الكمثرى حتى أن النسـوة كن يصحن قائلين : « آه يا فيلينوس ، ان أزهارك البديعة تتساقط » • كفى يا أراتوس ! كفانا ملازمة لباب منزله فليس لنا أن نبلى أقدامنا أكثر من هذا ، ودع ديك الصباح بأذانه يسلم صقيع الفجر الذى يجمـد الأطراف لشخص سوانا • أى صديقى ، دع مولون القادم من مدرسة المصارعة يشنق نفسه ولننعم نحن بالأمن والطمأنينة ، واجعل عجوزا شمطاء تأتى وتبصق فتطرد بعيدا كل ما هو كريه » • »

وفى نهاية قصيدة « عيد الحصاد يمتعنا ثيوكريتوس بوصف رائع للمزرعة التى توجه اليها سميخيداس ورفيقـه ، ونحن لا نملك ازاء الصورة الجميلة التى يرسمها لنا الشاعر عن الريف سوى أن نقع أسرى

ذلك الجمال الريفى والسحر الذى يخلب الألباب • فشـــاعرنا عاشق للريف مولع بحياة الخلاء محب للرعاة وهو قادر على أن ينقل الينا دوما احساسه بما فى تلك الحياة الرقيقة من متعة للنفس وبهجة للعين ، وان الفقرة التالية لتشهد بأن ثيوكريتوس هو شاعر الرعاة دون منازع وأنه لا يوجد شاعر آخر يســتطيع أن يباريه أو يدانيه فى هـــذا المجال (١٣٢) :

« ما أكثر ما تحدث ، أما ليكيداس فقد ضحك بعذوبة كما فعل من قبل ثم أعطانى العصا التى يرعى بها كدليل على صداقتنا المشتركة لربات الشعر • بعدها استدار ناحية اليسار وسار فى الطريق المؤدى الى بيكسا ، على حين يمكث أنا ويوكريتوس والوسيم أمينتخوس صوب مزرعة فراسيداموس • وهناك استلقينا بسعادة فوق الوسائد الوثيرة المجدولة من السمار البديع والمغطاة بأوراق العنب المقطوفة حديثا • كانت أشجار الحور والدردار تميل بهاماتها الباسقة فوق رؤوســنا ، وبالقرب منا كانت المياه المقدسة المنحدرة من كهف الحوريات تبعث خريرا موسيقيا وهى تنساب من أعلى • وعلى الأغصان المورقة الظليلة كانت الزيزان الداكنة منهمكة فى العزف دون توقف ، والبوم تنعق من بعيد فوق العوسج والأشواك الكثيفة • بينما كانت القنابر تصدح والشراشر تشدو والحمائم المطوقة تمضى فى الهديل والنحل الأصفر يئز حـول الينابيع •

كان كل شىء يفوح بعبق الحصاد الوفير والثمر الناضج الوفير : اذ كانت ثمرات الكمثرى تتدحرج بأعداد كبيرة تحت أقدامنا والتفاح يتساقط بجوارنا ، على حين كانت الأغصان المحملة بثمار البرقوق تكاد تلمس الأرض من ثقلها • ومن ثم قمنا بفض أختام دنان الخمر التى مضى على عصرها سنوات أربع • أى حوريات كاستاليا ، يا من ترتدن جبل بارناسوس المنحدر ، أكان كأس خمر مثل هذا ذلك الذى وضعه خيرون أمام هيراكليس فى كهف فولوس الصخرى ؟ وهل كان رحيقا مثل هذا

النكتار هو الذى دفع ذلك الراعى عند أنابوس الى ان يرقص طربافى حظيرة أغنامه ، وهو الجبار بوليفيموس الذى رشق السفن بكتل من صخر الجبل المسنن ؟ أو كان النكتار الذى قمتن بمزجه ، أيتها الحوريات ، يماثل الرحيق المصفى الذى شربناه ذلك اليوم عند مذبح ديميتر ربة الحصاد ؟ ألا ليتنى أغرس من جديد مذراتها الضخمة فوق كثيب القمح بينما ترسل ببسماتها الينا وهى تمسك فى كلتا يديها حزما من المحاصيل ومن نبات الخشخاش » .

ورغم أن المليحمات الأربع ليست فى جمال رعوياته الا أنها تعكس روح ثيوكريتوس الملهمة وتلقائيته التى ميزت كل ما أنتجته قريحته من أشعار : ففى مليحمة « هيلينى » يصف الشاعر عرس الجميلة الفاتنة هيلينى ، والمليحمة تكاد تكون نشيد زفاف تقوم بانشاده فتيات اسبرطة ابتهاجا بزفاف العروسين هيلينى ومنيلاؤوس. أما فى مليحمة « هيراكليس الطفل » فيصف لنا ثيوكريتوس كيف قتل هيراكليس — وهن لم يزل بعد طفلا رضيعا فى مهده — الأفاعى التى أرسلتها الربة هيرا للفتك به . ولكن يبدو أن مثل هذا العمل البطولى لم يستهوه أو يظفر باهتمامه بقدر ما استهوته تفاصيل الحياة اليومية التى تعبر عن نزعته الواقعية . فالبطولة عنده — وأيضا عند سائر شعراء العصر السكندرى — ليست سوى اطارا يحوى وصفا مألوفا لحياة البطل العادية التى تجعله مثل سائر البشر . ويبدو هذا واضحا منذ البيت الأول فى المليحمة (١٣٣) :

« حينما كان هيراكليس فى شهره العاشر حملته أمه ألكمينى مع أخيه افيكليس وأعطتهما حماما وأرضعتهما ثم أرقدتهما متجاورين فى ترس من البرونز وربتت على رأسيهما قائلة : « ألا فليداعب النـــوم اللذيذ أجفانكما ، يا أعزائى الصغار » . وبعد أن قالت هذا أخــذت تهدهدهما فى الترس الضخم حتى راحا فى سبات عميق » .

ان ألكمينى فى هذه الأبيات تبدو مثل أية أم عادية ترعى أطفالها ،

وهيراكليس مثل أى طفل آخر : فرغبة الشاعر هى أن يجرد البطولة من محتواها التقليدى ويعرض علينا الجانب الواقعى من حياة الأبطال ، وربما لم تكن بطولة العصور الغابرة القائمة على القوة الجسديةوحدها تكفى لاقناعه بعرضها. أو سردها على جمهور لم يعد يؤمن بها أو يولع بسماعها ، ولكن هذا موضوع سوف نناقشه تفصيلا فيما بعد • وفى مليحمة هيلاس يبلور الشاعر أحد مناظر ملحمة الأرجوناوتيكا فى موضوع قائم بذاته ، وهو المنظر الذى لقى فيه خليل هيراكليس مصيره المفجع غرقا على يد الحوريات ، وكان لهذه المليحمة أثر كبير على الشـــاعر الرومانى بروبرتيوس الذى عالج نفس القصة بتفوق فى قصـــائده الغنائية • أما مليحمة « ابنا زيوس » المؤلفة فى مائتى بيت فتصف نزالين : أولهما ملاكمة بين بوليديوكس وأميكوس حاكاها فرجيليوس فى الكتاب الخامس من الأينيدة ، والثانى عبارة عن مصارعة بين كاستور واينكيوس •

أما القصيدتان اللتان ألفهما ثيوكريتوس لمدح كل من العاهلين هييرون وفيلادلفوس فخاليتان من التدفق الشعرى الذى يميز أشعاره الأخرى ، اذ يغلب عليهما التكلف وتسودهما الصنعة وتزخران بالملق الممجوج • ويدفعنا هذا الى الاعتقاد بأن شاعرنا لم يكن من محترفى النفاق أو من الذين بلغوا شأوا فى الملق والتزلف للحكام ، وأنه كان يبدع فقط حينما يكون على سجيته منطلقا مع الطبيعة مفتونا بجمال الريف • ولا تقارن ابجراماته فى درجة الصياغة والاتقان بما تركه لنا كاليماخوس الذى أبدع حقا فى هذا النمط الأدبى ، وهى على أية حال ابجرامات تحمل طابع العصر بكل ما به من هنات • وهذه ابجرامةتتميز بالبساطة ولكنها لا ترتفع لمستوى العبقرية (١٣٤) •

« رحلت هذه الطفلة الى هاديس فى عامها السابع قبل الأوان وقبل أن تتقدم فى العمر • آه أيتها التعسة ، يا من تاق فؤادك الى أخيك الرضيع ذى العشرين شهرا والذى ذاق الموت عديم الرحمة » •

على حين توحى القصائد الأيولية بأنها نماذج لطيفة من الأدب المحلى القصد من وراء نظمها مجاراة فنون العصر الشائعة • ولكن أروع انتاج لثيوكريتوس بعد القصائد الرعوية هو قصائده الدرامية ابتداء: ففى أولاها وهى « السيراكوسيات » نصادف سيدتين من سراقوسة تتجولان فى أحياء مدينة الاسكندرية أثناء الاحتفال بأعياد أدونيس ، ولما كانتا غير معتادتين على الصخب والزحام بسبب نشأتهما الريفية فقد صادفتا متاعب جمة ومفارقات تثير الضحك • ومن المدهش أن ثيوكريتوس يبدى فى هذه القصيدة الدرامية قدرة مدهشة على خلق المواقف وعلى ادارة الحوار المعبر ، كما ينجح فى اضفاء الواقعية على موضوعه بدرجة رائعة لا اسراف فيها ولا قصور • وفيما يلى نسوق طرفا من بداية هذه القصيدة يحتوى على محاورة بين السيدتين جورجو وبراكسينوا تدور فى منزل الأخيرة الذى يقع فى أطراف مدينة الاسكندرية (١٣٥) :

« جورجو : هل براكسينوا بالداخل ؟

براكسينوا : عزيزتى جورجو ، يالها من غيبة طـويلة عنا ! أنا بالداخل • انه لأمر عجيب أن تحضرى فى هذه اللحظة • احضرى مقعداً لها ، يا يونوى ، وجهزى لها وسادة (تتكأ عليها) •

جورجو : ليس هناك أفضل من هذا •

براكسينوا : تفضلى بالجلوس •

جورجو : آه يا لى من تعسة معذبة النفس ! لقد وصلت الى هنا بشق الأنفس دون أن أهلك ، يابراكسينوا ، وسط كل هذا الحشد من الناس والعربات • ففى كل مكان تجدين الأحذية ذات الرقبة المزودة بنعال بها مسامير عريضة ، وتجدين رجالا يرتدون العباءات • كأن الطـريق لا نهاية له ••• آه ! انك تسكنين بعيدا ••• بعيدا جدا •

براكسينوا : انه من فعل ذلك المعتوه .. لقد جاء الى أقصى الأرض ليشترى كهفا لا منزلا ، كى لا نكون جيرانا لك . ذلك الحاقد الشرير (فعل هذا) نكاية فينا ... وانه كالعهد به لا يتغير ..

جورجو : لا تتكلمى ، يا عزيزتى ، بهذه الطريقة عن زوجك دينوى فى حضور ابنتك الطفلة . انظرى ، أيتها المرأة ، كيف تتطلع اليك ؟ لا تلق بالا لما تقول ، ياطفلتى الحلوة زوبيريون ، فهى لا تقصد بهذا والدك .

براكسينوا : وحق مولاتى الربة ان الطفلة تفهم .

جورجو : انه أب لطيف .

براكسينوا : ومع ذلك فهذا الأب اللطيف أول أمس ... أجل أول أمس عندما قلت له : « يا بابا ، اذهب واشترى لى قليلا من الصودا والطلاء الأحمر من الحانوت ... » ، أحضر لى ملحا . فياله من رجل بليد فائق البدانة !

جورجو : ان زوجى ديوكليداس يتصرف بنفس الطريقة ، فهو مسرف متلاف . فبالأمس أشترى بسبع دراخمات خمس جزات من شعر الكلاب اجتزت من سروج قديمة قذرة وبالية . ولكن هلم الآن ضعى شالا على كتفيك وارتدى دثارك وهيا بنا نشاهد (مهرجان) أدونيس فى قصر الملك بطلميوس الفخم . فلقد أخبرونى أن الملكة تعد مفاجأة مدهشة .

براكسينوا : ان بيوتات النعيم تحوى حقا كل ما هو عظيم .

جورجو : فلتقصى ما شاهدتيه وما تشاهدينه على من لم ير بعينيه أما الآن فقد حان وقت ذهابنا .

براكسينوا : العيد دوما للكسالى والعاطلين ! يونوى ، التقطى هذا الخيط من الأرض واحضريه الى هنا والا انهلت عليك ضربا ... ان القطط تحب النوم على الفراش الوثير .. هيا تحركى واحضرى لى ماء فى الحال ! ينبغى عليها أولا أن تأتينى بالماء ولكنها تحضر الصابون ! على كل حال ناوليه لى ، أيتها اللصة ، ولا تزيدى على ذلك شيئا . والآن صبى الماء .. أيتها الشقية ، لماذا تبللين ثوبى ؟ كفى ! الآن تم اغتسالى بالطريقة التى ترضى عنها الآلهة . أين مفتاح الصـــــندوق الكبير ؟ أحضريه هنا ...

جورجو : أى براكسينوا ، ان هـذا الثوب ذا الثنيات العريضة يناسبك جدا . أخبرينى كم كلفك قماشه ؟

براكسينوا : لا تذكرينى بهذا ، ياجورجو . لقد كلفنى ذلك أكثر من ميئتين ونصف (حوالى ٢٥٠ دراخمة) من الفضة . ناهيـــك عـــن حياكته .. فلقد أنفقت عمرى فى ذلك .

جورجو : ولكنه صار على خير ما تشتهين .

براكسينوا : هذا صحيح . ناولينى دثارى وقبعـــــة الشمس (للخادمة يونوى) ... ضعيهما بطريقة مناسبة ! وأنت يا بنيتى ، لن أصطحبك معى فهناك الغول (العفريت الذى يخيف الصغار) وهناك الفرس الذى يعض .. آه ! ابكى كما يحلو لك فليس ينبغى أن تصيرى عرجاء . هيا بنا .. فريجيا (خادمة أخرى) ، خذى الصغيرة وادخلى الكلب ثم أحكمى رتاج الباب الخارجى ... »

ان المتتبعين لتاريخ الواقعية والباحثين عن بداياتها الأولى يمكنهم أن يجدوا فى مثل هذه الأعمال ضالتهم المنشودة : فلقد بدأ الاتجـــاه لتصوير الواقع بأمانة يتضح عند أدباء العصر السكندرى ، وهم الذين

علموا العصور التالية الاهتمام بالواقع المجرد وتفاصيل الحياة اليومية والاقتراب من البشر العاديين ورفع تصرفاتهم الى مستوى الأدب الرفيع • ولم يكن ثيوكريتوس يقف وحده فى هذا المضمار بل شاركه ذات الاتجاه شعراء عديدون من أبرزهم هيرونداس كاتب الميميات المشهور الذى سنتعرض لانتاجه الأدبى بعد قليل •

والى جانب الاتجاه الواقعى نجد عند ثيوكريتوس كذلك اتجاها رومانسيا واضحا : ففى قصيدته الدرامية الثانية « سيمايثا أو الساحرة» يتوقف طويلا عند عاطفة الحب التى سيطرت على قلب المرأة ويتتبعها فى مهارة وتفوق لا يصل لمستواه الا شاعر الأرجوناوتيكا أبوللونيوس الرودى ، الذى أعتبره أعظم شعراء عصره فى هذا الصدد • ولقد حظيت هذه القصيدة بثناء النقاد المحدثين واعتبروها أروع انتاج لثيوكريتوس بعد قصائده الرعوية ، وهم لم يجنحوا للشطط فى هذا الحكم لأنها بالفعل كذلك • ويستخدم ثيوكريتوس فى هذه القصيدة المونولوج — بدلا من الديالوج الذى استخدمه بمهارة فى قصيدة « السيراكوسيات » — وكان يهدف من وراء ذلك الى تصوير احساس الوحدة والهجران لدى سيمايثا المحبطة فى حبها ، وبحيث يتمكن من جعل القصيدة كما لو كانت مناجاة بين « سيمايثا » والقمر صفى العشاق وموطن أسرارهم والساهر مثلهم حتى مشرق الشمس • ولقد حالف التوفيق شاعرنا من كافة النواحى : فالمونولوج أعطى انطباعا مدهشا بوحدة البطلة وحالتها النفسية المؤثرة ، وحوارها مع القمر أضفى الحيوية الدرامية على القصيدة التى زادها جمالا استخدام ثيوكريتوس للترديد المذهبى بين الفقرات بنفس الصورة التى سبق أن شاهدناها فى قصيدته الأولى « ثيرسيس » • ولقد اخترت للترجمة الجزء الممتع حقا فى القصيدة ، وهو الجزء الذى تشرح فيه سيمايثا لربة القمر قصة حبها الضائع [131] :

« سيمايثا : الآن وقد غدوت بمفردى كيف أشرع فى الانتحاب

على عشقى (الضائع) ؟ ومن أين أبدأ ؟ ومن الذى صب على هـذا الشقاء ؟ ان ابنة يوبولوس ، عزيزتنا أناكسو ، ذهبت الى دغل أرتميس بوصفها حاملة السلة المقدسة ، وفى ذلك اليوم كانت هناك وحوش كثيرة من بينها لبؤة تسير فى الموكب من كل جانب ٠

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى ٠

اذ ألحت على جارتى ثيوماريدا ، المربية الثراقية ، وهى الآن فى عداد الموتى ، وتوسلت كى أذهب معها لمشاهدة المهرجان ٠ فذهبت أنا التعسة المسكينة معها وأنا أرتدى ثوبا طويلا من التيل غاية فى الروعة ومن فوقه تدثرت بمعطف كليارستا ذى النسيج الرقيق ٠

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى ٠

وما أنا بلغت منتصف الطريق الى حيث ليكون حتى شاهدت دلفيس ومعه يوداميبوس وهما يسيران معا ٠ كانت لحيتاهما أشد شقرة من زهرة اللبلاب الذهبية ، أما صدراهما فكانا أشد لمعانا منك ، ياربة القمر ، اذ كانا قد فرغا لتوهما من التدريب البدنى الرائع فى مدرسة الألعاب الرياضية ٠

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى ٠

وبمجرد أن وجهت بصرى ناحيتهما حتى استبد بى الجنون وتأجج فى قلبى السعير ٠ زاغت منى الأبصار ولم أعد أفكر فى ذلك المهرجان ولم أشعر كيف قادتنى قدماى الى المنزل من جديد ، اذ تملكتنى رعشة المرض وجف حلقى ولزمت فراشى عشرة أيام وليال عشر ٠

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى ٠

لكم تغير لون بشرتى فصارت شاحبة مصفرة مثل صبغة الفسطيط !

لقد تساقط شعر رأسى كله وهزلت فلم يبق منى سوى الجلد والعظام ، فأى باب لم أطرقه ؟ وأى منزل لساحرة شمطاء لم أمر عليه بحثا عن البارعين فى الرقى والتعاويذ ؟ لكن الأمر لم يكن هينا والوقت يفر دون هوادة .

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى .

ولم يكن هناك مفر من أن أحكى حقيقة ما حدث لجاريتى ، فقلت لها : « هلمى الى ، ياثيستيليس ، وابحثى لى عن دواء لهـذا المرض العضال . ان (دلفيس) الميندى قد امتلكنى فصرت لا أملك منه فكاكا . فيالى من تعســة ! اذهبى اذن وراقبى مدرسة تيماجيتوس للمصارعة لأنه يتردد عليها كثيرا ويحب أن يجلس هناك » .

فيا ربة القمر ، امعنى النظر فى هـذا العشق ومن أين ألم بى .

« وعندما تتأكدين من انه بمفرده أشيرى له خفية وأسرى اليه بالآتى : « ان سيدتى (سيمايثا تطلب منك الحضور الى منزلها) » ، ومن بعدها تعالى به الى هنا » . وبعدما تحدثت اليها على هذا النحـو انطلقت وعادت ومعها دلفيس ذو الجلد الأملس المصقول الى دارى . وما أن تبينت وقع خطوات أقدامه الخفيفة على على عتبة بابى ...

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى .

حتى غدوت أبرد من الثلج من قمة رأسى الى أخمص قدمى ، ومن حاجبى تصبب العرق غزيرا مثل الندى الرطب وانعقد لسانى فلم أنبس ببنت شفة . لا ولم أكن حتى بقادرة على أن أفعل مثل الأطفال الرضع فى نومهم حين ينشجون طلبا لأمهم الحبيبة . لقد تصلب جلدى الجميل فى كل جزء منه وغدا مثل عروسة من الشمع .

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى .

وعندما نظر الى ذلك القاسى نكس رأسه وثبت ناظريه على الأرض، ثم اتكأ على وسادة وبعد أن جلس فوقها قال : « ان دعـــوتك لى ، يا سيمايثا ، للحضور الى دارك قد سبقت حضورى اليك بنفس المقدار الذى فزت به أنا على فيلينوس الرشيق فى السباق الأخير » •

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى •

« ذلك أننى كنت على وشك الحضور اليك بمجرد حلول الغسق مدفوعا بقوة أروس حلو القسمات ، وبصحبتى صديقان أو ثلاثة حاملا فى صدرى تفاحات ديونيسوس ومتوجا هامتى بأغصان من شـــجرة الحور البيضاء ، نبات هيراكليس المقدس ، مجدولة من كل ناحيـــة بشرائط قرمزية » •

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى •

« وما دمت قد استقبلتنى فان هذا أمر يدعو للاغتباط ، لأنى أعرف بين كافة أصدقائى الشبان بالرشيق الوسيم • ولو أننى فقط طبعت قبلة على فمك الجميل لظفرت بالراحة وأسلمت جفنى للكرى • لكنـــك لو حاولتى دفعى خارج المنزل وأوصدت بابك خلفى بالمزلاج ، لانهالت عليك الآن حقا فئوس ومشاعل » •

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى •

« ولكن حيث انك قد دعوتنى فانى أقول ان الشكر ينبغى أن يزجى من جانبى أولا للربة كيبريس ومن بعدها اليك ، ياسيدتى ، يامن انقذتى حياتى من الشعلة المتأججة حين وجهت الى الدعوة لدخول منزلك هذا • فالحق أن اروس كثيرا ما يشعل نيرانا أكثر توهجا من تلك التىيضرمها هيفايستوس فى ليبارا »

فيا ربة القمر ، أمعنى النظر فى هذا العشق ومن أين ألم بى ٠

« فهو (أى اروس) الذى يسلط الجنون المخيف على الفتاة ويبث فى قلبها الذعر فترتاع من مخدعها وهو الذى يدفع العروس الى أن تهجر مخدع زوجها وهو لم يزل بعد دافئا ٠ » كانت هذه كلماته ، ولأننى ممن تسهل استمالتهم وسلب أفئدتهم دائما فقد أخذته من يدهوأجلسته على وسادة لينة ٠ وفى التو تلامست البشرتان وسرى فيهما الدفء ، واتقد وجهانا بسخونة لافحة أكثر من ذى قبل وبدأت الهمسات العذبة تتردد بيننا ٠ ولا أطيل عليك بثرثرتى ، يا ربة القمر العزيزة ، فقد حدث ما حدث وغرقنا فى اللذة حتى أقصاها وحقق كل منا رغبته العارمة٠

وحتى يوم أمس لم يكن (دلفيس) يستاء منى ولا كنت أنا أجد عنده الخطأ ٠ ولكن اليوم عندما أقلت الخيول المركضة ربة الفجر الوردية سريعا من المحيط الى السماء ، وغدت الى ضيافتى والدة فيليستا عازفة القيثارة وصديقتنا ، وهى فى الوقت ذاته والدة مليكسو ، وأخبرتنى بأمور كثيرة من بينها أن دلفيس غارق من الحب حتى أذنيه ، لكنها لم تجزم ما اذا كان يهيم غراما بامرأة أو تدله فى حب غلام ٠ لقد كان ما أخبرتنى به أمرا واحدا فقط : هو أنه دائما يجرع الحب كما يشرب النبيذ المخلوط ، وأنه ما يلبث أن يولى الأدبار بعد أن يقضى وطره ، وأضافت قائلة انه (من المهارة) بحيث يستطيع أن يغطى تلك الدار بالأكاليل (بمعنى أنه يجيد اخفاء نياته والتمويه على الآخرين) ٠ هذه هى الأمور التى أسرت بها الى ضيفتى ، وهى ليست بكاذبة : ففى الحقيقة أنه كان قبلا يزورنى ثلاث أو أربع مرات فى اليوم ، وكثيرا ما كان يترك عندى قنينة الزيت الدورية (الخاصة بتدريباته البدنية) ٠ والآن ! ما الذى حدث ؟ هذا هو اليوم الثانى عشر ينصرم منذ آخر مرة شاهدته فيها ٠ أليس معنى ذلك أنه وجد ما يمتعه ويبهجه فى مكان آخر ونسينى؟ لكنى الآن سوف أكبله بفضل تعويذة الحب السحرية ٠ فاذا ما استمر فى تعذيبى ، فوحق ربات القدر لأجعلنه يضرب برأسه بوابة هاديس

رب الموتى • وأقسم لأحتفظن له فى صندوقى بهذه العقاقير المريعة : فلقد تعلمت ، يا مولاتى الربة ، سر استخدامها من رجل أشورى غريب عن هذه الديار •

والآن ، يا مولاتى الربة ، وداعا ! توجهى بخيولك للمحيط ودعينى أتحمل عذاب عشقى كما تحملته من قبل • وداعا يا سيلينى ، يا ذات العرش اللامع ! وداعا أيتا النجوم الأخرى ، يا من تتبعن عربة ربة الليل الساكن فى سيرها » •

لقد كان شعراء العصر السكندرى يعتقدون بأن الحب عاطفـــة تتسبب فى وجودها قوى خفية مثل قوة اروس اله الحب الذى قهـــر البشر وبسط سلطانه على الآلهة ، وكان من نتيجة هذا الاعتقاد أنهم آمنوا بما نطلق عليه نحن المعاصرون « الحب من النظرة الأولى » ، وهو احساس لا قبل للانسان بمقاومته أو الوقوف فى وجهه : فهو يجتاحه كالاعصار ويجتث ارادته كما يجتث الحطاب ببلطته جذع الشـــجرة • لذلك أسهب الشعراء ، كما شاهدنا فى قصيدة سيمايثا اعلاه لثيوكريتوس أو فى حكاية أكونتيوس وكيديبى للشاعر كاليماخوس أو كما سنشاهد فى ملحمة أبوللونيوس الرودى ، أســـهبوا فى وصف أعراض الحب الفسيولوجية كما لو كان مرضا يعترى الجسم ويعذب النفس • غـــير أن هذا الاعتقاد بفورية الحب لم يفسح المجال أمام الشعراء لتقصى أسباب الحب ودوافعه كما لم يتح لهم فرصة تتبع نمو العاطفة ووصف مراحلها منذ بدايتها حتى ذروتها •

وفى القصيدة الدرامية الثالثة والأخيرة « حب كينسكا » تدور احداث فى حفل شراب فى مزرعة بجزيرة قوص حيث تلتقى شخصيات القصيدة : رجل من أرجوس ، تاجر خيول من تساليا ، جندى مرتزق ومضيفهم أيسخينيس الذى يروى قصـــة حبه لصـــديقه ثيونيكوس • وتتلخص القصـــة فى أن كينسكا كانت عشيقة لأيسخينيس لكنها وقعت فى غرام شاب يافع يعرف بين أقرانه بالذئب لنهمه وشراسته ، وذات

مرة تشرب كينسكا حتى الثمالة فتبوح لأيسخينيس بغرامها الآثم مع الشاب الذئب فتثور ثائرته ويضربها ضربا مبرحا ، ولكن هذا العقاب لا يهدىء من ثائرته اذ يظل حائرا بين غضبه ورغبته •

وهنا ينصحه صـــديقه ثيونيكوس بأن يحزم متاعه ويسافر توا الى مصر كى يخدم فى جيش الملك العظيم بطلميوس فيلادلفوس : « خير من يكافىء الحر على عمله وصديق ربات الفنون (= الموسيات) الذى يعرف كيف يكافىء أصدقاءه ويعرف أيضا كيف يرد كيد أعدائه » • ورغم أن فى هذا القول اشارة الى حقيقة كانت واقعة ومشهودة وهى تشجيع الملوك البطالمة للشعر والأدب والفن فى ذلك العصر ، الا أننا نستنتج دون عناء أنه تملق مفضوح أقحم اقحاما على السياق دون ما داع فنى يتطلبه •

ونختتم مختاراتنا التى أوردناها من أعمال ثيوكريتوس بواحدة من القصائد الأيولية الثلاث ، وهى قصيدة « المغزل » التى نجت من المثالب التى تردت فيها القصيدتان الأخريان اللتان تدوران حول حب الغلمان • وتتميز قصيدة المغزل ببساطتها وخفة روحها وبعدها عن التكلف وان كانت لا تخلو من التظرف ، وهى خير مثال على شعر الاهداء الذى يرفق مع الهدية • وهى على أية حال قصيدة وضعت هدفا لها الاشادة بنيكياس صديق الشاعر ثيوكريتوس ورفيق صباه منذ الطفولة (١٣٧) :

« المغـــزل »

« يا صديق الغزالين ، ويا هدية الربة أثينا ذات العينين الزرقاوين الى النساء اللائى يجدن فن تدبير شئون المنزل ، هيا تشجع وتعال معى الى مدينة نيليوس الغنية حيث يوجد معبد الربة كيبريس ، الذى يبدو مخضرا بفعل نبات السمار الرقيق (الذى نما حوله) • فالى هناك سنبحر ونضرع الى زيوس كى نحظى بريح رخاء فى رحلتنا البحرية فأمتع نفسى برؤية صديقى نيكياس ــ ذلك النسل المقدس المنحدر من

سلالة الفاتنات (= ربات البهاء أو الحسن : Charites) ذوات الصوت الرخيم ــ وأنال منه الترحيب وكرم الضيافة ، وأودعك ياهديتي المصنوعة من العاج بعناية وبراعة فائقة بين يدى زوجته •

فمعها (أيها المغزل) ستنجز عملا كثيرا فى نسج الثياب التى يرتديها الرجال وعملا أكثر فى نسج الثياب الفضفاضة التى ترتديها النساء • فمن أجل رضى ثيوجنيس ذات الكعبين الفاتنين يتم جز الصوف الرقيق من أمهات الحملان فى مراعيها مرتين فى العام ذاته ، وانهـا لسيدة نشطة للغاية حصيفة ومدبرة فى كافة تصرفاتها • فأنا لا أريد لك (أيها المغزل) أن توضع فى منزل سيدة عاطلة أو خاملة ، لأنك جئت من مسقط رأسى ومدينتك هى المدينة التى شيدها فيما مضى أرخياس من افيرا ، وهى قلب جزيرة ترينا كريا مدينة المشاهير من الرجال • ومنذ الآن سيصبح موطنك بلد ذلك النطاسى البارع فى استخدام مختلف العقاقير التى تحمى الناس من الأمراض الفتاكة ، وستحيا مع الايونيين فى ميليتوس الجميلة من أجل أن تغدو ثيوجنيس شهيرة بمغزلها بين نساء مدينتها ، ومن أجل أن تذكرها دوما أيها المغزل بصديقها المحب للشعر والانشاد • ذلك أن من يشاهدك سيقول هذه الكلمات : « حقا انها لأمنية عظيمة تسير فى ركاب هدية بسيطة ، ولكن كل ما يأتى من الأصدقاء لا يقدر بثمن » •

ومما لا شك فيه أن ثيوكريتوس قد أضفى روحا جديدة على الشعر السكندرى وبث فيه حيوية وتدفقا كان يفتقر اليهما ، كما أنه جدد وابتكر ولم يقنع بالسير فى ركاب الآخرين أو اقتفاء خطىء الأقدمين : فاليه يعزى الفضل فى ابتكار الشعر الرعوى وفى ارساء قواعد لفن المليحمة السـكندرية وفى تطور فن الميمية بعد أن كادت تصبح نسيا منسيا • وثيوكريتوس واحد من أساطير الأدب السكندرى وعمالقته الكبار ، لذا فهو يمثل عصره خير تمثيل سواء فى الروح أو فى الذاتية التى تعلن عن نفسها أو حتى فى الهنات التى انزلق اليها الشعراء بسبب الافراط

فى الصنعة والعلمية الشديدة والتكلف ، لقد كان ثيوكريتوس بين باقى الشعراء مثل النجم المتألق الذى لا يخبو بريقه ولا تخفت أبدا جذوته •

أبوللونيوس :

ولد أبوللونيوس الرودى Apollônios ho Rhodios حـــوالى عام ٢٩٥ ق٠م٠ بمدينة الاسكندرية ، لكنه لقب بالرودى لأنه أمضى شطرا طويلا من حياته فى جزيرة رودس ومن المحتمل أن هذه الجريزة منحته حق المواطنة الفخرية اعتزازا به وبشهرته ، ومن الغريب أن أبوللونيوس هو الشاعر السكندرى الوحيد الذى ولد بمدينة الاسكندرية • ويخبرنا معجـــم ســـويداس بأنه تلميـــذ الشـــاعر كاليماخـــوس ، أما بردية أوكسيرنخوس التى أشرنا اليها أعلاه فتذكر أنه تولى رئاسة المكتبة فى الفترة الواقعة ما بين رئاستى كل من زينودوتوس واراتوسثينيس • ومعنى هذا وفقا للعرف السائد أنه كان مربيا للعاهل بطلميوس الثالث يورجيتيس عندما كان الأخير صبيا ، وأن أبوللونيوس تولى منصـــب رئاسة المكتبة فى الفترة الستينيات من القرن الثالث ق٠م٠ (١٣٨) •

وفيما عدا ذلك فمعلوماتنا جد فقيرة عن حياة هذا الشاعر المبدع : فهناك روايات تقول بأنه نظم ملحمته فى سن متأخرة ، وروايات أخرى تقول بأنه نظمها فى صورتها الأولى عندما كان شابا وفشلت فشـــلا ذريعا • وعلى أثر ذلك رحل أبوللونيوس الى رودس محزونا ويائسا ، حيث انكب على ملحمته يراجعها وينقحها ويصوب أخطاءه التى قادته الى الفشل حتى نجحت فى صورتها الثانية التى تلاها على محبيه من أهل الجزيرة • ولم يرجع أبوللونيوس الى مدينة الاسكندرية الا بعد أن رحل غريمه كاليماخوس عن الحياة ، وهناك أمضى سنوات شيخوخته فى هدوء ودعة ولقى التكريم الذى يستحقه من مختلف الوجوه الى أن مات ودفن بجوار خصمه اللدود : لقد ضاقت بهما الحياة على رحابتها ولكنهما وجدا فى الموت على محدوديته صدرا رحيبا (١٣٩) •

وفيما يتعلق بمسألة رئاسة مكتبة الاسكندرية فقد ثارت مشكلة حول الفترة الزمنية التى شغل خلالها أبوللونيوس هذا المنصب : ولقد سبقت الاشارة الى أن بردية أوكسيرنخوس قد ذكرت أن تلك الفترة كانت بعد زينودوتوس وقبل اراتوسثينيس ، على حين يذكر معجم سويداس فى روايته الثانية عن حياة الشاعر أنه لم يتول هذا المنصب الا بعد رجوعه من رودس الى الاسكندرية • ولكن هذا يتناقض مع ما ورد فى الرواية الأولى عن حياة الشاعر فى معجم سويداس وهى القائلة بأنه خلف اراتوسثينيس فى منصب الرئاسة ، ويرجع سبب هذا التناقض الى الخلط الذى وقعت فيه المصادر القديمة بين شاعرنا أبوللونيوس الرودى وسمى آخر له هو أبوللونيوس مؤلف الأنماط الأدبية Apollônios ho Eidographos ، الذى ذكرت بردية أوكسيرنخوس أنه جاء خلفا لاراتوسثينيس فى هذا المنصب الهام • الأرجح اذن أن أبوللونيوس الرودى قد شغل المنصب خلفا لزينودوتوس حوالى عام ٢٦٠ ق•م• وظل يشغله حتى ارتقى بطلميوس يورجيتيس العرش عام ٢٤٧ ق•م• (١٤٠) •

وكان الحدث الهام فى حياة أبوللونيوس هو المعركة الأدبية أو المشاحنة التى نشبت بينه وبين كاليماخوس : فلقد كان زعيم البرناس السكندرى بطبعه صانعا ماهرا أكثر من كونه ملهما فذا ، وبعبارة أدق كان يفتقر الى الاحساس القوى والتحمس الشديد لموضوعاته ، وكان صنوا للشاعر الرومانى هوراتيوس فكلاهما كان ينتقى كلماته بعناية وينمق أشعاره بحنكة ودراية ويصوغ قصائده بخبرة الصانع الماهر ، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التلقائية وفيض الالهام • ورغم أن كاليماخوس نظم قصيدة طويلة هى « الأسباب » وملحمة على قدر من الطول هى « هيكالى » ، الا أنه كان قاصرا عن نظم الملحمة التى تتطلب صياغتها عبقرية وقدرة فائقة • ومن ناحية أخرى كان كاليماخوس بحكم ميوله واتجاهاته النقدية لا ينجذب نحو هذا النوع من الشعر ،

فهو يعتقد أن الملحمة كفن أدبي قد مضى أوانها وأنها أدت دورها ، ولم يعد هناك في نظره مبرر في هذا العصر لنظم ملاحم أخرى بهذا الطول المفرط الذي يجعل الشاعر عرضة للوقوع في الخطأ وللتردي في مهاوى الركاكة والضعف ، وكان من رأيه أيضا أن موضوع الملاحم بمواصفاته التقليدية ولغته الأثرية ومفهوم البطولة فيه لم يعد يلقى صدى أو يعبر عن حاجة ملحة للناس في هذا العصر (١٤١) •

أما أبو للونيوس فكان يتخذ موقفا مناقضا • فهو أصغر سنا وأشد طموحا وحماسا وهو شاعر مطبوع يأتيه النظم طيعا ، كما كان معجبا بهوميروس الى درجة الجنون وكانت تراوده الأماني في نظم ملحمة على غرار ملاحم هوميروس الخالدة ، ولم يكن يستهويه رأي كاليماخوس الذي ذاع وانتشر في ذلك العصر وهو : أن « الكتاب الطويل شر وبيل» mega biblion mega kakon ، بل استخف به واعتبره نوعا من القصور • أدى هذا الموقف الى وقوع الخلاف بينهما واستفحاله بسرعة ولقد زاد من هوة الخلاف ان كلا من الشاعرين كان باحثا بالاضافة لقرضه الشعر فاعتبر أن وجهة نظره تمثل فريقا له أشياع ومساندون، وهذا هو ما حدث بالفعل اذ انضم الى ساحة النزال شعراء آخرون •

ولم تسلم هذه المعركة الأدبية للأسف من تبادل السباب والاهانات وربما ترجع حدة الخلاف وعنف الخصومة بين الشاعرين في رأينا الى أن المنافسة بين الشاعرين لم تقتصر على اختلاف وجهات النظر في المسائل الأدبية ، بل امتدت لتشمل الصراع على الزعامة الأدبية ورئاسة المكتبة وبالتالي على الحظوة الملكية • كان كاليماخوس هو البادىء بالهجوم ، فبعد أن أخرج أبوللونيوس الى النور ملحمته الأرجوناوتيكا Argonautika (رحلة السفينة أرجو) في صورتها الأولى حوالي عام ٢٧٠ ق٠م٠ قابلها كاليماخوس باستياء وسخط ، وبادر الى نظم قصيدته المطولة « الأسباب » ليثبت لغريمه أنه ليس عاجزا عن

تأليف الملاحم بسبب عائق الطول ، بل لأنه يرفض نظم قصيدة تدور حـــول موضوع متصل diênekes قوامه أعمال البطولة التقليدية وفى البحر السداسى التقليدى وباللهجة الهومرية . لذلك صاغ قصيدته « الأسباب » فى البحر الاليجى وأصر على ألا يجعلها تحمل صـــورة الملحمة أو تتصف بوحدتها ، بل جعلها مقسمة الى موضوعات منفصلة لا رابط بينها (١٤٣) . وخصص كاليماخوس مقدمة قصيدة « الأسباب» لمهاجمة معارضيه وعلى رأسهم أبوللونيوس وأنتيماخوس الكولوفونى مؤلف قصيدة « ليدى » Lydê (١٤٣) ، وهو يشبه هؤلاء الخصوم ، الذين عيروه بعـــدم المقدرة على نظم القصائد الطويلة ، بالحـــدادين Telchines أبناء ربة الأرض « جى » ورب البحر « بونتوس » . وكما سبق أن شاهدنا فى ترجمتنا أعلاه لهذا الجزء من القصيدة فان كاليماخوس يرد على معارضيه بأنه ضد نظم الملاحم على طول الخط ، ويبين لهم أن الشعر ينبغى أن يقاس بقوانين الفن لا بمقياس الأرض الفارسى ، ويقول لمن عيروه بنظمه للقصائد القصيرة ان هذه القصائد هى التى جعلت ممنرموس Mimnermos أعذب الشعراء ، ويصرح بأن الاله أبوللون أخبره بأن الأضاحى ينبغى أن تكون سمينة وثقيلة أما الأشعار فلا بد أن تكون خفيفة . ويمضى كاليماخوس فى توضيح آرائه النقدية واتجاهاته على لسان الاله أبوللون الذى ينصحه بالابتعاد عن الدروب المطروقة والبحث عن طرق جديدة ، ويبين له أن هناك فرقا بين عزف الزيزان الجميل ونهيق الحمير الصاخب (١٤٤) . ولقد عضد كاليماخوس فى هذا الرأى الشاعر ثيوكريتوس الذى يرى أن تقليد ملاحم هوميروس ضرب من الجنون : فالشعراء جميعا مثل عصافير ربات الشـــعر أما هوميروس فهو العندليب الصداح (١٤٥) . ولقد سبقت الاشارة الى ابجرامة كاليماخوس المشهورة التى يهاجم فيها القصيد الموسوعيـــة والدرب المطروق والمتطرف المقلد ، وينادى باتخاذ أسلوب ذاتى فى التأليف وشخصية مستقلة (١٤٦) .

وأمام هذا الهجوم العاتى من جانب كاليماخوس على الملاحم وناظميها وجد أبوللونيوس نفسه مضطرا لخوض المعركة ، فما أن قرأ قصيدة « الأسباب » التى نظمها خصمه العتيد حتى علق عليها فى احدى ابجراماته قائلا (١٤٧) : « كاليماخوس ذلك النفاية ، ذلك الألعوبة ، ذو العقل المتحجر • سبب (ابلاء) كاليماخوس مؤلف « الأسباب » » لكن كاليماخوس لم يحتمل هذه الاهانة خاصة وأن غريمه لم يستخدم مثله أسلوب التلميح فى النقد بل استخدم أسلوب التصريح وجهر باسمه ، لذلك بادره بهجوم مماثل لم يتخل فيه عن طريقته المقنعة فى التجريح • فى هذه المرة خصص له فقرة فى ختام نشيده الى أبوللون قال فيها (١٤٨) :

« همس الحقد فى أذن أبوللون قائلا : « اننى لا أعجب بالشاعر الذى لا ينشد نشيدا يماثل بونتوس (رب البحر) • » فركل أبوللون الحقد بقدمه ثم خاطبه هكذا : « ألا ان مجرى النهر الأشورى ضخم لكنه يجرف فى مياهه كثيرا من أدران الأرض ونفاياتها • وان الميليسيات (= كاهنات دلفى) لا يحملن الماء الى ديميتر من أى نبع أو كل نبع ، بل يحملن لها الماء الصافى الطاهر من ذلك الينبوع المقدس ذى القطرات القليلة ، قمة الينابيع الجارية وأسماها • » »

وحينما أعاد أبوللونيوس كتابة ملحمته الأجوناوتيكا بعد أن قام بتهذيبها وتنقيحها نشرها من جديد ، بحيث تتضمن فى فقرتها النهائية فقرة هجاء — صيغت هذه المرة بطريقة رمزية بالغة الاتقان — لخصمه كاليماخوس على النحو التالى (١٤٩) :

« ياله من عراف نكد الطالع ذلك الذى سلب الفطنة فلم يعد يعرف حتى ما يدركه الأطفال : وهو أن الفتاة لن تتوجه الى الشاب بكلمة حلوة أو بلفظة عشق عند وجود غرباء برفقته • ارحل أيها المتنبىء

البائس ، ارحل أيها العراف الغبى ، فلن تمنحك كيبريس ولا أرباب الحب المتصفين بالرقة نسماتهم الحبيبة » •

ولا احد يعلم علم اليقين ماذا يعنى أبوللونيوس بهذه الفقرة ففى الحق أنها بالغة الغموض ، ولكن محاولة للتفسير من جانبنا قد تلقى بعض الضوء : ربما يقصد أبوللونيوس أن كاليماخوس لم يخلص لفن بعينه مثلما فعل هو حينما نذر حياته ووجوده كله لملحمة الأرجوناوتيكا، بل شغل نفسه بمختلف الاهتمامات وكان باحثا وأديبا وعالما ومؤلفا لكثير من أنماط الأدب وألوانه ، وبذلك لن ينال رضى الموسيات اللائى لا يعضدن سوى من يخلص للشعر فقط مثل أبوللونيوس • وبهما كانت هذه الفقرة ردا على فقرة مماثلة من القصيدة التى هاجمه بها كاليماخوس وضمه فيها الى زمرة الحدادين العاجزين عن نيل رضى ربة الشعر ، والتى يقول فيها : « ان لم تكن الموسيات قد نظرن اليك شذرا فى صباك فلن يتخلين عن حبهن لك حينما يخط الشيب شعرك » • وهى معايرة صريحة لشاعرنا الذى أخفق فى شبابه عند نظم ملحمته لأول مرة • هدف أبوللونيوس اذن هو القول بأن تنبؤ كاليماخوس ذهب أدراج الرياح بعد نجاحه فى نظم ملحمته من جديد بصورة مشرقة نالت رضى المعاصرين • العراف البائس الغبى اذن هو كاليماخوس،وهو قليل الفطنة لأنه يجهل أن ربة الشعر لاتجود بعطاياها الجميلة على الشاعر حينما تجده مشغولا عنها باهتمامات أخرى تقلل من اخلاصه لها •

لكن كاليماخوس لم يطق صبرا على هذا الغمز والتلميح فقرر وضع حد لاهانات غريمه ، لذا شمر عن ساعديه وألف قصيدة عنوانها « أبو منجل » 1bis لم يصل نصها الينا ولكن نقلها الى اللاتينية بتصرف تحت نفس العنوان الشاعر الرومانى أوفيديوس (١٥٠) • وأغلب الظن أن كاليماخوس قد أراد لهذه القصيدة أن تكون فصل الخطاب فى

هذه المشاحنة الأدبية حامية الوطيس ، لأنها بلغت حدا من الاسفاف لا مزيد عليه ولم تترك من التقريع والهجاء ما يقال بعدها من جانب شاعرنا أبوللونيوس ، ويبدو أنه رحل بعدها الى جزيرة رودس ولم يعد منها الى الاسكندرية الا بعد موت كاليماخوس ٠

ولم يؤلف أبوللونيوس أعمـالا كثيرة ، فلقـد ذكرت المصادر القديمة أنه ألف عدة قصائد نسج فيها على منوال عصره عن تأسيس ktisis المدن مثل الاسكندرية وناوكراتيس وغيرهما ، وكذلك قصيدة فى البحر الخولييامبى بعنوان « كانوبوس » Kanobos ، أما ابجراماته فلم يبق منها سوى الابجرامة التى هاجم فيها كاليماخوس والتى سبقت ترجمتها [١٥١] ٠ ومن هذا ندرك أنه خالف معظم شعراء عصره متعددى الميول والمواهب ، اذ ملكت عليه ملحمته «الأرجوناوتيكا» كل اهتمامه وانشغل بها وحدها عما سواها ٠ ولقدنظم أبوللونيوس هذه الملحمة فى البحر السداسى وفى نحو ستة آلاف بيت ، أى ما يعادل نصف أوديسية هوميروس تقريبا [١٥٢] ، واستخدم فى تدوينها المفردات الشائعة فى اللهجة الهومرية ولكن على الطريقة السكندرية ، وقسمها الى أربعة كتب كل منها يدور حول مغامرة قائمة بذاتها بحيث تجمعها كلها وحدة واحدة ويضمها اطار مشترك ٠ ويقص أبوللونيوس فى هذه الملحمة أسطورة رحلة ملاحى السفينة أرجو Argô (= السريعة) الى بلدة كولخيس على البحـــر الأســود بحثا عن الجـــزة الذهبيـــة to panchryseon deros لاعادتها الى بلاد اليونان بعد أن كان فريكسوس قد تركها فى تلك البلاد الأجنبية ٠

ويتضمن الكتاب الأل صفا لرحلة الذهاب الى كولخيس ويبدأ بتضرع الى فويبوس رب الشمس والضياء من أجل نجاح الرحلة ، تليه قائمة مسهبة تدفع الى الملل فى نحو مائتى بيت بأسماء ملاحى السفينة أرجو ، ثم يصف الشاعر عبارات الوداع بين البطل ووالدته ألكميدى

حيث تناولوا طعامهم فى وليمة جماعية أبحرت بعدها السفينة بملاحيها الى عرض البحر ، تصحبها فى مسيرتها أنغــام أورفيوس الشجية ، والفقرة التالية عبارة عن لوحة جميلة تصور اتحار السفينة أرجو (١٥٣) :

« ومثلما يرقص الشبان من أجل تكريم الاله فويبوس فى دلفى أو فى ديلوس أو على مقربة من مياه نهر اسمينوس . وكما يحركون الخطى سويا فى ايقاع مشترك على الأرض حــول المذبح على أنغام القيثارة ــ كذلك كان (بحارة الأرجو) يضربون صفحة البحربمجاديفهم على أنغام قيثارة أورفيوس والأمواج المتلاطمة تحملهم على متنها • وعلى كل جانب من جوانب السفينة كانت المياه الداكنة تتحــول الى فقاقيع وهى نرغى وتزبد غضبا من شدة بأس هــؤلاء الرجال • وفى الوقت الذى كانت السفينة فيه تشق عباب اليم كانت دروعهم تبرق كالنار تحت أشعة الشمس ، وطوال الوقت كانت السفينة تترك خلفها أثرا طويلا أبيض اللون يتبعها ويتراىء للناظر كطريق وسط ســهل مغطى بالعشب • وفى ذلك اليوم أطل كافة الآلهــة من عليائهم على السفينة وعلى رجالها الأبطال شديدى المراس ، أعظم رجال شقوا صفحة اليم فى عصرهم • بينما ملأت الدهشة الحوريات على أعلى قمم جبل بليون وهن يشاهدن صنع الربة أثينا الايتونية والأبطال أنفسهم وهم يهيمنون بسواعدهم على المجاديف • ومن أعلى الجبــل حضر خيرون بن فليرا الى شاطىء البحر ، وبلل قدميه فى المكان الذىانكسر فيه المد ، وأخذ يلوح بيديه الهائلتين أكثر من مرة ليتمنى للمسافرين عودا حميدا • وكانت بصحبته زوجته وهى تحمل بين يديها الطفــل أخيليوس بن بيليوس ، وترفعه عاليا كى يراه والده المحبوب » •

وتقود أنشودة أورفيوس الشجية سفينة الأبطال الى جــزيرة ليمنوس حيث أمضى ملاحوها الصناديد وقتا فى التدريب على استخدام مختلف أنواع السلاح ، وفى اللهو مع نساء الجزيرة الفاتنات الى أن

ذكرهم هيراكليس بالغاية من رحلتهم • ومن ليمنوس أبحروا الى ميسيا حيث اختطفت حوريات الينابيع هيلاس رفيق هيراكليس الوسيم وظل البطل يبحث عنه دون جدوى واستسلم لحزن جسيم أدى به الى التخلف عن الرحلة ، ومكث قابعا حيث فقد صفيه هيلاس وهو يئن تحت وطأة الحزن والكمد (١٥٤) •

أما الكتاب الثانى فيبدأ بالنزال بين أميكوس والبطل الاغريقى بوليديوكيس Polydeukês (باللاتينية Pollux) ، وهو منظر جعله شاعر الرعاة ثيوكويتوس موضوعا لمليحمة بعنوان « ابنا زيوس» Dioskouroi حيث صور الملاكمة بين البطلين بطريقة شيقة • توقف الأبطال بعد ذلك فى موطن العراف فينيوس Phineus الذى كادت تهلكه الخاطفات Harpagai ، تلك الطيور التى سلطت عليه عند كل وجبة لتفسد طعامه • ويعقد فينيوس اتفاقا مع الأبطال مؤداه أن يساعدوه فى التخلص من تلك الطيور فى مقابل أن يتنبأ لهم بما سيصادفوه فى رحلتهم من مخاطر وأهوال ، وبالفعل ينجح كل من زيتيس Zetes وكالايس Kalais ، ذوى الأجنحة أبناء ريح الشمال (بورياس) فى تخليصه من الخاطفات بعد أن طارداها فى الفضاء وأخذا وعدا من الربة ايريس بكف أذاها عن التعس فينيوس • بعد ذلك تابع الأبطال رحلتهم ولكنهم يفقدون ماسك الدفة تيفيس بسبب العواصف القوية ، وعندما وصلوا الى جزيرة أريتياس قابلوا أبناء البطل الاغريقى فريكسوس الذى نحر الكبش ذا الفروة الذهبية عند وصوله الى كولخيس ، وكان هؤلاء قد استقروا بالجزيرة بعد أن تحطمت سفينتهم التى كانوا يزمعون الرحيل على متنها الى بلاد اليونان وفى ختام هذا الكتاب تبلغ السفينة أرجو بأبطالها أرض كولخيس بسلام بعد أن صادفوا متاعب جمة وتعرضوا لأخطار جسيمة •

أما الكتاب الثالث ، وهو أمتع كتب الملحمة وأجملها بلا جدال ،

فيبدأ بذهاب كل من الربة هيرا والربة أثينا الى ربة الحب أفروديتى التى تبسط سلطانها على البشر وعلى الآلهة فى آن واحد ، وذلك من أجل أن تحملاها على أن تبعث بولدها أروس رب الحب الصغير الى ميديا ليشعل فى قلبها نار الحب تجـاه البطل ياسون • كانت الربة أفروديتى فى ذلك الوقت تتزين فتركت زينتها وتوجهت معهما للبحث عن أروس حتى وجدته آخر الأمر يلعب النرد مع الغلام الجميل ساقى الآلهة جانيميديس Ganymêdes ، فقدمت له كرة ذهبية ثمنا لقيامه بهذه المهمة • ان أفروديتى تبدو هنا كامرأة من البشر لا سلطان لها على ولدها الصغير ، وبالمثل فان هيرا وأثينا تبـدوان كسـيدتين مترفعتين اضطرتهما الظروف للتعامل مع امرأة خليعة لا قيم عندها ، أما اروس الصغير فقد صوره الشاعر على أنه طفل عابث يحب اللعب مع أقرانه ويغش فى اللعب عنـدما تسنح له الفرصة ويتدلل على والدته التى لا تملك سوى التزلف اليه من أجل أن تنال ما تبغيه (١٥٥) :

« وبعد أن تحدثت (هيرا) معها تركت مقعدها وتبعتها الربة أثينا وانطلقت الربتان كى تتمكنا من العودة بسرعة • أما (أفروديتى) فقد اتخذت طريقها خلال وديان الأوليمبوس علها تعثر على (اروس) • وبعيدا عثرت عليه فى بستان زيوس المحملة أشجاره بثمار الفاكهة ، لكنه لم يكن بمفرده بل كان برفقة جانيميدس الذى أحضره زيوس ذات مرة عندما اشتهى جماله من أجل أن يعيش مع الآلهة الخـالدين فى السماء • كان الصبيان المتماثلان فى طباعهما يلعبان النرد بقطع ذهبية وكان اروس الجشع واقفا وقد ملأ كف يده اليسرى بقطع النرد وضمها باحكام تحت صدره بينما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة لطيفة مثـل الوهج • وبالقرب منه كان الفتى الآخر متربعا فى جلسته وقد شعر بالانكسار ، اذ لم يتبق لديه سـوى قطعتين من النرد كان يلقى بهما الواحدة اثر الأخرى دون توقف ، وكان يتميز غيظا لقهقهة اروس العالية وكما هو متوقع فقد خسر القطعتين الباقيتين بسرعة مثلما فقد قبلهما القطع

الأخرى ، وقفل أدراجه عائدا عاجزا قليـــل الحيلة حتى أنه لم يلمح كيبريس (= أفروديتى) عند اقترابها • أما هذه فقد وقفت فى مواجهة ابنها ، وبعد أن أمسكت ذقنه بيدها قالت : « لم تبتسم ابتسامة الظفر أيها الخبيث الذى لا ينبغى التفوه باسمه ؟ لقد مارست معه الغش ، أليس كذلك ؟ ألم تفز عليه دون وجه حق لأنه لا يعرف أصول اللعب ؟ هيا تعال معى وقدم لى معروفا جئت أسألك اياه ، وفى مقابل ذلك سوف أمنحك تلك اللعبة الجميلة التى كانت لزيوس ، والتى صنعتها من أجله مربيته الرؤوم أدراستيا فى الكهف الايدى عندما كان طفـــلا يشتهى لعب الأطفال — وهى عبارة عن كرة ذهبية كاملة الاستدارة ليس بوسعك أن تظفر بأفضل منها من يد هيفايستوس • » »

ويصف الشـــــاعر بعد ذلك قصر الملك أيئيتيس Aeetês ملك كولخيس ووالد ميديا Mêdeia ، ويحكى لنا كيف تمكن اروس من تصويب سهم فتاك الى قلب ميديا فجعلها تهيم من فورها حبا بياسون• وينجح أبوللونيوس فى التعبير عن حالة الفتاة التى أصابها سهم اله الحب فقلب كيانها وجعلها لا ترى فى الدنيا شخصا سوى ياسون [١٥٦]:

« وبضحكة مرحة أسرع اروس عائدا من حيث أتى عبر الدهليز ذى السقف المرتفع ، تاركا سهمه اللافح كاللهب وقد ارتشق فى قلب الفتاة • وبعد برهة من الزمن صوبت مرة أخرى الى ياسون نظرة لامعة وقد نسيت كل شىء ما عداه ، بينما كان قلبها داخل صدرها يخفق بعنف مفعما بلذك العذاب الذى لا عهد له به وزاخرا بحلاوة هذا الألم •• »

ويمضى أبوللونيوس فى سرد أسطورته الشائقة فيصف لنـــا كيف رضخ ياسون لشروط الملك التى تقضى بذن يشد التطل الى النير ثيرانا تنفث نيرانا لافحة ، وأن يبذر أسنان تنين فى حقل بعد أن يقوم بحرثه كى تنبت فى الحال رجالا مسلحين عليه أن يقضى عليهم جميعا • وكان يتعين على البطل بعد ذلك أن يجهز على التنين المخيف الذى يتـــولى

حراسة الجزة الذهبية ، فاذا أفلح فى النجاة من كل هذه المخاطر واجتياز جميع هذه العقبات كانت الجزة الذهبية من نصيبه • ولم يكن هناك بد من أن يتلقى البطل مساعدة من الآخرين ليقهر كل هذه الصعاب المستحيلة ، ولذلك خططت الربة أثينا مع الربة أفروديتى كى تقع ميديا فى حبه فتمد له يد المساعدة • ونسوق فيما يلى فقرات مطولة من هذا الكتاب الممتع لنرى كيف استطاع شاعرنا الفذ أبوللونيوس أن يتتبع بمهارة تثير الاعجاب عاطفة الحب النامية فى قلب ميديا ، وكيف حالفه التوفيق فى تصوير هذه النفس الشاردة المضطربة أروع تصوير :

« وبعد أن نحت ميديا جانبا نقابها اللامع تركت عينيها الدهشتين تسعيان خلفه وتستقران عليه • كان قلبها يحترق من الألم الذى يعتصره وبعد أن غاب عن بصرها شعرت وكأن روحها قد فارقتها وسعت خلفه ، وكما لو كانت فى حلم أحست بأنها تطير خلفه بغير جناح ... [١٥٧] » •

« ألقت ربة الليل بظلالها على الكون ، وتطلع الملاحون من سفنهم الى صفحة السماء حيث برج الدب وحيث أرويون بنجومه اللامعة • والآن هفا المسافرون الرحل والحراس الى النعاس ، وسيطر الكرى الحزين أخيرا على قلوب الأمهات الثكالى المحزونات على فقد فلذات أكبادهن • وفى المدينة توقفت الكلاب عن النباح ، ولم تعد أصوات الرجال العالية تتناهى الى السمع وسيطر السكون على الظلام الحالك • لكن النعاس العذب لم يتطرق الى ميديا أو يزر أجفانها : فبسبب شوقها العارم الى ابن أيسون (= ياسون) تكالبت عليها هموم قاسية وجعلتها فريسة للسهاد • كانت ترتجف هلعا من قوة الثيران العاتية : اذ تخيلته وهو يواجهها فى ساحة آريس ويلاقى أمامها ميتة مزرية ، فانهمرت الدموع من عينيها شفقة عليه • كانت الآلام فى شغاف قلبها تعذبها عذابا مبرحا وكان جسدها كله يتلظى ، وغدا كل شريان رقيق فى جيدها يتلوى كما لو كانت سهام حادة قد اخترقت بعنف عنقها ، ذلك المكان

الذىكان أرباب الحب يهاجمونه دون كلل ولا هوادة ويسببون منه للقلب أوجاعا جسيمة • خفق قلبها بعنف داخل صدرها وغدت نهبا للاضطراب مثل بقعة من أشعة الشمس يتراقص ضوؤها على حائط بعد أن عكسته من على صفحتها مياه متدفقة صبت فى اناء كبير أو دلو ، على حين يقفز الضوء المتراقص هنا وهنالك بفعـــل اهتزاز المياه ودورانها فى حركة سريعـــة • كذلك كان قلب الفتاة يدور داخل صدرها مثـــل الدوامة (١٥٨) • »

« ففى لحظـــة يدفعها تفكيرها الى أنه ينبغى عليها أن تمنحــه التعويذة السحرية التى تقيه خطر الثيران ، ولكنها فى لحظة أخرى ترى أن هذا أمر لا ينبغى لها : فأهون من ذلك أن تلقى حتفها • ثم تقرر فجأة أنه ليس لها أن تموت ولا أن تمنحه التعويذة بل أن تتحمل قدرها وأن تصبر فى شجاعة على كل ما يصيبها • وبعد أن جلست انتابتها نوبة من التردد ثم أردفت قائلة : « يالى من تعسة ! أى شر ينبغى على أن أختار الآن ؟ اننى فى حيرة لا مثيل لها وليس هناك شفاء لآلامى التى تتأجج كالنار داخلى دون توقف رغم كل شىء • ألا ليتنى هلكت بسهام أرتميس السريعة قبل أن يقع بصرى عليه وقبل أن يأتى أبناء خالكيوبى بالسفينة الآخية الى هنا • لا بد أن الها أو غضبا مروعا قد ساقهم الينا ليسبب لنا آلاما فظيعة ودموعا غزيرة • فليمت اذن فى المعركة لو كان قدره أن يموت فى ميدان القتال : اذ كيف سأتمكن من اعداد التعويذة دون أن يعلم والداى ؟ وأية قصة سأروى لهما ؟ وأية حيلة أو أية خطة بارعة يتعين على أن أتوصل اليها كى تعيننى ؟ اننى شقية بائسة وليس لدى أمل أبدا فى أن أجد الراحة من أحزانى : فلو قضى نحبه سوف يخيم الحزن على لأنه فقد حياته • اللعنة على الحياء ! اللعنة على الاسم النبيل ! ألا ليته يذهب سالما الى حيث يهوى قلبه بعد أن أنقذه بمجهوداتى ! أما أنا فليتنى أموت فى اليوم الذى ينجز فيه بنجـــاح الاختيار الصعب الذى يواجهه ، سواء قضيت نحبى مشنوقة فى القصر

ومعلقة فى خطاف أم هلكت بالسم القاتل ! ولكن حتى بعد موتى سوف يصبون على اللعنات ويوجهون الى اللوم ، ولسوف تتحدث كل المدن القاصية عن مصيرى وتلوك نسوة كولخيس سيرتى ويصبح اسمى مضغة فى أفواههن ، ولسوف يهنئنى فى كل مكان ويسخرن منى قائلات : « هى الفتاة التى هامت حبا بغريب حتى أنها انتحرت من أجله ، هى الفتاة التى ألحقت العار ببلدها وبوالديها بعـــد أن سيطرت عليها عاطفـــة مجنونة • » فأى عار لن يلحق بى حينئذ ؟ والهف قلباه على عاطفتى المشبوبة ! لعل من الأفضل لى أن أودع الحياة فألقى ميتة غامضة فى غرفتى هذه الليلة ، فأنجو بذلك من اللوم والتشهير قبل أن أقدم على تلك الأفعال المخيفة التى لا ينبغى التفوه بها (١٥٩) » » •

« قالت هذا ثم أحضرت صندوقا يحوى عقاقير كثيرة منها المفيد ومنها المهلك الذى يجلب الموت ، ثم وضعته فوق ركبتيها وأخذت تبكى• بللت صدرها بدموع لا تنقطع كانت تنهمر كذى قبل مثل السيل ، حيث أنها كانت تبكى بحرقة على مصيرها التعس • فكم تاقت نفسها أن تتناول عقارا مميتا يهلكها ، وبالفعل شرعت الفتاة التعسة فى جذب مصراع الصندوق متلهفة على فتحه • لكن الخوف الرهيب من هاديس الكريه أطبق فجأة على قلبها وخيم عليها الصمت لفترة طويلة : اذ تراءت أمام ناظريها كل الأشياء السارة التى تاقت اليها فى الحياة ، وفكرت مليا فى المباهج التى ينعم بها الأحياء • فكرت كذلك فى رفيقات عمـــرها وسعادتهن كما تفكر فتاة يافعة مثلها ، وبدت الشمس لها أجمل من أى وقت مضى شاهدتها فيه وهفا قلبها حقا للتمتع بكل تلك المباهج • وضعت الصندوق جانبا بعد أن رفعته من فوق ركبتيها ، وتبدل قرارها مدفوعة بتأثير الربة هيرا عليها ولم تعد نهبا للتردد فى عزمها ، بل تاقت الى بزوغ الفجر بأسرع ما يمكن كى تمنحه التعويذة السحرية والرقى التى وعدته بها وكى تقابله وجها لوجه • وكثيرا ما قامت بجذب مزاليج الأبواب كى تلمح خيوط الفجر وهى تنتشر فى الأفق ، وامتلأت حبورا

حينما غمرتها أشعة الفجر بنورها وطفق الناس يتحركون ويسـعون فى المدينة (١٦٠) » •

« ورغم أن ميديا كانت فى ذلك الوقت تشدو وترقص مع رفيقاتها الا أن تفكيرها كان مركزا دوما فى نقطة واحدة ، ولم تعد هناك نغمة مهما كانت مفرحة الا وفقدت سريعا قدرتها على منحها الغبطة • وما بين الفينة والأخرى تترنح ثم تتوقف فى تردد فلم يكن بمقدورها اطلاقا أن تظل ناظرة الى جوقتها • كانت تحول بصرها عنهن كى تتفرس باحثة فى الممرات البعيدة ، وكانت على وشك السقوط مغشيا عليها أكثر من مرة حينما كانت تخطىء وتظن زفيف الريح وقع أقدام شخص يسير مقتربا • ولم ينقض وقت طويل حتى أهلت عليها طلعة ياسون لتكافىء انتظارها له بصبر نافذ • ومثل سيريوس الصاعـد من المحيط متألقا ووسيما لكنه يلقى بالرعب فى قلوب القطعان ، كذلك انتصب (ياسون) أمام بصرها رائعا أخاذا لمن يشاهده وحاملا فى الوقت نفسه متاعب جمة للفتاة الهائمة به حبا • توقف قلبها عن الخفقان وخيمت على بصرها سحابة من الضباب القاتم وغمرت وجنتيها حمرة قانية لافحة من فرط السخونة ، ولم تعد قادرة على أن تتقدم أو تتقهقر كما لو كانت قدماها قد سمرتا الى الأرض • وهنا بادرت وصيفاتها بالاختفاء ، أما العاشقان فقد وقفا وجها لوجه فى صمت ودون أن ينبس أحدهما ببنت شفة : مثل شجرتى بلوط أو صنوبر ترتفع هامتاهما شامختين جنبا الى جنب فوق قمة جبل والريح ساكنة ، لكن حينما تهب الرياح وتحركهما لاتكفان عن الحفيف • كذلك كان العاشقان بعد أن سرت فى كيانهما نسمة الحب يتهيآن كى يندفعا فى حديث متدفق (١٦١) • »

« هكذا تحدث (ياسون) فأقر بفضل (ميديا) وأثنى عليها ثناء جما ، على حين أطرقت هى برأسها منكسة بصرها الى أسفل وافتر ثغرها عن ابتسامة فى مثل عذوبة النكتار • انصهر قلبها وذاب فى صدرها اذ أحست بالتسامى لاطرائه ، ثم عادت وركزت بصرها على

وجهه وأطلت داخل عينيه • لم تكن تدرى كيف تبدأ حديثها معه ، اذ كانت تتوق من صميم قلبها أن تفضى اليه بكل أحاسيسها دفعة واحدة • ولم يخالجها أدنى تردد فأخرجت التعويذة من ثوبها الذى كان يتضوع عطرا ، فتلقاها هذا بين يديه فى ابتهاج وحبور • وانتابتها فرحة غامرة لاحساسها بحاجته اليها ، وودت لو أنها انتزعت روحها من بين جنبيها ومنحتها اياه : اذ كان ضياء اروس الجذاب يشع من رأس ابن أيسون الذهبى ببريق آسر جعله (اروس) ينفذ الى عينيها المتوهجتين• لقد لفح لهيب الحب قلبها فانصهر انصهارا وغدا مثل قطرات الندى التى تذوب حول أكمام الورود حينما تشرق عليها الشمس بأشعتها فى البكور • ولبرهة من الزمن ظل العاشقان ينكسان رأسيهما وهما ينظران للأرض فى حيرة وارتباك ، ثم شرع كل منهما يوجه من جديد الى رفيقه نظرات خاطفة مصحوبة بابتسامة تشع بضياء الحب على طلعتهما التى تتلألأ نورا (١٦٣) • »

واستطاع ياسون بفضل التعويذة السحرية التى منحتها له ميديا أن يشد الى النير الثيران التى تنفث نيرانا لافحة ، وأن يبذر أسنان التنين فى الأرض ، وأن يدفع العمالقة المسلحين الذين نبتوا منها الى مقاتلة بعضهم بعضا حتى يهلكون جميعا وينجو البطل • وبعد أن ينجز مهمته ويحصل على الجزة الذهبية يسارع بالهرب مع ميديا لتبدأ السفينة أرجو رحلة العودة الى بلاد الاغريق •

ويحتوى الكتاب الرابع على وصف مسهب للطرق التى سلكتها السفينة وفقا للروايات الأسطورية ، ومحاولة أهل كولخيس بزعامة أبسيريتس ، أخى ميديا ، مطاردة سفينة الأبطال ليقطعوا عليها سبل الفرار • لكن ميديا تمكنت من الايقاع بأخيها أبسيريتس وذبحه دون رحمة • ثم تابعت السفينة رحلتها الى ايطاليا وصادفت فى طريقها أهوالا عديدة منها الصخور المتحركة Symplêgades التى كانت دوما

تحطم السفن ، لكن بمعونة الربة أثينا مرت منها بســـلام • ويصف أبوللونيوس مرور السفينة أرجو بين هذه الصخور وصفا ساحرا ممتعا فى لوحة خلابة من الصعب نسيانها [١٦٣] :

« وهنا قابلتهم النيريديات (= عرائس البحر) سابحات من كل جانب (حول السفينة) ، على حين تقدمت كبيرتهن ثيتيس نحو مؤخرة السفينةووضعت يدها على دفتها كى تتولى قيادتها عبر الصخورالمتحركة ومثل أسراب الدلافين التى تتقاطر فى الطقس البديع بازغة من أعماق البحر وتلتف حول سفينة سريعة الأبحار ، فتراها طورا أمامها وطورا خلفهـا وطورا بجوارها ممـا يثلج صدور البحــارة ــ كذلك كانت النيريديات يتواثبن من الماء الواحدة اثر الأخرى ويحطن بالسفينةأرجو احاطة السوار بالمعصم بينما كانت ثيتيس توجه مسارها • وحينمـا أبصرن السفينة وهى على وشك أن تلمس الصخور المتحركة شمرن ثيابهن الى ما فوق ركبهن ذات البياض الناصع ، وأسرعن وكل منهن تبعد مسافة عن زميلتها تجاه الصخور نفسها حيث كانت الأمواج العاتية تتكسر على جانبى السفينة • لطم التيار الجارف جانب السفينة ومن حولها علت الأمواج الصاخبة وارتطمتبالصخور ، التى كانت آنا ترتفع حتى تكاد تبلغ عنان السماء بأطرافها المسننة ، وآنا تغوص فى الأغوار السحيقة حتى ترتكز فوق قاع البحــر حيث الأمواج الهادرة أبعــد ماتكون عنها من أعلى• ومثل الفتيات الصغيرات اللائى يرفعنتنوراتهن من كل ناحية حتى خصورهن ويلعبن بالكرة المستديرة على الشــاطىء الرملى ويلتقطنها واحدة من الأخرى ويقمن بقذفها عاليا فى الفضاء ولا يدعنها تلمس الأرض ــ كذلك كانت النيريديات بدورهن واحدة تلو الأخرى يرفعن السفينة عاليا فى الهواء فوق الأمواج ، ويحافظن دوما على ابعادها عن الصخور بينما كانت مياه البحر تتدفق وتفــور من حولهن •

كان الإله هيفا يستوس نفسه يقف على قمة صخرة مستوية مرتكزا

بكتفيه الثقيلتين على يد مطرقته وهو يراقبهن ، كذلك كانت (هيرا) زوجة زيوس تطل عليهن وهى واقفة فوق السماء اللامعة بينما طوقت بذراعيها الربة أثينى ، وكان الخوف الذى تملكهما كبيرا وهما تتطلعان الى هــذا الموكب • وبينما كان نهار الربيع يقترب من الغروب بذلت النيريديات جهدا كبيرا حتى أتممن سحب السفينة من بين الصــخور التى تردد الصدى كالزئير • ومن جديد أحس بحارة الأرجو بهبوب الريح فأطلقوا العنان للسفينة ، وسرعان ما تجوزوا مروج ثريناكيا التى كانت مرتعا لثيران الاله هليوس • وهناك غاصت عرائس البحر الى أعماق اليم مثل طيور النورس ، حيث أنهن قد أنجزن ما طلبته منهن (هيرا) زوجــة زيوس » •

وحينما وصلت السفينة الى ايطاليا تطهر ياسون من جريمتــه النكراء ، التى تخلص بها من أبسيرتيس ، على يدى الساحرة كيركى ، وفى أرض الفياكيين تزوج ياســون من ميــديا اعترافا بفضلها عليــه ومساعدتها له • وحينما ضلت السفينة طريقها بعد ذلك تولى اله البحر تريتون Tritôn قيادتها بنفسه حتى بلغت ميناء باجاساى Pagasai الذى كانت السفينة قد أقلعت منه فى بداية رحلتها المثيرة •

لقد نقدت « الأرجوناوتيكا » كثيرا على مر العصور واختلفت الآراء حولها من ناحية الاجادة والقصور : وحجة الفريق المعارض أن مؤلفها قد أثقلها دون داع بالاشــارات المتفقهة والتفاصيل المســهبة ، وأن بوسعنا حذف فقرات كثيرة بأكملها دون أن يختل بناء الملحمة العام ، كذلك غاب عن جو الملحمة الجلال والسمو فى أكثر الأحيان لأن بطلهــا ياسون كان متخاذلا ضعيفا ولولا مساعدة الآلهة له ووقوف ميديا الى جانبه بحبها وسحرها لما قام بتحقيق شىء يذكر • فأين ياسون هذا من أبطال العصر القــديم سواء فى الأساطير أو فى الملاحــم ؟ وأين هى السمات التى تجعله بطلا يناظر أنداده وتضفى عليه مواصفات البطولة التى أقرها الاغريق الأقدمون (١٦٤) ؟ •

ولـكن الرد على مثل هذه الاعتراضات أمر يسير : فالتفقـه والتفاصيل المسهبة كانت صفة من صفات التأليف وسمة من سـمات الشعر فى العصر السكندرى ، ومؤلفنا لو قورن بسواه من شـعراء العصر لما زاد عليهم فى هذا المقام • كما أن اظهار سعة العلم وغزارة الاطلاع لم تكن بالظاهرة الممقوتة عندهم كما هى بين ظهرانينا الآن بل يبدو أنها كانت تنم عن الدراية والخبرة وتكشف عن ثقافة الشـاعر ، بدليل أن كاليماخوس زعيم البرناس السكندرى كان من أكثر الشعراء ميلا الى الحذلقة العلمية ، وليس هناك شاعر يخلو انتاجه من هـذه السمة ماخلا ثيوكريتوس الذى أفاحت معظم قصائده من الوقوع فى مهاوى التفقه وانحدر عدد منها الى هذه الهاوية ، مما يقطع بأنها سمة من سمات التأليف الأدبى • أما عن ضعف بطلها وبعده عن مواصفات البطولة فى العصر القديم فأمر يدفعنا الى طرح سؤال جوهرى هو : هل كان أبوللونيوس يرغب حقـا فى جعـل بطله صـورة ممـاثلة لأبطـال العصـور القديمـة ؟ والاجابة على هـذا هى بالنفى دون شـك : اذ تغـيرت مواصـفات البطولة واختلفت مفهومها فى العصر السكندرى ايمانا من أدباء هذا العصر بأن البطولة الحقيقيـة لا تكمن فى قوة الجسد ولا فى سمو الفكر بل فى النمط العادى للسلوك الانسانى • فياسون بطل لأنه مثلنا تصرفاته هى بطولته وليس لأنه يملك قوة خارقة يصرع بها الوحوش ويقهر الأخطار ، وحتى لو كان قاهرا للوحوش فلن يجد من ينبهر بخوارقه أو يتحمس لسماع الحكايات التى تؤلف عنه •

حقا ان الأرجوناوتيكا لم تصل الى مستوى ملاحم العصر القديم ولكن السبب لم يكن عدم التزامها بخصائص الملحمة القديمة ، فلا يجدر بها أن تكون كذلك والا غدت مسخا مشوها • ومع ذلك فقد عبرت خير تعبير عن عصرها واتجاهاته ومن التعسف أن نقيسها بمقياس عصر لم تؤلف فيه أو تخضع لذوقه ومفاهيمه • وحتى لو افترضنا أنها طابقت

تماما شروط الملاحم القديمة فان احتمال تقبل معاصريها لها كان لا بد فاترا ، فليس من المنطقى أن يتحمس أهل العصر السكندرى لعمل لايعبر عن اتجاهاتهم وميولهم حتى لو كان بها شطط أو بعد عن الصواب من وجهة نظرنا نحن • لقد استطاع أبوللونيوس رغم كل شىء أن ينتج لنا ملحمة سكندرية قلبا وهومرية قالبا ، وأن يزاوج بين رغبته فى نظم الملحمة ورغبته فى أن يكون معبرا عن عصره ومفهوم البطولة فيـــه •

فاذا غضضنا النظر عن العيوب والآراء المتضاربة حولها سنجد دون شك المزايا والمحاسن التى لا سبيل الى انكارها أو تجاهلهـــا : فالكتاب الثالث من الأرجوناوتيكا — الذى نقل عنه فرجيليوس كتابه الرابع من الأينيدة — يعد وحده نتاجا فذا للعبقرية الشعرية ، الى جانب أنه أول عمل أدبى يحتوى على سمات الرومانسية فى تاريخ الأدب بوجه عام • فلم يسبق لأى شاعر قديم قبل أبوللونيوس أن صور عاطفة الحب الجارفة بمثل هذه الروعة ، أو تتبعها فى قلب امرأة بمثل هذا التفوق والصدق • ولم يتمكن أحد قبله — ونادرا ما استطاع من جاء بعده — من تحليل نفسية بطلته مثلما صنع شاعرنا مع ميديا • ولم يكتف أبوللونيوس بوصف المشاعر والأحاسيس بل زاوج فى مهارة بينها وبين الأعراض الفسيولوجية التى كثيرا ما تصيب المحب الولهان حينما تسيطر العاطفة على فؤاده •

لقد كان أبوللونيوس نسيجا وحده بين شعراء الاسكندرية فى التعبير عن عاطفة الحب : فرغم أن الحب كان موضوعا شائعا عند كافة الشعراء فى ذلك العصر ، الا انهم كانوا يجنحون فى التعبير عنه عادة الى التكلف والتظرف والعـــواطف المبتذلة الخالية من الصـــدق • أما أبوللونيوس فيختلف عنهم فى أنه يمتاز بالصدق والتلقائية والتدفق الذى ينم عن قدرة ابداعية مدهشة ، لذلك نجح فى أن ينظم ملحمة حب

لأول مرة وأن يجعل الحب موضوعا للملاحم بعد أن كان وقفا على القصائد القصيرة .

لقد تفوق أبوللونيوس فى هذا الكتاب ونال نجاحا منقطع النظير فى كل فقرة من فقراته ، وحالفه التوفيق تماما فى الوصف والتحليل والسرد القصصى والتحمس للموضوع بحيث يمكن اعتباره دون شطط رائد المدرسة الرومانسية وواضع أسسها .

هيرونداس :

لا نعلم عن هيروندايس Herôndas — الذى عرف أيضا باسم هيروداس Herôdas أو هيروديس Herôdas — سوى النزر اليسير : فمن المحتمل أنه ولد بمدينة أثينا وأمضى شطرا كبيرا من حياته فى جزيرة قوص كما زار الاسكندرية عدة مرات . ولقد ازدهر هيروندايس على الأرجح حوالى عام ٢٤٠ ق.م. وكان معاصرا للشاعر ثيوكريتوس الذى عاش معه فترة من الزمن فى جزيرة قوص ، ومما يستحق الذكر أن كلا من الشاعرين ثيوكريتوس وهيروندااس قدتأثر بالكاتب الصقلى القديم سوفرون Sôphrôn (القرن الخامس ق.م.) فى تأليف الميميات mimoi : حاكاه الأول بقصائده الدرامية والثانى بميمياته . وسواء أكان ثيوكريتوس أسبق من هيروندااس فى تأليف هذا النمط الأدبى أم لا ، فهناك على الأقل فرق فنى بين قصائد ثيوكريتوس الدرامية التى كان يرسم عن طريقها لوحة شعرية لواقع معاصر وبين ميميات هيرونداس التى كان يهدف من وراء نظمها الى محاكاة الواقع المجرد كما هو دون زخارف لفظية أو تنميق فنى (١٦٥) .

ولم تكن العصور الحديثة تعرف شيئا عن أعمال هيرونداس الى أن نشر الأستاذ ف.ج. كينيون F.G. Kenyon بردية من مقتنيات المتحف البريطانى عام ١٨٩١ ، تحتوى على ثمان ميميات من أعمال

هيروندلس آخرها مكونة من بضع أبيات فقط • واللهجة الغالبة على هذه الميميات هى اللهجة الايونية أما وزنها فكان البحر الخولياميى أو الايامبى الأعرج Skazon الذى ابتدعــه شاعر الهجاء القــديم هيبوناكس (١٦١) •

ومن الغريب أن هيروندلس قد حاكى سوفرون فى موضوعاته لكنه استخدم الشعر بدلا من النثر كاطار يؤلف فيه ميمياته ، كما أنه حاكى هيبــوناكس فى أوزانه ولهجتــه الايونيــة ولكنه لم يلق بالا الى موضوعاته (١٦٧) •

وأول هذه الميميات بعنوان « القوادة » أو « صانعة الزيجات » Prokyklis ê Mastropos وهى عبارة عن محاورة بين قوادة عجوز تدعى جيلليس Gyllis وبين متريخى Metrichê ، وهى سيدة تغيب عنها زوجها المدعو ماندريس Mandris لمدة عشرة شهور فى مصر التى تصفها جيلليس بأنها موطن أفروديتى حيث يجد المرء كل شىء أيا كان نوعه • وبينما كان ماندريس يجرع فى شراهة كئوس النبيذ المصرى كان جريللوس Gryllos ، وهو فتى رياضى مفتول العضلات يحوم حول متريخى ليرشف معها كئوس الهوى • ويتضح لنا أن العجــوز جيلليس تحرض متريخى على الاستجابة لاغراءات الشاب جريللوس والاستسلام له مقابل عمولة تظفر هى بها ، ورغم أن متريخى تصــد العجوز الماكرة أول الأمر الا أنها ما تلبث أن تأنس اليها وتفضى اليها بهمومها ثم تصرفها بلطف بعد أن تقدم لها كأسا من النبيذ • ولا ندرى أن كانت القوادة جيلليس قادمة الى الزوجة متريخى بايعاز من الزوج ماندريس كى ترى ما اذا كانت متريخى باقية على العهد مخلصة له أم لا ، أو أنها قادمة اليها من قبل الشاب الرياضى جريللوس كى توقع بها فى حبائله •

أما الميمية الثانية فتحمل عنوان « النخاس » Pornoboskos

ونشاهد فيها رجلا يدعى باتاروس Battaros يدير ماخورا للدعارة وهو يلقى خطبة نارية فى قاعة المحكمة ضد خصمه التاجـر طاليس Tralês متهما اياه بالسطو على داره وخطف احدى البغايا منه ، وهى خطبة أغلب الظن أنها دونت للنخاس على يد ريتوريقى ماهر . ولقد حاول هيرونداس أن ينقلنا بهذه الخطبة الى جو القضاء الأثينى كى يسخر منه ويبين لنا مواطن قصوره ، فالنخاس باتاروس ليس بأكثر وقاحة وشرا من عملاء الخطيب الأشهر ليسياس Lysias ونسوق فيما يلى جزءا من هذه الخطبة الساخرة (١٦٨) :

« باتاروس : فربما يقول لكم (طاليس النخاس) : « جئت ذات مرة من آكراى (؟) حاملا معى القمح وأنهيت المجاعة . » أما أنا فقد جلبت البغايا من صور ، فأى فائدة اذن تعود على الشعب من وراء هذا ؟ إن منحته التى قدمها لـكم من القمح لم تكن دون مقـابل فى الحقيقة ، وكذلك كانت منحتى . أفهل لأنه يشق عباب البحر أو يملك معطفا قيمته ثلاث مينات على حين أعيش أنا على البر وأرتدى سترة رثة بالية ونعالا ممزقة عفنة ، يعطى لنفسه الحق فى أن يقتاد احـدى فتياتى بالقوة وفى جنح الليل رغما عنى ؟ فقل اذن على المدينة وأمنها السلام ووداعا ، أيها السادة ، لكل ما تباهون به : ان طاليس سوف يضع حدا لاستقلالكم وحريتكم . أفلم يكن من الأجدر به أن يتذكر حقيقته والصلصال الذى خلق منه ، وأن يعيش مثلى خانعا ذليلا حتى أمام أقل المواطنين شأنا ؟ ولكن الآن نجد أولئك الذين يعدون حمـاة المدينة والذين يتيهون زهوا لعراقة محتدهم يحترمون القانون ويوقرونه أكثر مما يفعل هو . اذ لم يمد أى مواطن منهم يده إلى بسوء ، أنا الأجنبى ، لا ولم ينتهك حرمة منزلى تحت ستار الليل أو يضرم النار فى دارى بمشاعله أو يقبض على واحدة من بغاياى ويقتادها بعيدا بالقوة . لكن هذا الفريجى الذى يدعى الآن طاليس ، وكان قبلا يا سادتى يسمى

أرتيميس ، قد اقترف كل هذا ولم يراع حرمة قانون ولا راع ولا حاكم » •

وفى الميمية الثالث التى تحمل عنوان « المعلم » Didaskalos ينقلنا هيرونداس الى مدرسة أولية حيث المعلم لامبريسكوس Lamprisko يلقن صغار التلاميذ مبادىء القراءة والكتابة ، ونرى الأم الغاضبة ميترومينى Mêtrominê تدخل عليه وهى تجر خلفها ابنها كوكالوس Kokkalos الذى اعتاد الهروب من المدرسة مما يحدو بها الى أن تطلب من المعلم عقابه • فلم يكن كوكالوس مثل سائر أقرانه يذهب بانتظام الى المدرسة أو حتى يتسلى فى هدوء بلعبه فى المنزل ، بل كان يخالط الحمالين السود والعبيد الآبقين فى الأحياء القذرة ، ولم يكن يطيق مرأى لوح كتابته بل كان يتركه باهمال بجوار الحائط رغم أن أمه كانت تشقى طوال الليل من أجل طلائه بالشمع ليصبح صالحا للكتابة (١٦٩) :

« كان يرتاد أماكن اللعب والمقامرة حيث يقطن الحمالون والعبيد الآبقون وكان يعرف جيدا كيف يدلك على أماكن أخرى • فى حين كان لوح كتابته المنكود الذى كنت أقوم كل شهر بطلائه بالشمع ملقى كاليتيم على الأرض ومسندا الى الحائط كدعامة » •

ورغم أن والده العجوز كان يحاول مساعدته فى التدريب على القراءة الا أن كوكالوس كان شارد الذهن دوما فلم يتعلم حتى الحرف الأول من الأبجدية ، وحينما كان يزجره أحد أو يعنفه فانه كان يلجأ الى أحضان جدته لتحميه أو يتسلق جدار المنزل حتى سقفه مثل القرد متسببا فى اسقاط القرميد الذى يكسوه • وبعد أن تسرد ميترومينى على المعلم تصرفات التلميذ الشاذة يستشيط الأخير غضبا ويأمر بجلده جزاء وفاقا على ما جنت يداه ، وكانت طريقة الجلد تقتضى أن يمسك بالمذنب

اثنان من زملائه الأشداء ثم ينهال المعلم على ظهره بسوط ثقيل مصنوع من ذيل ثور حتى يدميه ، ونسوق هنا فقرة من الحوار الذى دار بين المعلم المهتاج والتلميذ التعس(١٧٠) :

« لامبريسكوس : أين السوط الثقيل المصنوع من ذيل الثـــور والذى أعاقب به العصاة والمارقين ؟ من ذا الذى يناوله لى فى يدى قبل أن أنفجر من الغضب ؟

كوكالوس : لا ، لا ! أتوسل اليك ، يالامبريسكوس ، بحق ربات الشعر وبحياة صغيرتك كوتيس ألا تضربنى بالسوط الثقيل بل استخدم السوط الآخر فى جلدى ! »

ويمكننا أن نقارن الميمية الرابعة التى تحمل عنوان « المتقدمات بالنذور والأضاحى لأسكليبيوس » Asklêpiôi Anatitheisai kai Thysiazousai بالقصيدة الدرامية « السيراكوسيات » التى نظمها ثيوكريتوس : فالميمية تدور فى معبد اله الطب أسكليبيوس فى جزيرة قوص حيث تحضر السيدة كوكالى Kokkalê وزميلتها كينـــو Kynnô ديكا كى تقـــدماه قربانا للاله . وقبـــل أن تدخلا المعبد انشغلتا فى تفحص التماثيل المنتشرة خارج المعبد ، ثم بعد أن سمح لهما سدنة المعبد بالدخول انبهرتا بالرسوم واللوحات التى كانت تزين جدران المحراب من الداخل . وكان من بين هذه الأعمال الفنية احدى لوحات أبيلليس Apellês ، أشهر رسامى ذلك العصر ، ويبدو أن تأثر هيرونداس بالمذهب الواقعى — وهو ما يبدو جليا فى أشعاره — قد حمله على الاعجاب بواقعية أبيلليس فى رسومه ، فأنطق السيدتين بانطباعاته وآرائه عن هذه اللوحة التى أبدعتها ريشة أروع رســـامى العصر (١٧١) :

« كينو : يالها من صادقة ، ياعزيزتى ، تلك الأنامل التى صاغ

بها ابيليس من افسوس كل خطوطه ، حتى أنه ليس بمقدورك القول ان هذا الرجل قد رأى جانبا وأغفل الآخر لكنه فى كل ما أبدع كان ملهما بعبقرية ومدفوعا بلمسة من لدن الآلهة • فليت من يراه أو يرى أعماله دون أن يفغر فاه دهشة عن حق يعلق من عقبيه فى محل قصار ! »

وتجرى أحداث الميمية الخامسة التى تحمل عنوان « الغيورة » Zêlotypos فى أحد منازل أفسوس ، وتتقاسم بطولتها ثلاث شخصيات بيتينا Bittina المحظية الغيورة ، وجاسترون Gastrôn عبدها وعشيقها فى الوقت نفسه ، وكيديللا Kydilla خادمتها المخلصة • يكاد الشك يقتل بيتينا حينما يخامرها الظن بأن جاسترون النهم يشبع فحولته مع نساء أخريات ، ولخوفها على حيويته أو لغيرتها الشديدة عليه تأمر بأن يجلد ألف جلدة على ظهره وألفا أخرى على بطنه ثم يكوى بعدها بالحديد الساخن • لكن كيديللا الشفوقة ذات المشاعر النبيلة تتوسط لدى سيدتها من أجل تخفيف العقوبة عن العبد التعس أو على الأقل ارجائها •

ونجد فى الميمية السادسة وعنوانها « المتحابتان أو المنعزلتان » Philiazousai ê Idiazousai احدى سيدات افسوس واسمها ميترو Mêtrô تذهب لمقابلة صديقتها كوريتو Korittô كى تسألها من أين تشترى احدى ضرورياتها النسوية الخاصة التى يطلق عليها الشاعر اسم baubôn (وأحيانا olisbos) • وتجيبها الصديقة بأن خير من تجد لديه مبتغاها هو التاجر كيردون Kerdôn ، وهو صانع أحذية ويمارس فى الوقت نفسه أعمالا مريبة • وتسرع بعد ذلك ميترو على الفور الى حانوت كيردون كى تحصل على ما تطلبه •

وتكمل الميمية السابعة التى تحمل عنوان « صانع الأحذية » Skytcus موضوع الميمية السابقة ، اذ تدور أحداثها كذلك فى حانوت كيردون بعد أن أصبحت ميترو عميلة مقربة اليه الى حد أنها

غدت تحضر معها صديقاتها لشراء ما يحتجن اليه من لوازم النساء ، وكان من بين ما تشتريه هؤلاء السيدات ما يخجل الذوق عن ذكره . ورغم أن أثمان هذه السلع كانت مرتفعة الا أن فصاحة كيردون وذرابة لسانه كانتا كفيلتين بارضاء السيدات جميعا ، فكانت كل واحدة منهن تخرج من حانوته وهى محملة بالبضائع والبشر يطفح من وجهها رغـم خواء حافظتها .

ويروى شاعرنا هيروندااس بنفسه أحداث الميمية الثامنة والأخيرة التى تحمل عنوان « الحلم » Enypnion فيخبرنا أنه أيقظ خدم مزرعته ذات صباح قارس البرد من أيام الشتاء ليقص عليهم حلما غريبا رآه فى نومه ، مؤداه أنه قدم قربانا الى ديونيسوس عبارة عن عنز قسمها بعد ذلك بين الرعاة وبين شخص مجهول تراءى له فى صورة كهـل معقوف الأنف (١٧٣) :

« حيث أننى قدمت لديونيسوس عنزا حنيذة فسوف أنال منـه جائزة قيمة . وحيث أن الرعاة قد اقتسموا العنز فيما بينهم فسـوف يتقاسم المتشاعرون أعمالى ... وحيث أن الكهل ذا الأنف المعقوف قد شاركنى فى العنز فسوف تمنحنى الموسيات الخلود بسبب بحـورى الايامبية أو بسبب أننى نظمت على طريقة هيبوناكس بحور شعر عرجاء لبنى جلدتى من نسل كسيثوس » .

لقد كان هيروندااس واقعيا مسرفا فى واقعيته وبهذه الصبغةتميز كل موضوع تناوله ، لكنه لم يستطع الوصول بلغته وتعبيراته واطاره الشعرى الى مستوى واقعيته . ولقد حار الباحثون زمنا فى الكشفعن حقيقة لغة هيروندااس ، فظن بعضهم أن لغته هى لغة الحديث اليومى فى العصر الهيلنستى انطلاقا من كونه كاتب ميميات ينقل الواقع دون تحوير . لكن الدراسات البرديةالتى تناولت أسلوب الرسائل الشخصية المدونة خلال تلك الحقبة أثبتت خطأ هذا الظن وبرهنت على أن لغة

هذه الرسائل هى اللهجة العامة Koinê dialektos التى كان يتحدث بها الناس فى ذلك العصر . ولقد تبين أن هيرونداس دون ميمياته بلهجة أتيكية أساسا بعد أن مزجها بكثير من التعبيرات والألفاظ الايونية مقلدا هيبوناكس فى لغته كما قلده فى أوزانه الايامبية العرجاء (الخوليامبية) ، ومع هذا فقد عجز هيرونداس عن محاكاة الأوزان باتقان تام اذ منح نفسه حرية كبيرة فى مخالفتها وكسرها وحينما كان يضع نصب عينه الالتزام بالوزن الصحيح بكل دقة فان النتيجة تكون تشويه الصور البلاغية والمعانى الرائعة التى يريد التعبير عنها (١٧٣) .

وكان النمط الأدبى الذى نقل عنه هيرونداس ميمياته هو النمط الـــذى ابتكره سوفرون الصقلى فى القرن الخامس ق.م. ، لــكن سوفرون كان ناثرا ولم يك شاعرا فاختار هيرونداس أن ينقـــل عن سوفرون موضوعاته وأن يصوغها فى قالب شعرى نقله عن شاعر الهجاء هيبوناكس . وكان من نتيجة هذا المزج الغريب أن شاعرنا قد ابتعد فى أسلوبه ولغته عن واقعية صوره وأفكاره ، لأن شخصيات موضوعاته لم تكن تنطق بلغة واقعية ملائمة لها . هيرونداس اذن مثير للاهتمام ولكنه بعيد عن الامتاع لأن ميمياته فقدت كثيرا من رونقها بسبب افتقار لغتها الى الواقعية طورا وبسبب غموض تعبيراتها طورا آخر ، ولأن ألفاظها أحيانا مقذعة وأحيانا تافهة . فلم يستطع هيرونداس أن يبلغ المستوى الأدبى الرائع الذى بلغه ثيوكريتوس فى قصائده الدرامية الثلاث ، ورغم أن الواقعية كانت أساسا اعتمد عليه الشاعرين فى مؤلفاتهمـــا الا أن هيرونداس اكتفى بتصوير شريحة من الواقع بطريقة تكاد تكون تسجيلية وكأنه يرصد سلوك الناس فى حياتهم اليومية ويختار من هذا السلوك ما يستحق أن يعرض لطرافته . أما ثيوكريتوس فكان يحول الحياة اليومية لأفراد الشعب الى أدب رائع لا يفتر الاهتمام به مع الزمن ، وكان لا يصور شخصياته بطريقة فوتوغرافية بل كان يتعمق داخلها ويحلل نفسياتها أو يفصل الدوافع التى تحدو بها الى مثل هذه

التصرفات ، وكان يصوغ ذلك كله فى لغة ذات مستوى أدبى رائع .
ومع ذلك فما من أحد ينكر أن ميميات هيروتداس مستمدة كلها من واقع الحياة المعاصرة بكل ما فيها من دقائق حتى ولو بلغت حد الاسفاف ، وأن موضوعاته صادقة تماما وواقعية تماما لأنه عايش أحداثها بوجدانه وعبر عنها باخلاص وتحمس دون أن يزدريها أو يستنكف أن يصفها .

كركيداس :

عاش كركيداس Kerkidas من ميجالوبوليس Megalopolis فى الفترة ما بين عام ٢٩٠ ق.م. وعام ٢٢٠ ق.م. ، وكان صديقا لأراتوس Aratos حاكم سيكيون الذى أرسله حوالى عام ٢٢٦ ق.م. الى أنتيجونوس دوسون كى يناشده التدخل بالنيابة عن الحلف الآخى ضد كليومينيس ملك اسبرطة . وورد عند بوليبيوس أنه فى عام ٢٢٢ ق.م. وقبل معركة سيلاسيا Sellasia كان كركيداس قائدا لفرقة مكونة من ألف رجل من ميجالوبوليس ، وتذكر المصادر القديمة أنه كان مشرعا ناجحا وأنه أقام فى كريت فترة من الوقت ابان عصر الطغيـــان الذى ســاد مسقط رأســه خــلال حكم ليدياداس عام ٢٣٥ ق.م. (١٧٤) .

والى جانب اهتماماته السياسية كان كركيداس شاعرا وفيلسوفا من أتباع المدرسة الكلبية ، ولم نكن نعرف من أشعار كركيداس سوى عدة شذرات متفرقة منظومة فى البحر الخولياميى (الايامبى الأعرج skazôn) وتدور حول مهاجمة الترف والتنعم ، لكن الباحثين بذلوا جهدا مضنيا أثبتوا بعده أن كركيداس هو مؤلف عدة نصوص ذات مضمون أخلاقى تم العثور عليها مدونة على الأوراق البردية ، وتتشابه مع مؤلفات فوينكس الكولوفونى Phoinix (١٧٥) . وتعرف أشهر قصائد كركيداس باسم القصائد الميامبية Meliamboi : وهى عبارة عن قصائد غنائية فى صورتها هجائية فى مضمونها ، وتوضح هـذه

القصائدأن كركيداس شاعر ماهر فى صياغة الأوزان وناقد حادالبصيرة واع بمشكلات عصره الاجتماعية • ورغم أن كركيداس كان من طبقة الأثرياء والموسرين الا أنه فى قصائده قد دافع عن الفقــراء وناصر الكادحين والمعدمين ، وهاجم الأغنياء الذين كثيرا ما تحفــل حياتهم بالرذائل مطالبا اياهم بالاقلاع عنها بينما الفرصة فى مقدورهم (١٧٦)•

وكان كركيداس يعكس فى أشعاره وجهة نظر الفلسفة الكلبيــة وتهكمها وسخريتها من مثالب المترفين ، وكان فى اتجاهه هذا واقعا تحت تأثير الفيلسوف الكلبى كراتيس الطيبى والفيلسوف مينيبوس من جادارا • ولكنه كان يحمــل تقديرا خاصا لآراء الفيلســوف الكلبى ديوجينيس ، ويدين فى الشكل الفنى لأشعاره للفيلسوف بيون الذى اشتهر بفن كتابة المقال diatribê الساخر • ولقد أضاف كركيداس الى هــذه العناصر التى طبعت أسلوبه عناصر أخرى من الأشــعار الديثيرامبية ومن الكوميديا القديمة ومن قصائد الشــاعر تيمون من فليوس • ولقد أظهر كركيداس سعة اطلاعه بكثرة مقتطفاته من أشعار هوميروس التى كان من المعجبين بها ، وكذلك من أشعار يوريبيديس • وكان يحسن استخدام هذه المقتطفات ويطوعها كى تلائم الروح الكلبية • وكانت اللهجة المستخدمة فى القصائد المليامبية هى اللهجــة الدورية الأدبية التى تخلو من الألفاظ المحلية الغريبة والكلمات التى تنم عن التفقه وسعة العلم (١٧٧) •

ونقدم فيما يلى ترجمة لاحدى قصائد كركيداس المليامبية التى تبين بوضوح نزعته الفلسفية والى حد ما غموض تعبيراته وافتقارها الى الترابط والسلاسة (١٧٨) •

« كثيرا ما يخضع الانسان الفانى بغير رغبة منه لنوازعه ويصبح لها أسيرا (؟) • وأنت تملك فى صدرك قلبا صلبا لا يلين ولا يقهر بحال من الأحوال تناضل به ضد جميع رغبات الجسد الغليظ ، التى

يغذيها أهل الشراهة والنهم • ولم يغب عنك أى شىء جميل على هذه الأرض ، بل حافظت دائما داخل صدرك على كافة مخلوقات ربات الشعر الرقيقة (؟) •

أى نفسى ، انك حقا صائدة كل البيريديات (= الموسيات) وأفضل من يقتفى أثرهن • والآن وقد كللت الشعيرات البيضاء رأسى وتناثر قليل منها على الجانبين كزغب الصوف، فما زالت لحيتى صفراء وما زال ربيع عمرى ينشد كل ما هو جميل وبوسعى أن أمدح وأتزلف الى ماهو جدير بسنوات عمرى • الآن أتطلع الى درب حياتى العريض وهويقترب من نهايته •••• »

حـــواشى الفصـــل الثـــانى

(١) A. Lesky, op. cit. , p. 689.

(٢) من قبل اقدم الشعراء على تاليه العاهل بطلميوس سوتير وزوجته برنيقى ، وادعى بعضهم ان خصلة الشعر التى قصتها برنيقى لدى عودة زوجها سالما من حربه فى سوريا قد صعدت الى السماء وصارت مجموعة من النجوم بجوار الدب الاكبر .

(٣) apud A. Lesky, op. cit., p. 747.

وحول هذا الموضوع تدور الرسالة التى تقدم بها استاذى الراحل د . محمد صقر خفاجة الى السوربون ونال عنها درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس . فلقد اثبت فيها أن معالجة ثيوكريتوس لقصـــــة دافنس Daphnis الراعى الاسطورى مع سيده الذى كان يكن له البغض ماهى الا نوع من الادب الرمزى قصد به ثيوكريتوس تخليد ذكرى زميله سوتاديس الذى قضى نحبه . فسيد دافنس قد ضاق ذرعا بغنائه وحنق عليه لشدوه ولذلك حبسه فى صندوق ليهلك ، لكن ربات الشعر بعثن اليه بكاهنات دلفى الميسيات Melissai يطعمنه بالعسل كى يظل حيا رغم انف سيده . وبالمثل فان فيلادلفوس قد تميز غضبا لتطاول سوتاديس عليه فأمر بوضعه فى صندوق مغلق والقائه فى اليم ، ولكن ربات الشعر منحنه الصيت الذائع والخلود رغم موته ورغم حقد مولاه .

(٤) A. Lesky, op. cit., p. 740.

(٥) Ibid., pp. 768 & 671.

(٦) F. A. Wright, op. cit. , pp. 66 — 67.

(٧) Horace , Epistulae, ii. 2, 60 : « ille Bioneis Sermonibus et sale nigro. »

(٨) A. Lesky, op. cit., p. 670.

(٩) F. A. Wright, op. cit., p. 75.

(١٠) A. Lesky, op. cit., p. 578, 690 - 691.

(١١) Ibid., pp. 691 - 692.

(١٢) ولقد انتشر هذا الشكل فى العصور التالية انتشارا ملحوظا فلدينابرديةمن العصر الرومانى [P. Freib., I (1914), no 2] دونت عليها سيرة الاسكندر الاكبر فى قالب محاورة بين عدة شخصيات معاصرة له هى: منيسيبوس Mnêsippos ، كاليستراتوس Kallistratos كاشاندروس Kassandros ، وانتيباتروس Antipatros .

(١٣) F. A. Wright, op. cit., p. 76; A. Lesky, loc. cit., p. 691 .

(١٤) وبالتحديد حتى موت ملك اسبرطة كليومينيس الثالث (٢٢٠ — ٢١٩ ق.م.) ، اى بعد فترة زمنية وجيزة من هزيمة ذلك الملك على يد مقدونيا فى موقعة سيللاشيا Sellasia (٢٢٢ — ٢٢١ ق.م.) .

(١٥) A. Lesky, op. cit., p. 764.

(١٦) سيباريس مستعمرة اسسها الآخيون فى جنوب ايطاليا ، وكانت لها اهمية تجارية فى القرن السادس ق.م. الى أن دمرتها جارتها الجنوبية كروتون Kroton عام ٥١٠ ق.م. ويروى لنا فيلارخوس أنه فى سيباريس كان من حق صانعى الصبغة الارجوانية عدم دفع ضرائب للدولة ، وتمتع بهذا الحق ايضا بائعو هذه الصبغة والصيادون الذين كانوا يجلبون ثعابين البحر التى تصنع منها هذه الصبغة . ثم يخبرنا فيلارخوس أن الطباخين الذين كانوا يبتدعون طريقة لطهو طبق جيد كانوا يتمتعون بحق احتكار بيعه لمدة عام ، كما يحكى لنا عن عادات رجال سيباريس ونسائها وعن تبذلهم وحبهم للحياة الماجنة . ولقد وصف فيلارخوس اهل بيزنطة وصفا مماثلا فروى لنا أنهم كانوا يحبون النبيذ حبا جما — وانهم بسبب ذلك كانوا يمضون جل وقتهم فى محلات بيع الخمور تاركين منازلهم للاجانب ، وانهم كانوا لا يطيقون سماع صوت الطبول حتى ولو كانوا مستغرقين فى النوم .

(١٧) apud F. A. Wright, op. cit., p. 77.

(١٨) idid., p. 78.

(١٩) O. C. D., s. v. Hieronymus, p. 515.

(٢٠) A. Lesky, op. cit., p. 768.

(٢١) O.C.D., s.v. Herophilos, p. 510; P. M. Fraser, op. cit, pp. 348 ff.

(٢٢) A. Lesky, op. cit., p. 795; Istoria tou Ellenikou Ethnous (= A History. of the Greek Nation) , by a Group of Scholars (in Greek) , Athens (1974) , vol. vi, p. 340.

(٢٤) Cf. O. C. D., p. 510; History of the Greek Nation, pp. 341 - 342.

ولقد عاش جالينوس Galênos فى برجامون فى الفترة من حوالى ١٢٩ حتى ١٩٩ ميلادية ، وكان اكبر اطباء عصره رغم انه بدأ حياته الطبية بداية متواضعة . اما كلسوس Celsus فقد عاش فى عصر تبيريوس والف موسوعة تتضمن معلومات مفصلة عن الزراعة والطب والعلوم العسكرية والريتوريقا بالاضافة الى الفلسفة والتشريع .

(٢٣) O. C. D., s.v. Erasistratus, p. 404 ; A. Lesky, op. cit., p. 795.

ولقد وفد اراسستراتوس الى الاسكندرية عام ٢٦٠ ق.م. ولكننا لا نعرف عن مؤلفاته سوى الاشارات المتفرقة اليها فى اعمال كل من جالينوس وكلسوس .

(٢٥) O.C.D., p. 405 ; History of the Greek Nation, pp. 340 ff .

وفى المرجع الاخير نجد اشارة الى ان جالينوس قد ذكر نقلا عن اراسستراتوس ما يلى :

« ان المخ بواسطة اعصاب اسفل الراس يمنح المقدرة على الحس عن طريق نوع من الاعصاب ، وعن طريق نوع آخر من الاعصاب يمنح المقدرة على الحركة » .

(٢٦) Cf. History of the Greek Nation, pp. 323 - 325; A. Lesky, op. cit., p. 792; O.C.D., s.v. Aristarchus, p. 109.

(٢٧) Cf. A. Lesky, op. cit., p. 791; O.C.D., s.v. Archimedes, pp. 98 - 99.

(٢٨) History of the Greek Nation, p. 319.

(٢٩) كان القدماء فى ذلك العصر يعتقدون ان الارض عبارة عن كرة معلقة فى الفضاء الكونى غير انها ساكنة لا تتحرك . وكان ارخميديس يقصد بهذه العبارة أن بوسعه تحريك الكرة الارضية لو وجد مكانا يقف عليه فى الفضاء الشاسع .

(٣٠) History of the Greek Nation, pp. 319 - 320.

(٣١) Ibid., p. 321.

(٣٢) Cf. A. Lesky, op. cit., p. 786; F. A Wright, op. cit., p. 81.

(٣٣) History of the Greek Nation, p. 390; P. M. Fraser, Ptolemaic Alexandria, p. 777.

(٣٤) بمعنى انه كان بارعا فى عدد من التخصصات فى آن واحد : والكلمة مأخوذة عن لعبة البنتاثلون (الخماسى) to pentathlon التى كانت عبارة عن مباراة تتألف من خمس لعبات مختلفة تؤدى معا وهى :

ا ــ القفز halma

ب ــ رمى القرص diskos

جـ ــ العدو (الجرى) podôkeia أو dromos)

د ــ المصارعة palê

هـ ــ الملاكمة pygmê

غير أن الملاكمة استبدلت فى فترة لاحقة برمى الرمح akôn (أو akontisis)

(٣٥) وكان مع اريجونى كلبها الوفى مايرا Maira الذى حولته الآلهة ايضا الى برج سماوى عرف باسم برج الكلب الاكبر . ولقد اثنى لونجينوس فى عمله المشهور (Peri Hypsous, 33 - 5) على هذه القصيدة بقوله : « ومن جديد فى قصيدة اراتوسثينيس « اريجونى » ، وهى قصيدة قصيرة تخلو تماما من الخلل ، نجد شاعرا اعظم من ارخيلوخوس . فرغم أن شعره يبدو احيانا غير مرتب الا انه شعر يفيض بدفقات من الالهام المقدس يصعب اخضاعها للقواعد والقوانين » .

(٣٦) وصلتنا من قصيدة « هرميس » شذرة مكونة من ١٧ بيتا عن المدارات الخمسة ، وهى الفقرة التى نقلها فرجيليوس نقلا حرفيا فى كتابه الاول من الزراعيات Georgica (بيت ٢٣٣ وما بعده) ، والتى تبدأ على النحو التالى : quinque tenent caelum zonae . . etc.

(٣٧) عن اعمال اراتوسثينيس الادبية انظر :

A. Lesky, op. cit., pp. 785 ff; O.C.D., s.v. Eratosthenes, p. 405.

(٣٨) Cf. A. Lesky, ibid., p. 786.

وهناك عمل آخر الفه اراتوسثينيس بعنوان Platônikos يستخدم فيه طريقة التصفية للوصول الى الارقام الاولية او الصماء ، ويشرح فيه التعريفات الرياضية وأسس الموسيقى .

(٣٩) P. M. Fraser, op. cit., pp. 456 - 457; F. A. Wright, op. cit., p. 82.

ولقد الف اراتوسثينيس ايضا فى هذا المجال سجلا باسماء الفائزين فى المسابقات الاوليمبية على غرار القائمة التى الفها ارسطو .

(٤٠) الحقيقة ان ارخميديس كان اول من تصدى لهذه المحاولة فقدر المسافة بين ليسيماخيا Lysimachela على البحر الاسود وبين اسوان بحوالى ٢٠٫٠٠٠ ستاديون ، ووجد ان زاوية ميل الشمس قدرها ١/١٥ من قطر الدائرة وبالتالى فان محيط الكرة الارضية يساوى ١٥ × ٢٠٫٠٠٠ = ٣٠٠٫٠٠٠ ستاديون .

ويرجع الخطأ فى تقدير ارخميديس الى ان المسافة التى اختارها كانت تتضمن قدراً من اليابسة وقدرا من البحر ، مما جعل التثبت من صحتها امرا صعبا نظرا للتداخل بين الطبيعتين ، لذلك فضل اراتوسثينيس جعل المسافة اقل وقصرها على اليابسة فقط . انظر :

History of the Greek Nation , p. 311.

(٤١) او ١/٥٠ من الزاوية الرباعية القائمة التى يبلغ مقدار كل ركن من اركانها الاربع ٩٠ درجة . ومعنى ذلك ان قطر الدائرة هو حاصل ضرب ٩٠ × ٤ = ٣٦٠ درجة .

(٤٢) الاستاديون stadion مقياس اغريقى قديم قدره دورة كاملة حول مضمار السباق dromos ، وهذا يعادل ١/٨ ميل رومانى او ما يساوى ٦٠٠ قدم (٦٠٦ ٣/٤ قدم انجليزى) .

(٤٣) P. M. Fraser, op. cit., pp. 525 - 534 ; F. A. Wright, op. cit., p. 83.

وهناك مؤلفات اخرى كثيرة لاراتوسثينيس فى مجال الرياضيات والفلك والهندسة والفلسفة ، مما يدل على غزارة انتاجه وسعة معلوماته وقدراته المدهشة .

(٤٤) apud P. M. Fraser, op. cit., Vol. ii, p. 593, note 278.

(٤٥) انظر الفصل الاول ، حاشية رقم (٥٩) .

(٤٦) هناك رواية اخرى مؤداها أن اثنين من الاحبار ماتا قبيل اتمام الترجمة ، فصار عدد الاحبار سبعين فقط ومن هنا سميت الترجمة باسم « السبعينية » Hebdomêkonta (باللاتينية Septuaginta) ويرمز لها عادة برمز العدد اللاتينى سبعون Lxx . ومما يدعو الى الشك فى خطاب ارستياس هو ما ورد فيه من أن الفاليرى قد اقترح على فيلادلفوس انشاء المكتبة ، فالثابت تاريخيا ان الفاليرى كان على خلاف مع هـذا الملك قبل توليه العرش ، وأنه لقى حتفه فى السجن الذى وضع فيه بعد فترة وجيزة من ارتقاء فيلادلفوس للعرش .

(٤٧) أنظر طبعة الكتاب المقدس :

Ta Hiera Grammata, London (1911) , Genesis, p. 1.

ولقد اعجب لونجينوس فى مقاله النقدى (Peri Hypsous, ch. 9) ببداية سفر التكوين فأوردها كمثال على التعبير السامى الجليل ، وقال عنه ما يلى :

« كذلك فان من وهب اليهود ناموسهم — وهو ليس بالشخص العادى حيث كان لديه تصور سام لقوة الرب المقدس — قد عبر عن (ذلك الرب) خير تعبير ، عندما كتب فى بداية اسفاره :

« وقال الرب ، ماذا قال ؟ قال الرب للضوء كن فكان ، وقال الرب للارض كونى فكانت » .

(٤٨) عن الاسفار المنحولة بالتفصيل أنظر :

P.M. Fraser, op. cit., pp. 687 ff; O.C.D., p. 978.

(٤٩) كان المكابيون أول من شق عصا التمرد على حكامهم الملوك من آل سليوقوس ، الذين تولوا حكم هذه المنطقة منذ عام ٢٠٠ ق .م. ولم يكن هؤلاء الملوك يتدخلون فى مبدأ الامر فى شئون اليهود الدينية والثقافية لكن الملك انطيوخوس الرابع ابيفانيس (١٧٥ — ١٦٤ ق.م.) كان أول من حول مدينتهم أورشليم الى مدينة اغريقية ، حينما فرض على مملكته دينا اغريقيا موحدا كى يدرأ عنها خطر الرومان . ولقد حول الملك ابيفانيس معبد « يهوا » اله اليهود الى معبد للاله زيوس الاولبى عام ١٦٧ ق.م. وعلى اثر ذلك نشبت ثورة عارمة قام بها المكابيون احتجاجا على حرمانهم من حق عبادة الههم . ولقد تزعم يهوذا المكابى حركة لمناهضة الحـــكم الاغريقى منذ عام ١٦٤ ق.م. حتى تمكن من تحرير معابد اليهود من ربقة الاضطهاد . أنظر :

A. Lesky , op. cit., pp. 800 - 801; History of the Greek Nation, pp. 150 - 151.

(٥٠) F. A. Wright, op. cit., pp. 84 - 85.

(٥١) أرسل الفيلسوف منيديموس (حوالى ٣٣٩ — ٢٦٥ ق.م.) من قبل مدينته ،رتريا عندما كان شابا الى ميجارا للالتحاق بالخدمة العسكرية ، وهناك اتجه لدراسة الفلسفة خصوصا بعد قيامه بزيارة أكاديمية أفلاطون فى مدينة أثينا ، وتتلمذ على يد الفيلسوف الرواقى اسـتلبون Stilpôn . وبعد أن أتم دراسته توجه الى مدينة اليس حيث نال عضـوية المدرسة الفلسفية التى أسسها فايدون Phaidôn ، ثم تزعمها من بعده ونقل مقرها الى مدينة أرتريا وأصبح يعرف باسم « الفيلسوف الجدلى » . ولقد عمل منيديموس بالسياسة وتقلد منصبا هاما ، ولكن خصومة تكاثروا عليه وقاموا بنفيه فاختار الاقامة فى بلاط أنتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا الى أن وافاه الاجل .

(٥٢) C.f. F. A. Wright, op. cit., p. 64 ; History of the Greek Nation, p. 309, A. Lesky, op. cit., p. 744.

(٥٣) A. W. Nairn, Callimachus and Lycophron, L. C. L., London (1921), p. 480.

(٥٤) O. C. D., s.v. Lycophron, p. 628.

(٥٥) A. Lesky, op. cit., p. 745.

(٥٦) C.f. O. C. D., p. 628; P. M. Fraser, op. cit., pp. 627 — 635.

(٥٧) Lycophron, Alexandra, ll. 31 - 51 (edited by A. W. Nairn, see supra : note 53).

(٥٨) شروح وتعليقات تساعد على فهم الفقرة المترجمة :

حاضنتي التعسة : هى اليوس Ilios أو اليون Ilion ، اى مدينة طروادة .

اسد الليالى الثلاث : triesperos leôn هو هيراكليس ، فلقد ورد عند أبوللودوروس أن زيوس قد أطال الليلة التى شهدت حمـل الكمينى لهيراكليس الى ثلاث ليال : Zeus tên mian triplasiasas nykta .

كلب تريتون : تروى لنا الاساطير أن بوسيدون وأبوللون قد قاما ببناء أسوار طروادة بتكليف من ملكها لاؤوميدون ، الذى وعدهما بمكافأة نظير

ذلك العمل،لكنه بعد إنجازهما المهمة خدعهما ورفض منحهما المكافأة الموعودة، فما كان من الالهين الا أن سلطا وحشا بحريا (هو كلب تريتون) عاث فسادا فى المدينه . وقالت النبؤة انه لا بد من تقديم هسيونى ابنة لاؤوميدون نفسه فريسة لهذا الوحش من أجل درء خطره . واتفق الملك مع هيراكليس على أن يخلصه من ذلك الوحش مقابل حصوله على خيول جده الملك تروس Trôs ، فنفذ هيراكليس الى بطن الوحش البحرى ومكث بداخله حتى تمكن من تمزيقه اربا ، وحين طالب البطل لاؤوميدون بالمكافأة الموعودة رفض الاخير كعادته ؛ لهذا اضرم هيراكليس النار فى أشجار الصنوبر واستخدمها كمشاعل احرق بها طروادة (لهذا سماها الشاعر أشجار الصنوبر المحاربة) .

قاتل أطفاله : اشارة الى قتل هيراكليس لابنائه من زوجته ميجارا ابنة كريون فى نوبة من نوبات الجنون انتابته .

امه الثانية : هى الربة هيرا التى جعلتها الربة اثينا عن طـــريق الخديعة ترضع هيراكليس وهو طفل رغم مقتها اياه ، ولكن هيراكليس من فرط شراهته مزق ثدى الربة هيرا بأسنانه .

جسم ابيه : يروى ان هيراكليس نازل اباه زيوس ذات مرة ، واثناء النزال تمكن من حمله عاليا .

جرف كرونوس : عبارة عن حافة شديدة الانحدار تقع بالقرب من أوليمبيا .

أيسخينوس : هو أحد العمالقة أبناء ربة الارض « جى » ، ويروى ان قبره كان يصيب الخيول بالفزع عند اقترابها منه .

أنثى الكلب الضارية : الاشارة هنا الى أنثى وحش بحـــرى تدعى سكيلا ، وكانت وفقا للروايات الاسطورية تحطم السفن وتغرقها فى المضايق الميسينية . ولقد صرعها هيراكليس بعد أن سرقت منه أحد ثيران جيريون والتهمته ، ثم أعادها والدها فوركيس الى الحياة من جـــديد بأن أحرق جسدها بالمشاعل ، فتولدت ثانية من الرماد المتخلف عن الحريق .

ليبتينيس : هى برسيفونى ربة العالم السفلى ، ولقد سميت بهـــذا اللقب (المشتق من الفعل leptynô بمعنى يسبب الانكماش أو التضاؤل) لانها وفقا لاعتقاد قديم كانت تجعل أجسام الموتى تصغر ثم تتلاشى فتتحول الى أطياف .

جثمان ميت : المقصود بذلك القنطاوروس نيسوس الذى أقدم على خطف ديانيرا زوجة هيراكليس ، فانتقم منه الاخير بأن أرداه بسهم قاتل . وقبل ان يلفظ نيسوس أنفاسه الاخيرة أراد الانتقام من هيراكليس ، فأعطى

لزوجته ديانيرا من دمه المراق سما زعافا على شكل تعويذة حب ، من اجل ان تدهن بها رداء زوجها لو هجرها واحب امراة اخرى . وبعد سنوات من هذا الحادث احست ديانيرا بتحول قلب زوجها عنها الى اسيرته ايولى، فنفذت وصية نيسوس سالفة الذكر وتسببت فى مصرع هيراكليس .

(٥٩) ذكر الشاعر الرومانى أوفيديوس فى أحد أعماله أن ليكوفرون قد لقى حتفه عن طريق سهم اصابه فأرداه قتيلا .. انظر :

Ovidius, Ibis, ll. 529 - 530.

(٦٠) Cf. E. Bevan, The Poems of Leonidas of Tarentum,

Oxford (1931), introd.; F. A. wright, op. , cit., pp. 68 - 70.

(٦١) نظرا لبراعة ليونيداس فى وصف حياة الصيادين فقد اعتبر كثير من الباحثين انه ناظم القصيدة الموجودة فى ديوان ثيوكريتوس (رقم ٢١) والتى تحمل عنوان « الصيادون » .

(٦٢) A. Lesky, op. cit, p. 739.

(٦٣) Epigrammata Graeca, p. 148, no. 32 = A.P., ix. 99.

والنكتار nektar هو شراب الآلهة ، وكان تبعا لهوميروس أحمر اللون erythron وكانت الربة هيبى Hêbê تصبه لهم مثل النبيذ ليشربوه . أما طعام الآلهة الذى كان يمنحهم الخلود فيسمى الامبروسيا ambrosia ، ويقال انه مصنوع من عسل النحل ورائحته عطرة للغاية ويرى بعض المفسرين أن الآلهة لم تكن تأكل الامبروسيا كما يأكل البشر طعامهم ، بل كانوا يدهنون بها أجسامهم فتتجدد خلاياها وتبقى نضرة حية على الدوام .

(٦٤) Cf. Ep. Gr., p. 137, no. 2 = A .P. , vi. 211; Ep. Gr., p. 152, no. 43 = A. P. , V. 206 ; Ep. Gr. , pp. 152 - 153,no. 45 = A. P. , vi - 309.

(٦٥) Ep. Gr., p. 154, no . 50 = A. P. , Vi. 296.

(٦٦) Ep. Gr. , p. 155, no. 52 = A. P., Vi. 4.

(٦٧) Ep. Gr., P. 160, no. 67 = A. P. , Vii. 452.

(٦٨) Ep. Gr. , p. 161, ne. 68 = A. P., Vii. 455.

(٦٩) Ep. Gr., p. 161 , no . 70 = A. P., Vii. 163.

(٧٠) Ep. Gr., p. 163, no. 76 = A. P., Vii. 472 b.

(٧١) Ep. Gr., p. 167, no. 88 = A. P., ix. 719.

(٧٢) Ep. Gr., p. 166, no. 85 = A.P., x. 1.

(٧٣) Ep. Gr., p. 167, no. 87 = A. P. vi. 262.

(٧٤) Ep. Gr., p. 148, no. 33 = A.P., Vii - 736.

(٧٥) Ep. Gr., p. 149, no. 36 = A. P., vi - 300.

(٧٦) Ep. Gr., p. 150, no. 37 = A. P., vi. 302.

(٧٧) Ep. Gr., p. 156, no. 55 = A. P., vi. 298.

(٧٨) Ep. Gr., p. 164, no. 77 = A. P., vii. 472.

(٧٩) Ep. Gr., p. 169, no. 93 = A. P., vii. 715.

(٨٠) Cf. F.A. Wright, op. cit., pp. 73 - 74; P. M. Fraser, op. cit., pp. 592 ff; A. Lesky, op. cit., pp. 750 - 751.

(٨١) O.C.D., s.v. Aratus, p. 92; History of the Greek Nation, vol. vi (1974), p. 392.

(٨٢) A. Lesky, op. cit., pp. 751 - 752; O.C.D., p. 92.

(٨٣) سيتضح لنا التأثير الواضح لاراتوس على فرجيليوس لو قارنا بوجه خاص الابيات ٣٥٦ — ٣٨٢ من الكتاب الاول من قصيدة «الزراعيات» Georgica لفرجيليوس بالابيات ٩٠٩ — ٩٤١ من قصيدة « الظواهر الفلكية » لاراتوس .

(٨٤) Ep. Gr., p. 171, no. 101 = A. P., ix - 25.

(٨٥) Ep. Gr., p. 105, no. 56 = A. P., ix. 507.

(٨٦) Aratus, Phaenomena, ll. 1 - 18. edited by G. R. Mair, Callimachus, Lycophron, Aratus, L. C. L., London (1921).

(٨٧) أعجبت هذه العبارة القديس بولس فكتب يقول منها ما يلى :

« فنحن نعيش فى الرب ونتحرك فيه ونوجد فيه كما قال بعض الشعراء بين ظهرانيكم : « ذلك اننا نحن ذريته . » » انظر طبعة الكتاب المقدس :

P. N. Trempela, E Kainê Diathêkê, Athens (1969) , Praxeis tôn Apostolôn, xvii, 28.

(٨٨) د . عبد الله المسلمى ، كاليماخوس البرقى ، طرابلس — ليبيا (١٩٧٢) ، ص ص ١٣ — ١٦ ، ٧١ — ٧٤ .

قارن أيضا عن حياة كاليماخوس :

F. A. Wright, op. cit., pp. 85 ff.; P. M. Fraser, op. cit., pp. 626 ff.

(٨٩) Cf. O.C.D., s.v. Callimachus, p. 195; A. Lesky, op. cit., pp. 710 ff.

(٩٠) لمزيد من التفصيل عن أعمال كاليماخوس العديدة انظر :

A. Lesky, op. cit., pp. 702 - 717; O.C.D., pp. 195 — 196 .

(٩١) A. W. Mair, Callimachus, Lycophron, Aratus, L. C. L., London (1921) , Hymn v, eis loutra tês Pallados, ll. 72 - 78.

(٩٢) Hymn ii, eis Apollôna, ll. 1 - 24.

(٩٣) Hymn iii, eis Artemin , ll. 46 - 71.

(٩٤) Aetia, fragg. Lxvii, Lxxv.

(٩٥) Aetia, frag, i, ll. 1 - 2, 17 - 38.

(٩٦) Aetia, frag. XLiii, ll. 12 - 17.

(٩٧) Aetia, I, frag. XLi.

(٩٨) A. W. Mair, op. cit., p. 272 = P. Oxy., vii (1910), no. 1011, fol. 2 verso, ll, 1 - 4.

(٩٩) Iamboi, iv, frag. cxciv, ll. 6 - 9, 22 - 84, 93-106.

(١٠٠) Hekalê , frag . i, ll. 1 - 9.

(١٠١) Hekalê, frag. cclx, ll. 62 - 69.

ويذكرنا تذمر كاليماخوس من الضجيج ببيت من الشعر لشاعر عربى كان يتأفف مثله من الضوضاء بينما كان ينشد الهدوء :

وما نزله بها الا وارقنـــى . . صوت الدجاج وضرب بالنواقيس

ويقصد الشاعر هنا بصوت الدجاج « صياح الديكة » ، الذى شكى منه كاليماخوس فى الفقرة المترجمة اعلاه .

(١٠٢) Ep. Gr., p. 99 , no . 34 = A. P., vii. 80.

(١٠٣) Ep. Gr., p. 101 no. 41 = A. P., vii . 451.

(١٠٤) Ep. Gr., p. 102, no. 46 = A. p. , vii . 453.

(١٠٥) Ep. Gr., p. 101, no. 40 = A. P., vii. 522.

(١٠٦) Ep. Gr., p. 107, no. 63 = A. P., V. 23.

(١٠٧) Ep. Gr., p. 91 , no. 4 = A. P. , xii. 73.

(١٠٨) Ep. Gr., p. 92 , no . 8 = A.P., xii . 118.

(١٠٩) Ep. Gr., p. 92, no. 9 = A.P., xii . 139.

(١١٠) Ep. Gr. , p. 93, no. 11 = A.P., V. 6.

وفى هـــذه الابجرامة اشارة الى رد نبؤة الاله ابوللون فى دلفى على أهل ميجارا بوصفهم من أقدم الشعوب الاغريقية ، وكان هؤلاء قد سألوا الاله عما اذا كانت هناك مدينة أخرى باليونان تفوق مدينتهم بعد أرجوس وأسبرطة . ولقد اجاب الاله علي لسان كاهنته بما يلى :

« يا معشر الميجاريين ، لستم فى المرتبة الثالثة ولا الرابعة ولا الثانية عشرة ، بل لستم فى العد ولا فى الحسبان . » أنظر :

P. Waltz - J. Guilon, Anthologie Grecque, Première partie : Anthologie Palatine Palatine, tom. II ,livre v, Belles Lettres, Paris (1928) , p. 23 .

(١١١) Ep. Gr., p. 95, no. 20 = A. P., xiii . 24.

(١١٢) Ep. Gr., p. 90, no. 2 = A. P., xii . 43.

ولقد نظمت هذه الابجرامة فى معرض المشاحنة الادبية التى دارت بين شاعرنا ومنافسه أبوللونيوس الرودى . وهى مشاحنة سوف نتحدث عنها تفصيلا عند التعرض للشاعر أبوللونيوس ادناه .

(١١٣) Ep. Gr., p. 90, no. 3 = A. P., xii . 150.

(١١٤) Ep. Gr., p. 104 , no. 53 = A.P. , vii . 471.

(١١٥) Ep. Gr., p. 94, no. 15 = A. P., v. 146.

والترجمة الشعرية نقلا عن :

على فهمى خشيم ، قراءات ليبية ، طرابلس — ليبيا (عـــام ؟) ، ص ص ١٧٩ — ١٨٠ .

ويبدو ان هذه الابجرامة قد نظمت قبل عام ٢٤٦ ق . م ، وهو العــام الذى تم فيه زواج برنيقى من الملك تطلميوس يورجيتيس .

(١١٦) سبقت الاشارة الى ان كاتوللوس قد ترجم قصيدة كاليماخوس « خصلة شعر برنيقى » الى اللاتينية ، وبالاضافة الى ذلك فان بروبرتيوس كان يحاكى أشعار كاليماخوس بكثرة حتى لقب بكاليماخوس الرومان . أما أوفيديوس فقد تأثر به كثيرا فى كل من قصيدته المشهورة « مسخ الكائنات » Metamorphoses وقصيدته الطويلة « التقويم » Fasti .

(١١٧) Cf. F. A. Wright, op. cit., pp. 100 ff.

(١١٨) A. Lesky, op. cit., pp. 718 - 720.

(١١٩) J. M. Edmonds, The Greek Bucolic Poets, L.C.L., London (1928) , introd.

وهناك احتمال ان يكون المقصود « بالآخر من خيوس » فى هـــذه الابجرامة الشاعر هوميروس . ولكن معظم الباحثين يعتقدون أن الاشارة هنا الى السوفسطائى ثيوكريتوس من خيوس ، الذى هاجم فى مؤلفاته ضمن آخرين كلا من أرسطو وثيوبومبوس ، والذى لقى مصرعه فى عهد العاهل أنتيجونوس جوناتاس .

O. C. D., s.v. Pastoral Poetry (Greek), p. 787. (١٢٠)

(١٢١) عن حياة ثيوكريتوس واعماله الرعوية ونماذج منها مترجمة الى العربية انظر :

د. محمد صقر خفاجة ، شعر الرعاة ، دار الكاتب المصرى — القاهرة (عام ؟) .

حيث نجد معالجة شيقة فى اسلوب جذاب لفن الشعر الرعوى عند ثيوكريتوس ومقلديه ؛ قارن ايضا .

A. Lesky, op. cit., pp. 721 - 726.

(١٢٢) Cf. F. A. Wright, op. cit., p. 102.

(١٢٣) Cf. Greek and Latin Literature : A Comparative Study, edited by J. Higginbotham, ch . iv : Pastoral Poetry , by Robert Coleman, pp. 100 ff.

(١٢٤) Theocritus, eidyllion i : Thyrsis, ll. 29 - 56.

(١٢٥) ibid., ll. 123 - 142.

(١٢٦) F. A. Wright, op. cit., p. 101.

(١٢٧) Theocritus, eidyllion X : Theristai, ll. 24 - 37.

(١٢٨) Theocritus, eidyllion vii : Thalysia , ll 1 — 41.

(١٢٩) Thalysia, ll. 42 - 51.

(١٣٠) ibid., ll. 71 - 89.

(١٣١) ibid., ll. 90 - 127.

(١٣٢) ibid., ll . 128 — 157.

(١٣٣) Theocritus, eidyllion xxiv : Hêrakliskos, ll. 1 ff.

(١٣٤) Ep. Gr., p. 128 , no. 9 = A. P., vii . 662.

(١٣٥) Theocritus, eidyllion xv:Syrakosiai ê Adôniazousai, ll. 1 — 43 .

Theocritus, eidyllion ii : Simaitha, ll. 64 - 166. (١٣٦)

Theocritus, eidyllion xxviii : Alakata. (١٣٧)

A. Lesky, op. cit., pp. 728 - 729 . (١٣٨)

ibid., pp. 729 — 730. (١٣٩)

O. C. D. , s.v. Apollonius Rhodius, pp. 83 - 84. (١٤٠)

(١٤١) عن هذه المشاحنة الادبية باستفاضة انظر :
dria as Championed by Callimachus v. Apollonius Rhodius, Bulletin of the Faculty of Arts, xxii (1960) , Cairo Univ. Press (1964).
M. M. Salamouni, The Literary Quarrel at Alexan-

Cf. A. Lesky, op. cit., p. 730. (١٤٢)

(١٤٣) انتقد كليماخوس قصيدة انتيماخوس الكولوفونى بطريقة قاسية ، لان قصورها يرجع فى رأيه الى ضخامتها وافتقارها الى الصقل والتشذيب .. وهذا هو نص عبارته (frag . 399, Pfeiffer) :

« ليدى قصيدة ضخمة وغير مشذبة :

« Lydê kai pachy gramma kai ou toron :

Callimachus, Aetia, frag. i, ll. 1 - 38. (١٤٤)

Theocritus, eidyllion vii : Thalysia, ll. 47 - 48. (١٤٥)

Ep. Gr., p. 90, no. 2 = A.P., xii . 43. (١٤٦)

Ep. Gr., p. 78, no. 1 = A.P., xi . 275. (١٤٧)

Callimachus, hymnos eis Apollôna, ll. 105 - 112. (١٤٨)

انحقد Mômos تجسيد تصورى لشخصية الحاقد متصيد الأخطاء ، وهو لا يعتبر شخصية أسطورية بقدر ما هو شخصية من ابتداع الادباء . وكان هسيودوس هو ال شاعر أشار اليه فى قصيدته « انساب الآلهة » : اذ ذكر أنه ابن ربة الليل Nyx على حين نجد كاليماخوس فى هذا النشيد يشخصه ويضع على لسانه آراء معارضيه من الادباء .

(١٤٩) Apollonius Rhodius, Argonautika, iii, ll. 932 - 937.

(١٥٠) M.M. Salamouni, The Literary Quarrel ..., p. 11.

(١٥١) Cf. O.C.D., p. 84; F. A. Wright, op. cit., pp. 97ff.

(١٥٢) تتكون الملحمة على وجه الدقة من ٥٨٣٤ بيتا .

(١٥٣) Apollonius Rhodius, Argonautika, edited by H. Fränkel, Booki, 11. 536 - 558.

(١٥٤) يرجع الباحثون ان ليوكريتوس قد نقل هذا المشهد المؤثر وصاغ منه مليحمته « هيلاس » Hylas حيث بلوره وطوره بمهارة اتاحت له أن يصور احاسيس البطل هيراكليس والعذاب النفسى الذى انتابه بعد ان فقد صفيه المحبوب « هيلاس » .

(١٥٥) Apollonius Rhodius, Argonautika, iii, ll. 111 - 136.

(١٥٦) Argonautika, iii, ll. 285 - 290.

(١٥٧) Argonautika, iii, ll. 444 - 447.

(١٥٨) ibid., ll. 744 - 765.

(١٥٩) ibid., ll. 766 - 801.

(١٦٠) ibid., ll. 802 - 824.

(١٦١) ibid., ll. 948 - 972.

(١٦٢) ibid., ll. 1008 - 1024.

(١٦٣) Argonautika, iv, ll. 930 - 967.

(١٦٤) Cf. P. M. Fraser, op. cit., pp. 625 - 640; E.V. Rieu, The Voyage of the Argo, Penguin Series, London (1971), introd., pp. 15 - 17.

(١٦٥) F.A. Wright, op. cit., pp. 109 ff.

(١٦٦) ويتكون هذا البحر من ستة اقدام على النحو التالى :

وهناك ميمية تاسعة عنوانها « النساء اللائى يتناولن طعام الافطار »،

— —̆ / ◡ — / — —̆ / ◡ — / ◡ — / — —̆

لم يبق منها سوى بدايتها التى وصلتنا فى صورة شذرات ممزقة .

(١٦٧) A. Lesky, op. cit., p. 748.

(١٦٨) Herodas, Mimiambi, edited by A.D. Knox, mim - ii, ll. 16 - 40.

(١٦٩) Herdas, mimos iii, ll. 11 - 16.

(١٧٠) ibid., ll. 68 - 73.

(١٧١) Herodas, mimos iv, ll. 72 - 78.

(١٧٢) Herodas, mimos viii, ll. 68 - 72 , 75 - 79.

(١٧٣) Cf. A. D. Knox, Herodas, Cercidas and the Greek Choliambic Poets, L.C.L., London (1946) , introd. pp., xxi - xxii.

(١٧٤) O.C.D., s.v. Cercidas, p. 223.

(١٧٥) Cf. A.Lesky, op. cit., p. 761.

(١٧٦) O.C.D., p. 223.

(١٧٧) A.D. Knox, op. cit., pp. xviii - xix.

(١٧٨) Cercidas, Meliambi, ll. 1 - 14.

الفصـــل الثـالث

فترة الاضمحلال

(٢٢٠ – ٣١ ق.م.)

فترة الاضمحلال

كان موت بطلميوس الثالث بورجيتيس ايذانا بأفول نجم الأدب السكندرى خصوصا الشعر منه ، ورغم أن بطلميوس الرابع فيلوباتور Philopatôr كان كتاب التراجيديا ومن المتحمسين للتراث القديم فشيد معبدا لهوميروس وحاول نشر عبادة ديونيسوس كديانة رسمية لمصر ، الا أن سياسته فى جوهرها لم تكن تتفق مع الخط العام الذى سارت عليه سياسة البطالمة الأوائل ، الذين كانوا يشجعون الشعر والأدب من أجل ازدهار الحضارة الهيلنية ومن أجل ربط الاغريق حولها برباط لا ينفصم كى يتكاتفوا فى وجه رد الفعل المصرى المناهض لفكرة الانضواء تحت لواء الهيلينية • ومن الأسباب التى ساعدت على أفول نجم الأدب السكندرى ضعف البيت المالك البطلمى : ففى معركة رفح التى دارت رحاها عام ٢١٧ ق•م• حارب فيلق مصرى تحت لواء بطلميوس الرابع حتى تم للأخير الانتصار على جيش انطيوخوس الثالث ملك سوريا ، وكان من نتائج هذا النصر الذى ساهم فى تحقيقه المصريون أن ارتفعت معنويات الشعب المصرى وقويت عزيمته بصورة أدت الى ايقاظ الشعور الوطنى والانتماء القومى والى عودة بعض النفوذ الى الكهنة المصريين ، فبعد أن كانوا قد فقدوا سلطانهم أصبح بوسعهم أن يخلعوا على الملوك البطالمة ألقاب وصفات الفراعنة •

لم يقدر اذن للأدب السكندرى أن يستمر طويلا فى الازدهار الذى شاهدنا نتائجه فيما تقدم ، فلقد كان هذا الازدهار موقوتا بالتشجيع الذى أسبغه ملوك البطالمة على الأدب ورجالاته ، فما أن دب الفساد الى هؤلاء الملوك وصار نجمهم الى أفول وغدت ممالكهم الى اضمحلال وتدهور حتى بدأ الأدب يفقد تدريجيا عظمته ويتصف فى معظم الأحيان بالركاكة والضعف • لقد كان ملوك البطالمة الأوائل يجمعون بين المقدرة السياسية والحس الأدبى ، ولكن كان من العسير

أن تكون أسرة البطالمة كلها على هذا المستوى من المهارة والذكاء : فقد ولى العرش من بعدهم ملوك ضعاف عزوفين عن حب المعرفة قاصرين عن تذوق الفن قليلى الخبرة فى شئون الحكم ، مما بات يهدد ازدهار الثقافة الهيلنية التى تعهدها أسلافهم حتى أثمرت وأتت بأبهر النتائج فى زمن قصير •

ولقد ساعد على تدهور العالم الهيلنستى وضعف ممالكه أن قوة روما المتعاظمة أصبحت أمرا لا جدال فيه ، وأن سيادتها على البحر المتوسط قد جعلت من المحتم عليها أن تتدخل فى شئون هذه الممالك التى اضمحلت ودبت فيهـا بوادر التمزق والتفتت بفعل القلاقـل الداخلية التى أثارتها الشعوب المغلوبة على أمرها ، وبفعل الحروب المتتالية التى قامت بينها ، وبفعل تنعم وفساد ملوكها وارتمائهم فى أحضان روما ، وبفعل مقاومة الشرق للأغرقة ومحاولته دون يأس نفض غبار التسلط الأجنبى عنه • وغدا واضحا أن شمس العالم الهيلنستى قد آذنت بالمغيب وأن الاسكندرية عاصمة ذلك العالم قد بدأت تفقد تدريجيا ازدهارها الاقتصادى وبالتالى مكانتها الثقافية ، فبدأ الكتاب والأدباء يهجرونها ويتجهون الى أماكن أخرى أكثر ازدهارا مثل رودس وبرجامون أو حتى روما ذاتها التى بدأ نجمها يعلو منذ القرن الأول قبل الميلاد •

وبرغم كل تلك العوامل التى كانت تضعف الأدب وتنخر كالسوس فى بنيانه نجد العبقرية الهيلنية تجود — حتى فى ساعة احتضارها — بقبس متألق ما أن يخبو نوره حتى يتلألأ نور قبس آخر ، ولم تستطع قوة ما أن تخمد تماما هذه الجذوة وان كانت قد أفلحت فى حجبها عن التألق فترة من الزمن • وباستثناء عدد قليل من الشعراء المبدعين لم يزدهر بالاسكندرية خلال هذه الحقبة الزمنية الطويلة (٢٢٠ — ٣١ ق•م•) سوى ثلة من الشعراء معظمهم متوسط المقدرة ، وكذلك طائفة من الباحثين واللغويين والمشتغلين بالبحث فى الأدب وفروعه وعـدد من المؤرخين والكتاب الموسوعيين •

أرستوفانيس البيزنطى :

عاش أرستوفانيس البيزنطى Aristophanês ho Byzantios على وجه التقريب فى الفترة من ٢٥٧ — ١٨٠ ق٠م٠ وكان باحثا دؤوبا سار على منوال الرائد زينودوتوس ٠ ولقد أتاح له منصبه كرئيس لمكتبة الاسكندرية أن يعمل بجد فى ايجاد منهج علمى للنبرات tonoi : الحادة (/) oxeia والثقيلة bareia والمنحنية (٨) perispômemê ، وتعرف هذه النبرات الصوتية اصطلاحا باسم « العلامات المصاحبة للنطق » prosoidiai ٠ كذلك بذل أرستوفانيس البيزنطى جهدا ملموسا فى مجال تقنين « العلامات المصاحبة للقراءة » sêmeia stixeôs التى تشتمل على علامات الوقف الثلاث : النقطة teleia كعلامة للتوقف التام ، والنقطة العالية anô teleia كعلامة على التوقف المؤقت ، والفاصلة hypodiastolê والتى تتضمن كذلك علامتى المد : الطويلة (—) والقصيرة (ں) ، وعلامة الاستشهاد أو الاحالة ويرمز لها بالنجمة asteriskos (*) ٠ أما علامتا التنفس أو بعبارة أخرى « النبرات التنفسية prothesis وهما النبرة الهائية daseia (ح) والنبرة المجردة psilê (د) فكانتا معروفتان قبلا ٠ ولقد أصبحت هذه العلامات ضرورية وغدت معرفتها أمرا أساسيا لكل من يعمل فى مجال نشر النصوص وتحقيق المخطوطات القديمة (١) ٠

ولقد اضطلع أرستوفانيس البيزنطى بنشر مؤلفات هوميروس وبنداروس وكتاب التراجيديا وأفلاطون فى طبعات علمية محققة ، ضاهى فيها المخطوطات التى كانت موجودة فى عصره على بعضها ٠ والى جانب ذلك ألف كتابا عن تدوين المعاجم lexeis وجمع مادتها ، وكتابا آخر فى علم النحو يشرح فيه ظاهرة القياس analogia والشذوذ anomalia ، كما جمع عددا من الحكم والأمثال المختارة فى

عمل آخر ودون وصفا مسهبا لأنماط الشخصيات فى الكوميديا ، وقائمة بأسماء قدامى الشعراء والفنون التى عالجها كل منهم • لهذا يعتبر أرستوفانيس البيزنطى أول باحث علمى فى مجال الدراسات الأدبية وفى مجال تحقيق النصوص القديمة ونشرها ، ويرجع تفوقه فى هذا المضمار الى أنه كرس حياته كلها للبحث الأدبى وأرسى له ركائز قيمة مازال يرتكز عليها حتى الآن (٢) •

أرستارخوس الساموثراقى :

كان أرستارخوس الساموثراقى Aristarchos ho Samothrâix (٢٢٠ — ١٤٥ ق٠م٠) خلفا لأرستوفانيس البيزنطى فى رئاسة مكتبة الاسكندرية ، ورغم غزارة انتاج سلفه أرستوفانيس الا أنه تفوق عليه فى وفرة المؤلفات : فلقد دون أرستارخوس تعليقات ضافية على أعمال الكتاب القدامى فيما يقرب من ٨٠٠ لفافة بردية • وفى مجال علم النحو كان أرستارخوس أول من حدد أجزاء الكلام ta merê tou logou بثمانية : الاسم onoma ، الفعل rhema ، المشارك (= اسم الفاعل أو المفعول) metochê ، الضمير antônymia ، الأداة arthron ، الظرف epirrêma ، حرف الجر prothesis ، وأداة الربط syndesmos • ولقد تمسك أرستارخوس بهذا العدد لأجزاء الكلام رغم أن أحد معاصريه وهو كومانوس Komanos — منافسه فى كل من العلم والحظوة لدى البيت المالك — كان ينادى بوجوب أن تكون تسعة أجزاء ، وذلك باضافة أحد تصنيفات الاسم وهو « الاسم العام » prosêgoria على أنه الجزء التاسع من أجزاء الكلام (٣) •

ولقد بذل أرستارخوس جهدا كبيرا كى يؤسس علم النحو على القواعد التى سبقه اليها أتباع المدرسة الرواقية ، الذين كانوا من أكثر المهتمين بعلم النحو فى العصر الهلينستى ، لكن هذا الجهد لم يؤت

ثماره الا بالمؤلف القيم الذى دونه تلميذه ديونيسيوس الثراقى عن علم النحو .

وتعتبر الطبعة التى نشرها أرستارخوس للأشعار الهومرية أكثر اتقانا من طبعة زينودوتوس الشهيرة ، وأكثر منها دقة من ناحية قواعد نشر النصوص التى نبغ فيها أرستارخوس وتميز بالحصـافة ، لأنه اعتمد على قراءة المخطوطات وحدها واستبعد الظن والتخمين الذى قد يؤدى للشطط والبعد عن روح النص القديم (٤) . ان التعليقـات الضافية التى ضمنها أرستارخوس scholia آراءه ومعـلوماته الغزيرة التى تنم عن سعـة اطلاع ، تشهد على ذكائه الحاد سواء فى المعرفة باللغة أو حول النص ، وتؤكد أنه يستحق عن جـدارة لقب « أبو البحث العلمى » فى تحقيق النصوص ونقدها ونشرها (٥) .

كاليكسينوس :

لم يهتم كاليكسينوس Kallixenos الذى ازدهر حوالى ٢٠ ق.م. بالبحث العلمى فى الأدب ، بل شغل نفسه بوصف مدينة الاسكندرية ابان ازدهارها . ولقد اقتبس أثينايوس من كتابه الشهير عن مدينـة الاسكندرية Peri Alexandreias فقرتين على قدر من الطول وأوردهما فى الجزء الخامس من مؤلفه الشامل « مأدبة الفلاسفة » (٦) . والفقرة الأولى عبارة عن وصف مسهب لسفينتين أمر بصنعهما بطلميوس الرابع فيلوباتور : أولاهما حربية ضخمة ذات مقدمتين ومؤخرتين وتسع نحوا من ٤٠٠٠ مجدف وثلاثة آلاف بحار ، أما الثانية فعبارة عن يخت ملكى فاخر ارتفاعه ٦٠٠ قدم وعرضه ٤٥ قدما ويحتوى ردهات لاقامـة الحفلات مؤثثة بأفخر الرياش والطنافس المصنوعة من خشب الأرز والسرو والمحلاة بالذهب والعاج (٧) .

أما الفقرة الثانية فتدور حول وصف لموكب pompê ملكى

أيام العاهل بطلميوس فيلادلفوس ، حيث نرى فى البداية خيمة الاحتفال الملكية بأثاثها المذهب وأرضيتها التى تناثرت عليها زهور الزنبق والورود ، ثم ننتقل بعد ذلك الى مواكب مهيبة تمثل ربة الفجر وربة الغروب يرتدى المحتفلون فيها ملابس فاخرة زاهية ، ثم نشاهد بعدها جموعا من الحيوانات المفترسة وعددا من المناظر المسرحية المضيئة التى تمثل انتصار باكخوس أو كهف الحوريات أو مخدع سيميلى • ويمدنا مثل هذا الوصف بفكرة واضحة عن البذخ والثراء الذى تميزت به الفترة الأولى من العصر البطلمى وعن ازدهار مدينة الاسكندرية وتألقها فى تلك الفترة (٨) •

ديونيسيوس الثراقى (١٧٠ — ٩٠ ق٠م٠) :

ومن الجيل التالى نجد العالم النحوى ديونيسيوس الثراقى Dionysios ho Thrâix الذى ازدهر حوالى ١١٠ ق٠م٠ وتعزى شهرته الى أنه أول من أخرج للوجود كتابا عن علم النحو اليونانى • وكان ديونيسيوس تلميذا للباحث اللغوى الشهير أرستارخوس الساموثراقى وسار على منهجه فى تقسيم أجزاء الكلام الى ثمانية • ورغم أن كتاب ديونيسيوس الذى يحمل عنوان « فن النحو » Technê Grammatikê لايربو فى حجمه كثيرا عن خمس عشرة صفحة ، الا أنه ظل العمدة والأساس — ربما مثل كتاب سيبويه أو بالأحرى مثل ألفية ابن مالك فى النحو العربى — فى دراسة اللغة اليونانية لمدة تزيد على ثلاثة عشرة قرنا (٩) •

ويبدأ كتاب « فن النحو » بتعريف للعلم الذى يتناول النحو على أنه (١٠) : « المعرفة التطبيقية للغة التى يستخدمها كتاب الشعر أو النثر » • ثم يتحدث ديونيسيوس بعد ذلك فى هذا الكتاب ، الذى ينقسم الى ستة وعشرين قسما ، عن الحروف الأبجدية وتصنيفها الصوتى وعن علامات الطول والقصر ، وبعدها عن الاسم تعريفه

وأنواعه : اذ كان النحويون القدامى يعتقدون بأن الاسم يشتمل على كثير من الصفات والضمائر • ويلى ذلك تعريف الفعل وخصائصه ثم قائمة كاملة بتصريف الفعل typto (بمعنى يضرب) فى كافة الأزمنة والضمائر وجميع الصيغ فى كل من البناء للمعلوم والمجهول • ويتحدث ديونيسيوس بعد ذلك عن بقية أجزاء الكلام بنفس الطريقة : بمعنى أن يقوم أولا بتعريفها ثم يبين بعد ذلك استخداماتها (١١) •

بوسيدونيوس :

ولد بوسيدونيوس Poseidônios عام ١٣٥ ق•م• تقريبا فى بلدة أباميا Apamea بسوريا ، وكان من أشهر كتاب القرن الأول ق•م• على الاطـلاق : فهو عالم موسوعى على غـرار اراتوسثينيس ومفكر عظيم امتدحه من جاءوا بعده • ولقـد درس بوسيدونيوس الفلسفة على يد الفيلسوف الرواقى بنايتيوس Panaiteus (١٧٥ — ١١٠ ق•م•) ، وبعد أن أكمل دراسته سافر الى أماكن عديدة شاهد فيها أقطارا كثيرة من أوربا حيث دون ملاحظات شتى عن جوانب الحياة التاريخية والجغرافية والاجتماعية ، ثم استقر بعـد ذلك فى جزيرة رودس حيث تزعم المدرسة الرواقية التى ازدهـرت كثيرا على يديه واجتذبت اليها الدارسين من كل صوب وحدب (١٢) •

ولقد لعب بوسيدونيوس دورا هاما فى سياسة جزيرة رودس حيث أنه كان سفيرا لهذه الجزيرة فى روما عام ٨٦ ق•م• ، وفى أواخر أيامه سافر الى روما واستقر بها نحو عامين الى أن فارق الحياة عام ٥٠ ق•م• ولقد نال بوسيدونيوس شهرة ذائعة لبراعته فى عـلم الفلك : اذ استطاع أن يستنتج أن الشمس أكبر من الأرض بمرات عديدة ، كما صمم كرة تدور حول محور من أجل أن يوضح لتلاميذه عليها مسار الكواكب وتحركاتها ، ولقد ضمن ذلك كله فى كتاب بعنوان « عن المذنبات » Peri Meteôrôn ، وكتاب آخر بعنوان « عن حجم الشمس » Peri tou Hêliou Megethous •

وفى مجال الرياضيات حاول بوسيدونيوس جاهدا تبسيط نظريات يوكليديس الهندسية ، أما فى علم الجغرافيا فقد ألف كتــابا بعنوان «عن المحيط وما يتعلق به» Peri ôkeanou kai tôn kat' auton استعان به الجغرافى المعروف استرابون ، كما كان بوسيدونيوس أول من اعتقد أن الابحار غربا فى المحيط يوصل الى الهند • وفى مجال التاريخ دون تاريخ العالم الرومانى من حيث انتهى تاريخ بوليبيوس Historia hê meta Polybion وذلك فى الفترة من عام ١٤٤ ق•م• حتى عام ٨٢ ق•م• ، وكان ماكتبه عن هذه الفترة هو الأساس الذى استقى منه بلوتارخوس وديودوروس الصقلى معلوماتهما حيث يعتبر بوسيدونيوس مصدرنا الوحيد عن هذه الحقبة الزمنية • أما فى مجال الفلسفة فقــد تزعم بوسيدونيوس مدرسة الرواق واستطاع أن يضيف اضافات هامة للمذهب الأخلاقى الذى يقوم عليه الفكر الرواقى ، وتأثر به من الرومان كل من القديس جيروم وشيشرون [١٣] •

ديديموس :

ازدهر الباحث الأشهر ديديموس Didymos حوالى عام ٤٥ ق•م• كأستاذ وباحث ، وذاعت شهرته فى مدينة روما والعالم القديم بسببه غزارة انتاجه ووفرته • وكان ديديموس من أكثر الباحثين جلدا وصبرا حتى أنه لقب « بصاحب الأحشاء النحاسية » Chalkenteros , ومن كثرة الكتب التى قرأها أصبح غافلا عن عددها وعناوينها حتى أنه عرف باسم « الغافل عن الكتب » Bibliolathas • ولقد روت عنه العصور التالية أنه ألف ما يربو على ثلاثة آلاف عمل ما بين مقال وكتاب وقال عنه الفقيه ماكروبيوس انه أكثر الباحثين تفقها وأكثرهم دراية بالماضى وثقافة بعلوم العصر [١٤] •

وتتضمن أعمال ديديموس كتابين عن لغة وألفاظ الدراما سواء فى المسرحيات التراجيدية أو الكوميدية ، اعتمــد عليهما هيسيخيوس

كثيرا فى معجمه الشهير باسمه . وهناك كذلك عدة كتب تحتوى على تعليقات وشروح لأعمال هوميروس ضمنها ديديموس كافة ما ورد فى مؤلفات زينودوتوس وأرستوفانيس البيزنطى وأرستارخوس النحوى ، ولحسن الحظ وصلنا جزء من هذه التعليقات hypomnêmata مع مخطوط من مخطوطات هوميروس يعرف باسم codex Venetus ، وتعتبر هذه التعليقات النموذج الوحيد الذى وصل الينا من مؤلفات باحثى العصر السكندرى . ولقد دون ديديموس كذلك تعليقات وشروحا على مؤلفات الشعراء الغنائيين ، كما نشر تاريخ ثوكيديديس وصدره بمقدمة عن حياة ذلك المؤرخ القديم . ومن كل هذا الانتاج الغزير الذى نعـلم بعضه ونجهل جله لم تصلنا سوى شذرات قليلة معظمهـا عبارة عن مقتطفات وردت فى أعمال الكتاب المتأخرين (١٥) .

ومن هذه الأعمال يمكننا أن نذكر كتـابه « عن ديموسثينيس » Peri Dêmosthenous الذى كان يحتوى على تعليقات على « الفيليبيات » فى ثلاثة كتب بقيت منها شذرة هامة من الكتاب الثالث على احدى برديات مجموعة برلين (B. K. T., vol. i, 1904) . ولقد ذكر معجم سودا أعمالا عديدة منسوبة الى ديديموس نتبين منها سعة معلوماته وغزارة معارفه فى شتى المجالات : فقد كان ديديموس آخر العلماء الموسوعيين فى العصر الهيلنستى ، كما كان أوفر من سـابقيه نشاطا وأشد منهم تكريسا وصبرا على البحث العلمى (١٦) .

* * *

موسخوس :

ولد موسخوس Moschos فى سراقوسة بصقلية وازدهرحوالى عام ١٥٠ ق.م. ، وتنحصر مؤلفــاته التى بقيت لنــا فى عــدد من الابجرامات وقصيدتين على جانب من الطول : احداهما بعنوان ميجارا Megara والثانية بعنوان يوروبى Eurôpê . ولقد ألف موسخوس قصيدة ميجارا على شكل حوار بين ألكمينى والدة هــيراكليس وبين ميجارا زوجته : ففى البداية تلقى ميجارا مونولوجا مؤثرا تروى فيه كيف أقدم زوجها هيراكليس فى نوبة جنون انتابته على قتل أطفاله منها ، وكيف أنه دائم الترحال والتجوال لا يفرغ من عمل الا ويتوجه لانجاز عمل آخر من أعماله الأسطورية التى قدرتها عليه الآلهة ، وهــى مهام شاقة تبعده دوما عن زوجته ووطنه . ثم تروى ألكمينى بدورها أنها شاهدت حلما مفزعا أحاطت النيران فيه بالبطل هيراكليس من كل جانب بينما كان شقيقه افيكليس بن أمفتريون يحاول عبثا انقاذه [١٧] .

أما قصيدة يوروبى ــ التى اتخذها كاتوللوس نموذجا ألف على غراره قصيدته عن بليوس وثيتس ــ فتدور حول أسطورة يوروبى ، ومؤداها أن يوروبى شاهدت حلما غريبا (ونلاحظ أن الأحلام هى محور كل من القصيدتين) وبعد أن استيقظت من نومهــا ذهبت الى المروج لتقطف الأزاهير وتمرح لاهيــة بصحبة وصيفاتها ، وهنـــاك شاهدت فجأة ثورا غريبا كستنائى اللون بين حاجبيه دائرة فضية لامعة وتبرق عيناه ببريق ساحر جعلها تتجه اليه مرغمة وتمتطى صهوته ، وحالما تفعل ذلك يتجه بها الثور الى عرض البحر سابحا وخلفه تتواثب النيريديات ومعهن تريتون اله البحر . وتنتهى القصيدة ببكاء حار من يوروبى على مصيرها التعس ومواساة من الاله زيوس الذى تقمص

صورة هذا الثور الغريب كى يختطفها بعد أن افتتن بها (١٨) • وفيمايلى ترجمة لجزء من هذه القصيدة (١٩) :

« هكذا تحدثت يوروبى وبعدها جلست فوق ظهر الثـــور وهى تبتسم ، على حين ألجم التردد (الفتيات) الأخريات • وعلى حين غرة وثب الثور وهو يحمل فوق متنه (الفتاة) التى هام بها حبا • وفى لمح البصر وصل الى شاطىء البحر ، أما هى فاستدارت وأخــذت تنادى صويحباتها وهى تمد نحوهن ذراعيها ، لكنهن عجزن عن اللحاق بها • وبعد أن اجتاز الثور الشاطىء انطلق سابحا مثل الدلفين يشق عباب اليم والأمواج العريضة بحوافر لم يتطرق اليها البلل • وهدأ البحر بمجرد أن شق (الثور) صفحته ، وأخذت وحوش البحر تتقافز أمام أقدام زيوس على حين شرع الدلفين القادم من الأعماق يتقلب فــوق الأمواج بفرحة غامرة • بزغت النيريديات فوق أمواج البحر وكل منهن تمتطى صهوة وحش بحرى وانتظمن فى صفوف متراصة •

أما مزلزل الأرض (بوسيدون) ذو الصوت المجلجل فقد مضى بنفسه عبر سطح البحر كى يهدىء الأمواج ويقود شقيقه على طول الممر البحرى ، ومن حوله تجمعت مخلوقات البحر التريتونية ، عازفو الناى الذين تعلوهم الجهامة ، وهم يعزفون أنشودة زفاف على صدفاتهم الرقيقة • على حين كانت الفتاة جالسة فوق صهوة زيوس (المتنكر فى هيئة) الثور وهى تمسك باحدى يديها قرن الثور الطويل ، وبيــدها الأخرى كانت تجذب لأعلى طيات ثوبها الأرجوانى حتى لاتبلله مياه البحر الرمادية أثناء سحبه فوق الأمواج • وكانت ثنيات معطف يوروبى منتفخة حول كتفيها وكانت ترفع العذراء عاليا مثل شراع السفينة » •

وهناك قصيدة أخرى بعنوان « رثاء بيون » ، الشاعر المعاصر لموسخوس ، يرى النقاد رغم وجودها فى ديوان موسخوس أنها من نظم شاعر مجهول anonymous كان تلميذا لبيون • وتتألف هذه

القصيدة من ١٢٦ بيتا فى البحر السداسى وتحتوى على ترديد مذهبى يتكرر بين فقراتها ثلاث عشرة مرة على النحو التالى : « ابدأن ، ياربات الشعر الصقلية ، ابدأن المرثية » ، وهو ترديد مماثل للترديد المذهبى الذى صادفناه قبلا فى قصيدة ثورسيس للشاعر الرعوى ثيوكريتوس. ورغم التكلف والتفقه اللذين يبدوان فى بعض مواضع هذه القصيدة فهى لا تخلو من احساس صادق ومشاعر قوية وجمال فى التعبير الأدبى. كما يبدو فى الفقرة التالية التى رغم جهدنا فى الوصول الى روح النص نجد ترجمتنا لها عاجزة عن أن تدانى روعة الأصل الاغريقى (٣٠) :

« ابدأن ، ياربات الشعر الصقلية ، ابدأن المرثية . واحسرتاه ! فعندما يذبل الخبازى الأخضر فى البستان ، أو عندما يذوى نبات المقدونس اليانع أو الشمار الأجعد المزهر ، فان هذه النباتات تعود من جديد للحياة وتنبثق مرة أخرى فى ربيع العام التالى . أما نحن بنو الانسان ، ذوى العظمة والسلطان ، ذوى الحكمة والفكر ، فعندما يختطفنا الموت نستقر فى جوف الأرض دون أن نسمع صوتا وحيث نرقد فى سبات طويل لا نهاية له ولا يقظة منه » .

بيـــــون :

ولد بيون Bíōn فى أزمير Smyrnê بآسيا الصغرى فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م. وكان معاصرا للشاعر موسخوس ، ومن الرثاء الذى ترجمنا فقرة منه أعلاه نعرف أن بيون قد وافته المنية وهو فى شرخ الشباب . وكان بيون شاعرا رعويا اتخذ من قصائد ثيوكريتوس نموذجا يحتذى ، ومن أعماله نملك عدة شذرات احداها عبارة عن محاورة بين راعيين يطلب فيها ميرسون من زميله ليكيداس الانشاد بقوله :

« أنشد لى أغنية من أغانى الحب مثل التى غناها الكيكلوبس بوليفيموس على شاطىء البحر لمعشوقته الحورية جالاتيا » فيرد

عليه ليكيداس منشدا أغنية تصف غرام أخيليوس وديداميـا [٢١] •
وهناك شذرات أخرى عن فصول العام وعن اروس اله الحب الصغير
فى حجمه والخطير فى أثره وعن نجمة المساء [٢٢] •

لكن أعظم ما كتبه بيون على الاطلاق واستحق من أجله الشهرة
هو قصيدته الرائعة عن « رثاء أدونيس » التى وصلتنا لحسن الحظ
كاملة • وربما كان بيون يقصد من وراء نظمها أن تنشد فى الأعياد
التى كانت تقام تمجيدا لهذا الاله فى مدينة الاسكندرية ، وهى حقيقة
استقيناها من قصيدة ثيوكريتوس « السيراكوسيات » [٢٣] • ونترجم
هناشطرا كبيرا من هذه القصيدة الرائعةالمشحونةبالعواطفوالأحاسيس
الفياضة [٢٤] :

« آه اننى أنتحب من أجل أدونيس ! « أدونيس الجميل قد مات»
« أدونيس الجميل قد قضى نحبه » ، وأرباب الحب يشاركوننى فى
النحيب ، أى كيبريس ، لاتنامى بعد الآن على فراشك الأرجوانى •
انهضى أيتها (الربة) الملتاعة من سباتك واتشحى بالســواد واضربى
صدرك واصرخى فى الملأ أجمعين « ان مات أدونيس الجميل » •

آه انى انتحب من أجل أدونيس وأرباب الحب يشاركوننى فى
النحيب •

هاهو أدونيس الفاتن يرقد على التلال وفخذه الناصـــع مجروح
بناب أبيض ، بينما تجهش كيبريس بالبكاء لأن أنفاسه تتردد واهنة
والدم القاتم ينثال من جسده الثلجى الوضاء ، على حين ذبلت منـــه
الأجفان وانكسرت العينان وغر اللون الوردى من شفتيه وحولهما ماتت
القبلة التى لن تنالها كيبريس أبدا • فرغم أن معبودها فارق الحيـــاة
الا أن قبـــلة منه كانت مصدر بهجة لها وسرور ، لكن أدونيس التعس
كان يجهل أنها قبلته وهو يفارق الحياة •

آه اننى أنتحب من أجل ادونيس وأرباب الحب يشاركوننى فى النحيب •

كان أدونيس مصابا بجرح ، جرح لا يرحم فى فخــذه ، لكن الجرح الذى أصاب الكيثيرية فى قلبها كان أقسى وأفدح • وحــول الشــاب كانت كلاب الصــيد الصــديقة تذرف الدمــوع وحوريات الجبل يجهشن بالبكاء ، بينما كانت أفروديتى تهيم على وجهها فى الغاب وهى ذاهلة ، جدائلها محلولة وخصلات شعرها شعثاء نافرة • كانت تسير دون نعال تمزق الأشواك قدميها وتمتص دماءها المقدسة أثناء سيرها ، وكانت تصرخ صرخات مدوية وهى تنادى على الشاب بينما كان ثوبها الأسود يتجمع حول سرتها وتخضب صدرها بالدماء المنبثقة من الجرح الذى أصاب فخذه ، أما أسفل صدرها — الذى كان فيما مضى ناصعا كالثلج — فقد صــار قانيا بسبب دماء أدونيس • « واحسرتاه على الكثيريه ! » : هذا ما ردده أرباب الحب وهم يجهشون بالبكاء • لقد فقدت فتاها الوسيم وفقدت معه جمالها الربانى •

لقد كانت كيبريس جميلة حينما كان أدونيس على قيد الحيــاة ، لكن جمالها ذوى مع أدونيس • واحسرتاه على كيبريس ! كل الجبال وأشجار البلوط بأسرها تصرخ : « واحسرتاه على أدونيس ! » ان الأنهار تنتحب بسبب حزن أفروديتى وحدادها ، والينابيع فوق التلال تذرف الدمع الهتون حزنا على أدونيس ، أما الأزهار فقد اصطبغت باللون الأحمر القانى والألم يعصرها فى الوقت الذى كانت الكيثيرية فيه تغنى بحزن أثناء تجوالها عبر سلاسل الجبال والأحراش : « انتحبوا من أجل الكثيرية فأدونيس الجميل قد مات » • ورددت اخو (ربة الصدى) قولها : « أدونيس الجميل قد مات » • واحسرتاه ! من ذا الذى لا ينتحب من أجل حب كيبريس الحزين ؟

فعندما أبصرت (الربة) جرح أدونيس وتبينت أنه جرح لاشفاء منه ، وعندما شاهدت الدم المهلك حول فخذه الذاوى طوحت بذراعيها

عاليا وصرخت باكية : « أى أدونيس ، امكث معى يا أدونيس التعس!
امكث من أجلى كى أضمك لآخر مرة ، كى أعانقك وألثم بشفتى شفتيك .
انهض يا أدونيس ولو لدقيقة واحدة وقبلنى القبلة الأخيرة ! قبلنى
لفترة لا يزيد مداها عن عمر قبلة طالما أنها تجعل أنفاسك التى تسرى
فيها روحك تدخل الى فمى وتسرى الى فؤادى — ولســـوف أمتص
تعويذة حبك الحلوة وأرتشف حبك ارتشافا ، وسأحتفظ بهذه القبلة كما
لو كانت أدونيس ذاته لأنك أيها المنكود قد هجرتنى . ها أنت تتركنى
يا أدونيس فى رحلة طويلة وتذهب الى (شاطئ) الأخيرون والى
ملك (العالم السفلى) القاسى المخيف ، بينما أواصل أنا الحياةمحزونة
يائسة ، ورغم كونى ربة فانى عاجزة عن اللحاق بك . أى برسيفونى ،
خذى زوجى ! فانك أفضل منى بكثير وان كل ما هو جميل يهبط اليك .
لقد غدوت أتعس المخلوقات طرا وان حزنى مشتعل لا ينطفئ ولايخمد
له أوار . اننى أنتحب من أجل أدونيس الذى مات الآن بالنسبة لى
وانى أخشاك ، يابرسيفونى . ها أنت تموت يا من تتوق النفس اليه
مثنى وثلاث وان رغبتى تجاهك قد صارت مجنحة كما فى الأحلام .
ان الكيثيرية قد غدت أرملة وأرباب الحب قد تركوا بمفردهم فى الدار ،
أما ردائى السحرى فقد ذهب بذهابك . أيها المتهور ، لماذا ذهبت الى
الصيد ؟ لماذا يفقد انسان له كل هذا الحسن عقله كلية ويقاتل حيوانا
مفترسا ؟

هكذا انتحبت كيبريس وشاركها أرباب الحب فى النحيب (بقولهم):
« واحسرتاه على الكيثيرية ! فأدونيس الجميـــل قـــد مات » .

أنتيباتروس :

ازدهر أنتيباتروس Antipatros فى مدينة صيدا Sidôn
حوالى ١٢٠ ق.م. ، لكنه اتخذ من روما مقاما فى النصف الثانى من

القرن الثانى ق٠م٠ حيث اشتغل بالتدريس وأصبح بعد فترة من الزمن من مشاهير المجتمع الرومانى وصادق كثيرا من رجالات روما ونبلائها ، وأثناء اقامته بمدينة روما تمكن من أن يدخل اليها أهم اتجاهات الأدب السكندرى بوصفه أحد ممثليه وأن ينقل كذلك خصـائص المدرسة السورية التى يعتبر من أهم دعائمها • وفى عام ١٠٥ ق٠م٠ رجـع شاعرنا الى سوريا حيث استقر بها الى أن وافته المنيـة فى أرضها(٣٥)٠

ولقد ألف أنتيباتروس ما يقرب من سبعين ابجرامة خصص بعضها للوصف وبعضها للاهداء ولكنه كرس معظم ابجراماته لرثاء المشاهـير من أدباء ومفكرى العصر الكلاسى مثل هوميروس وسابفو وستيسيخوروس وأناكريون ، وكان أنتيباتروس فى بعض هذه الابجرامات يهجو أحد رجالات الأدب مثل أنتيماخوس أو يثنى عليه مثلما فعل مع بنداروس • وتبدو فى ابجرامات أنتيباتروس مقدرته الملحوظة على التعبير الفنى بغض النظر عن صدق الأحاسيس وتدفق المشاعر ، ذلك أن الصقل كان سمة مميزة للأدب السـكندرى عموما وللمدرسة السورية بوجـه خاص •

ومن بين ابجرامات أنتيباتروس العديدة نختار ابجرامة طريفـة يرثى فيها شاعرنا المنشد القديم أورفيوس الذى كان يطرب بأنغـام قيثارته كافة المخلوقات (٣٦) :

« أى أورفيوس ، لن تقود بعد الآن أشـجار البلوط المفتونة (بعزفك) ولن تقود الصخور ولا قطعان الوحوش التى لا راعى لها • لن تجعل بعد الآن الرياح المزمجرة تسلم أجفانها للكرى ولا خرزات البرد ولا حبات الجليد المنهالة فى كثبان ولا البحر الصاخب • ذلك لأنك الآن فى عداد الموتى ولقد ذرفت عليك بنات منيموسينى دمعا هتونـا وقبلهن جميعا وأكثر منهن انتحبت والدتك كاليوبى • فلماذا اذن نحزن على أبنائنا الهالكين طالما ليس بوسع الأرباب درأ الموت عن فلذات أكبادهم ؟ » •

وفى أبجرامة أخرى يثنى أنتيباتروس على ارينا شاعرة العصر الهيلنستى المشهورة ، ويضمن هذه الابجرامة رأيه النقدى الذى يتفق مع قولة كاليماخوس المشهورة بأن الكتاب الطويل شر وبيل (٣٧) .

« كانت ارينا مقلة فى كلماتها موجزة فى أغنياتها ، لكن كلماتها كانت جميعا من وحى ربة الشعر والهامها . لذلك لم تغب عن الذاكرة ولم يطوها النسيان ولم يتمكن الليل حالك السواد من أن يسدل عليها أستاره . أما نحن شعراء هذه الأيام ، أيها الغريب ، فنكدس أشعارنا فى تلال تفوق الحصر سرعان ما يلفها النسيان فتصير الى زوال ، مثل غربان تنعق بصوت مزعج وسط سحب الربيع دون أن تلقى بالا الى أن هناك بجعة تشدو بأغنية ساحرة » .

وهناك مجموعة من القصائد يبلغ عددها خمس وتسعون قصيدة وصلتنا تحت اسم « القصائد الأناكريونية » نسبة الى أناكريون شاعر القرن السادس ق.م. ، ويعـزى فضل وصـول هـذه المجموعة الى كونستانتينوس كيفالاس الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى . ويبدو أن بعض قصائد هذه المجموعة من نظم أناكريون على حين أن معظمها قصائد مشابهة فى اللغة والوزن والأسلوب ، فهناك عدد منها قد تم نظمه فى عهـد هادريان وفى العصر البيزنطى . ومن أجمل هـذه القصائد عدد يتغنى بالاله اروس اله الحب الصغير على طريقةالشاعر ملياجروس وشعراء المدرسة السورية مما يدفع الى الظن بأنها من نظم هؤلاء الشعراء الذى كان أنتيباتروس من روادهم (٣٨) . وأجمل هذه القصائد جميعا قصيدة مشهورة بجودة التعبير وحسن الصياغة ودرامية الشكل مما يجعلها جديرة بالترجمة هنا (٣٩) :

« ذات مرة فى منتصف الليل عندما كان كوكب الدب يتجه الى ذراع كوكب سائق العربة ، وقد خيم السبات على عيون كافة البشر الذين غلبهم الارهاق ، وقف اله الحب على عتبة دارى وطرق بابى فقلت :

« من ذا الذى يطرق الباب ؟ لقد بخرت أحلامى وأطرت النـــوم من أجفانى » • فرد على اله الحب قائلا :

« افتح الباب ولا تخش شيئا من جانبى فأنا طفل صغير • اننى أقف تحت وابل من المطر وقد ضللت طريقى فى ليل لم يســـطع به قمر » •

شعرت بشفقة غامرة عند سماعى هذه الكلمات وعلى الفور أضأت مصباحى وفتحت الباب فأبصرت بالصغير الغض ذى الأجنحة وهو يحمل قوسه وجعبة سهامه • أجلسته بجوار الموقد وبعثت الدفء فى يديه بكفى وجففت قطرات الماء التى كانت تغمر خصلات شعره ، وعندما أحس بالدفء يسرى فى أوصاله قال : « هيا الآن لنجرب هذه القوس ونرى ما اذا كانت الرطوبة قد ألحقت ضررا بالوتر » • ثم شد القوس وصوبها باحكام نحو صدرى فاخترق (السهم) شغاف قلبى مثـــل لسعة مجنونة • وعندئذ قفز وهو يضحك فى جذل وقال : « أى مضيفى ، شاركنى بهجتى وحبورى فلم يلحق أدنى ضرر بقـــوسى ، أما أنت فسرعان ما تحس بالجرح فى فؤادك » • » •

مليـــاجروس :

ولد ملياجروس Meleagros فى جادارا Gadara [٣٠] بسوريا فى أواخر القرن الثانى ق•م• ، وكانت جادارا قد أصبحت على أيامه مدينة يونانية هامة ومركزا تجاريا غنيا بالاضافة الى كونها موطنـــا للفيلسوف الكلبى المشهور منيبوس Menippos الذى ازدهر خلال القرن الثالث ق•م• وعمر طـــويلا • وكان يتردد على محاضرات الفيلسوف منيبوس عدد كبير من الدارسين الذين كانوا يفدون للتتلمذ على يديه من كل صوب وحدب ، ولقد نسب اليه فضل ابتكار نمط من الأدب الساخر عرف باســـم « الهجائيات المنيبية » • ولقـــد تأثـــر ملياجروس والشعراء المعاصرين له بتعاليم هـــذا الفيلسوف وأفكاره سواء فى الفلسفة أو فى الأدب [٣١] •

ولقد بدأ ملياجروس الكتابة الأدبية وهو ما زال فى صدر شبابه قبل أن ينهى دراسته ، اذ ألف الصورة الأولى من ديوان شعرى أسماه « قصائد حب الشباب » ، ثم ألف عدة محاورات نثرية هجائية الطابع عنوانها « ربات البهاء » Charites • وحينما غادر جادارا الى مدينة صور ...... نشر هناك جزءا آخر من ديوانه « قصائد الحب» وأهداه الى محظياته العديدات اللائى عشقهن فى سنوات شبابه ورجولته • وعندما ترك صور الى جزيرة قوص التى استقر بها الى أن توفى نشر ديوانا سماه « الأكليل » Stephanos ضمنه مختارات من ابجرامات أساطين الشعر السكندرى (٣٢) •

ومن كل ما كتبه ملياجروس بقيت لنا مجموعة يبلغ عددها ١٣٢ ابجرامة ما يخص الحب منها يربو على المائة ، أهداها الى محظياته اللائى يشك المرء من كثرتهن أنه أحبهن جميعا حبا صادقا أو أنه عرف حقا كل هذا الحشد من الفاتنات • ومن بين هؤلاء المحظيات ديمو Dêmô أو تيمو Timô ، اليهودية ذات الجدائل واللون الشاحب(٣٣) التى يقول فيها (٣٤) :

« أيها الصباح ، ياعدو العشاق ، لم نشرت ضياءك سريعا على مخدعى ولم أبعث الدفء بعد فى بشرة حبيبتى ديمو ؟ ليتك تعود أدراجك من جديد بسرعة فتغدو أنت المساء ! أنت يا من صوبت الى ذلك الضياء الحلو ، ليس هناك من هو أكثر مرارة منك بالنسبة لى • لأنك نشرت نورك فيما مضى على ألكمينى وهى بمواجهة زيوس ولا تعرف كيف تعود أدراجك » •

وهناك أيضا ديماريون Dêmarion أو تيماريون Timarion التى يعتبر شفتيها شباك اغراء وأنها سبت اروس نفسه أثناء تحليقه وحبسته داخل عينيها ، وهذه احدى ابجراماته عنها (٣٥) :

« ان شفتيك ، ياتيماريون ، مثل الفخاخ ونظراتك مثل اللهب ، اذا صوبت الى لحظك أكتوى وبلمسة منك تلتف حولى الأصفاد » •

وهذه ابجرامة يجمع فيها الشاعر عدة محظيات فى آن واحـد وهن : هليودورا Hêlio dôra الشقراء ، وأنتيكليا Antikleia ذات الابتسامة الرقيقة والعينين النجلاوين ، ودوروثيا Dôrothea ذات الأكاليل [٣٦] :

« لا وحق خصلات تيمو ، لا وحق خف هليودورا ، لا وحق ردهة ديماريون التى تتضوع عطراً ، لا وحق البسمة الرقيقة (على ثغر) أنتيكليا ذات العينين النجلاوين ، لا وحق باقات دوروثيا ذات الزهور اليانعة — لا لم تعد جعبتك ، يا اروس ، تخفى شيئا من سهامك الطائرة، فقد استقرت قذائفك كلها فى (فؤادى) » .

ومن عشيقاته أيضا أسكليبياس Asklêpias التى يقـول فيها [٣٧] :

« ان أسكليبياس هاوية العشق ذات العينين الزرقاوين مثل لون البحر تغرى الجميع على خوض غمار حبها » .

ولكن رغم تعدد محظياته وتغنيه بهن فى قصـائده فقـد شغف حباً وتعلق قلبه باثنتين على وجه الخصوص هما زينوفيلا Zênophila التى أحبها فى صدر شبابه وتتجلى فى قصائده اليها عاطفته المتأججة وحبه المشبوب وان كان يغلب عليهـا التظرف والتكلف ومع ذلك فهى لا تخلو من صدق الاحساس ورشاقة التعبير . والثانية هى هليودورا Hêliodôra التى أحبها بعد اكتمال رجولته ونضجه والتى أحبها بكل ما يملك من مشاعر وظل وفيا لها بعد موتها . ومن أمتع ما كتـب ملياجروس عن حبيبته زينوفيلا نختار أولا تلك الابجرامة الرشيقة التى لا تخلو من المبالغة التى عادة ما يحس بها العاشقون[٣٨] :

« ان ربات البهاء الثلاث قد جمعن باقات ثلاث كى تسـتلقى مع زينوفيلا فى مخدعها رمزاً لنواحى جمالها الثلاث : الأولى على بشرتها

الملساء (لتسبب) الرغبة ، والثانية على جسدها (لتحقق) الاغراء ، والثالثة فى كلماتها (لتضفى السحر) على ألفاظها الحلوة • فيالها من سـعيدة ثلاثاً تلك التى حبتها كيبريس بالرغبة وبيثو (ربة الاغراء) بالألفاظ واروس بالجمال الساحر » •

وهنا ابجرامة أخرى تتفوق فى رشاقة التعبير وجمال الصـورة وتتميز الى جانب ذلك بأنها تحوى مقارنة بين زهور البستان وبين نضارة زينوفيلا • والحق أن ولع ملياجروس بالزهور يفـوق الوصف وغرامه بمقارنة مخطياته تنضارة الزهور وأريج الورود يعتبر ظاهرة مميـزة لشعره ، ولكن هـذا أمر سنعود اليه فيما بعد[٣٩] :

« ها هى زهرة البنفسج البيضاء يانعة ، وها هى زهرة النرجس المشتاقة للغيث وقد تفتحت أكمامها ، وها هى الزنبق ربيبة الربوات وقد تألقت • وها هى زينوفيلا هاوية العشـق والزهرة الناضرة بين الزهور ،وردة الاغراء الحلوة ، وقد أينعت • أيتها المروج ، لم تضحكين احتيالا بجدائلك ؟ فضحكاتك دون جدوى ! فلقـد تفوقت فتاتى على أكاليلك التى تتضوع عطراً » •

ويبتكر ملياجروس صورة أدبية رائعة أصبحت شائعة من بعده ، اذ يتمنى أن يتحول الى اله النوم Hypnos كى يحظى بقرب حبيبته ولا يحرم منها حتى فى أثناء نومها[٤٠] :

« أى زينوفيلا ، ها أنت تنامين أيتها المخملية النضرة • ليتنى كنت هيبنوس (اله النوم) كى أتسـلل الآن بلا أجنحة الى أهدابك كى لا يزورها ذلك الذى استمال بسحره أجفان زيوس نفسه ، وحتى أستحوذ عليك وحدى » •

وفى ابجرامة أخرى نجـده يخشى على زينوفيلا المستغرقة فى نومها من لدغات البعوض فيثور عليه ثورة بها الكثير من التظرف ويخاطبه فى صورة مشرقة بهذه الكلمات[٤١] :

« أيتهـا البعوضات ذوات الطنين الحاد ، ياعديمات الحيـاء ومصاصات دماء البشر ، ياوحوش الليل المجنحة ، أتوسل اليكن أن تدعن زينوفيلا تستغرق قليلا فى نوم هادىء ، تعالين الى هنا والتهمن أطرافى هذه • ومع هذا فلماذا أخاطبكن دون جدوى ، ان الوحـوش الضارية التى لا تعرف الرحمة تجد متعة فى (لدغ) بشرتها المخملية • ها أنذا أنذركن الآن مرة أخرى ، أيتها المخلوقات اللعينة ، أن تكفن عن هـذه القحة والا فسوف تعرفن مدى بأس يدى العاشق الغيور » •

وقد يبدو هناك تناقض بين الابجرامتين السابقتين حيث أنه فى الأولى يرفض أن يسلب النوم محبوبته منه وفى الثانية يتمنى أن تدعها البعوضات لتنعم بنومها ! ولكن هـذا التناقض الظاهر لا يعكس سوى تباين المشـاعر اتى يحس بها العاشق ما بين لحظـة وأخرى تجاه حبيبة قلبه • لذلك نجد ملياجروس فى ابجرامة أخرى يخاطب احدى البعوضات بود ظاهر ويتخذ منها رسـوله الى زينوفيلا ويمنيها بالأمانى لو أفلحت فى نقل رسالته الى فتاته التى شغف بها حبا[43] :

« حلقى بعيداً ، أى بعوضتى ، وكونى رسولى السريع ! المسى أطراف أذنى زينوفيلا واهمسى لها بهذه الكلمات : « انه يسهر الليل وهو يلهج بذكرك ، أما أنت ، ياناسية محبيك ، فتنامين ملء جفنيك » • هيا طيرى ! أجل يامحبة للموسيات طيرى • عليك فقط أن تبلغى قولى لها هـذا بهدوء ورفق ، وحذار ثم حذار أن توقظى شريك مخدعها من نومه فتثيرى كوامن غيرتها وحقدها على ! ولكن ، يابعوضتى ، لو أحضرت الى فتاتى فسوف ألفك فى جلد أسد وأعطيك هراوة تمسكينها فى يدك » •

وهكذا ملياجروس ! مرة ينذر البعوض ويهدده ، ومرة يجعل منه رسـول العشاق وحبيب ربات الشعر وصنوا لهيراكليس فى البطولة ! لكن هـذه الابجرامة تثير قضـية أخطر من مجرد التناقض ، فهى أيضاً تصيبنا بالاشمئزاز من مسلك ملياجروس كعاشق متدله فى حبه لفتاة

ترقد بين ذراعى رجل آخر • فلو صح وكان صادقاً فى قوله فان كرامة رجال ذلك العصر تكون قد بلغت مستوى مهيناً ، أما لو كان الأمر مجرد تظرف فهو تطرف ممجوج لا نقبله من شاعر يحمل كل هذا القــدر من رقة المشاعر والخيال وروعة البيان •

لكن ملياجروس يعود فيعوضنا خير تعويض عن خيبة الأمل التى أصابتنا بها الابجرامة الســابقة ، اذ يرسم لنا فى الابجرامة التاليــة صورة شــعرية بالغة الروعة ومبتكرة وخلاقة فعلا ، يتحدث فيهــا عن الكأس التى تضعهازينوفيلا على شفتيها لترشف ما فيها[٤٣] :

« لقد شعرت الكأس بنشوة لذيذة : تقول انها تلثم فم زينوفيلا هاوية العشق الذى تتدفق منه الكلمات • ما أسعد (الكأس) ! ألا ليتها الآن تضع شفتيها على شفتى وتعب روحى التى بين جنبى فى رشفة واحــدة ! » •

ان ملياجروس قادر على أن يحول المعانى البسيطة الى شــعر خالد يتغنى به اللســان ، فقط حينما لا ينحدر الى مزالق التكلف • وهو شاعر يبحث دوماً عن التعبيرات والصور الجديدة ويمقت المألوف والشائع ، لذلك نجده فى ابجرامة أخرى يتخذ لنفسه شخصية المنادى الذى يبحث من طفل ضال هو اروس الصغير • وبعد البحث المتواصل يجده مختبئاً بعينى حبيبته زينوفيلا وكأنها أسرته وأخفته داخل عينيها لتصبح أقوى من اروس نفسه[٤٤] :

« انى أنادى على اروس الضارى • فالآن ، الآن تواً قد ترك فراشــه محلقاً بجناحيه مع خيوط الفجر • انه صبى حلو العبرات لا يكف عن الثرثرة ، سريع عديم الحياء ، ســاخر فى ضحكته ، بجناحين فى ظهره ويحمل جعبة للســهام • وليس بوسعى أن أخبركم من هو أبوه : فلا الأثير ولا الأرض ولا البحر يقرون بأنهم أنجبوا مثل هــذا

الوقح الجســور ، فهو ممقوت أينما ذهب من الجميع . ولكن خذوا حذركم حتى لا ينصب من توه شراكاً أخرى يقتنص بها القلوب . آه ! ها هو ذا بجوار وكره ! ايه ، ياذا الســهام ، لم تغب عن ناظرى منها أنت مختبىء بعينى زينوفيلا » .

لقد جعــل ملياجروس عينى زينوفيلا وكراً لاروس اله الحب ، وهو ابتكار طريف ما فى ذلك شك : فلقد كان شاعرنا يهدف من وراء الابتكار والتجديد فى كل من التعبيرات والشكل الفنى أن يمتع قراءه ويبهرهم . لذلك فهو يعمد فى ابجرامة أخرى الى تقمص شخصية رجل يطلب من صاحب المزاد أن يبيع اروس الصغير ، ولكنه أمام دموع هــذا الخبيث الصغير يشفق عليه ويعدل عن بيعه[٤٥] .

لكن هليودورا التى أحبها فى سنوات رجولته كانت أعظم محظياته منزلة فى قلبــه : فهى وردة الورود وزهرة الأزاهير وباقة الباقات ، وهى التى كان يروق له أن يهتف أمامها فى وجد وانفعال[٤٦] :

« ان اروس نفسه قد صاغ فى شغاف قلبى صورة هليودورا ، حلوة الأحاديث وروح الروح » .

وهى التى كان يرى أكاليل الأزهار أقل من أن تكون كفواً لها وأدنى من أن تضارعها فى التألق والبهاء[٤٧] :

« ان اكليل الأزهار حول رأس هليودورا قد ذبل لأنها هى ذاتها تتألق . انها اكليل الأكاليل » .

وهى التى كان يعتقد أنها من فرط حســنها ستقهر يوماً بفتنتها ربات البهاء « الفاتنات » أنفسهن[٤٨] :

« انى لواثق من أن هليودورا حلوة الأحاديث سوف تفوق يوماً بحسنها ربات البهاء أنفسهن » .

وكان ملياجروس قادراً كشـــاعر على التحليق فى آفاق الخيال كى يرسم لنا صورة مبتكرة رائعة : فهو يتخيل فى احدى ابجراماته أن قلبه مثل كرة يلعب بها خصمان أحدهما الاله اروس والآخر حبيبته الشـــقراء هليودورا[٤٩] :

« اننى أغذى اروس لاعب الكرة وأرعاه • وها هو ، أى هليودورا يلقى اليك بقلبى الذى يترنح بين ضلوعى • هيا اذن واقبلى أن تكونى شريكته فى اللعب ! فانك ان لم تلق اليه من جانبك بالرغبة فلن يتحمل مثل هـــذا التصرف المهين الذى لا يتفق مع أصول اللعب » •

وفى ابجرامة أخرى يسترحم شـــاعرنا المفتون آله الحب اروس ويتوسل اليه أن يرق لحاله وأن يشفيه من نار الحب التى اكتوى بهـــا فؤاده ومن وخزات ســـهامه الفتاكة التى جرحت قلبه وأدمته[٥٠] :

« أضرع اليك ، يااروس ، أن تبجل ربة الشـــعر شفيعتى لديك وأن تجعل رغبتى العارمة والتى لا تهجع تجاه هليودورا تستسلم للكرى• قسما بقوسك الذى تمرس على قذف ســـهامه على دون سواى ، والذى يمطرنى دوما بوابل من قذائفه المجنحة انك لو قتلتنى لأتركن مرثية تعلن حديثى هـــذا : « ياعابر السبيل ، أنظر هـــذا دم سفكه اروس ! » •

ثم يتخيل ملياجروس نفســـه وقد استلقى فى ظلال شـــجرة بمنطقة ريفية نائية هرباً من اله الحب اروس الذى يترصده ويصليه بســـهامه ، فيأتى جدجد صداح ليقطع عليـــه خلوته ويقلق راحته • ومن ثم يتوجه الى هـــذا الجدجد المحب للعـــزف والغنـــاء بالحديث الطريف التالى[٥١] :

« أيها الجدجد ، ياذا الجلبة والضجيج ، يامن أسكرتك قطرات الندى • ها أنت تشـــدو بأغنية ريفية وتملأ الأماكن المهجورة بصرير حاد • وها أنت تجلس على أطراف أوراق الشـــجر بأرجلك الشبيهة بالمنشـــار وبجلدك الذى أحرقته أشـــعة الشمس وترفع عقيرتك بألحان

كأنها عزفت على القيثار • ولكن هل لك ، ياصديقى ، أن تعزف لحنا مرحاً لحوريات الغاب وأن ترد بأنشـــودة على أغنية الالة بان حتى يتسنى لى أن أهرب من اروس وأن أحظى باغفاءة قصيرة ســـاعة القيلولة وأنا أتمدد هنا تحت هــذه الشجرة ذات الظلال الوارفة » •

وحين يشتد الوجد بملياجروس ويحلق فى ســماء الحب يرى هليودورا ربة من الربات ، لا بل عدة ربات فى آن واحد : فيشرب نخبها كربة للاغراء وكربة للحب وكربة للبهاء ، ويطيب له أن يمزج اســمها بالنبيذ الذى يرشفه[٥٣] • وفى ابجرامة أخرى يمزج بينها وبين الراح ويجد ســعادة فى أن يردد اســمها فى كل مرة يملأ فيهــا كأسه ، وكأن مجرد ذكر اسمها يخفف الخمر المعتقة • ويتمنى أن يضع على هامته اكليلها الذى يفوح منه العطر رغم أنه مجدول بالأمس ، ويعتقد أن وردة الاكليــل ســتبكى لو وجدت هليــودورا فى مكان آخــر غير ســاعديه[٥٣] :

« املأ الكأس وقلها من جديد مرة بعد مرة « نخب هليودورا » • ردد ذلك الاسم العذب واخلط باسمها النبيذ الصافى ، وكلل هامتى بالباقة التى تتضــوع عطراً وتفوح شــذى وأريجاً رغم أنها نظمت بالأمس ، وذلك كى أذكر نفسى بها • وانظر الى الوردة صفية العشاق وهى تسكب عبراتها لأنهــا تشــاهد (محبوبتى) فى مكان آخــر غير ذراعى » •

ويعيد ملياجروس الى أذهاننا صوراً ترددت من قبل فى ابجرامات أسكليبيادبس حين يكرر اللوحة الشــائعة للعاشق الذى يعلم بوجود غريم ينافسه فى حب فتاته فلا يتمنى أكثر من انطفاء المصباح كما فعل أسكليبيادبس ، أو يحذر البعوضة من ايقاظه كما فعل هو نفســه فى الابجرامة المذكورة منــذ قليل • فنراه فى ابجرامة أخرى يتوسل الى ربة الليل نيكس Nyx ، رفيقته فى مجونه ، أن تذهب بنور المصباح

لو استلقى أحـد مع حبيبته هليودورا وأن تحول هـذا الغريم الى انديميون Endymiôn آخر[٥٤] : وكان انديميون فى الأسـاطير شاباً جميلا قدرت عليه ربة القمر سيلينى Selênê نوماً أبدياً بعد أن أحبته ، وذلك من أجل أن تزوره كل يوم وتسـتمتع بحبه وتستحوذ عليـه . وفى قصـيدة أخرى يتصور شـاعرنا أن هناك من اختطف محبوبته هليودورا ويتعجب كيف يتجاسر شخص على نزال اروس الذى لا يقهر ، وبعد أن يشعل المشاعل للبحث عنها ليلا يسمع وقع أقدامها فيرتد قلبـه الى صـدره[٥٥] .

لقـد كان كل ما فى هليودورا يأسر لب شـاعرنا ملياجروس ، فبعد أن يصفها بأنها حلوة الأحاديث يصرح بأن صوتها فى أذنيه أجمل من أنغام قيثارة الاله أبوللون[٥٦] :

« قسماً باروس انى لأود أن يشنف صوت هليودورا أذنى أكثر من نغم قيثارة ابن ليتو (أبوللون) » .

ولم يكن يرى الجمـال فى صوتها فحسب بل استهوته أظافرها الطويلة فراح يبحث فيها عن جمال يتغنى به[٥٧] :

« أى ظفر هليودورا ، ان اروس هو الذى رعاك واعتنى بك ، فان خدشك يصل الى شغاف قلبى » .

ثم يصل الى قمة اعجابه حينما يتحدث عن بشرة هليودورا المخملية ، فيتعجب كيف تترك النحلة أزهار الروضـة اليانعة لتقف على وجنتى هليودورا ! أليس معنى ذلك أن الفتاة أكثر جاذبية من الورود[٥٨] ؟ :

« أيتها النحلة ، يامن تعيشين على الزهور . لمـاذا تلمسين بشرة هليودورا وتهجرين براعم الربيع ؟ أفهل تعلنين بذلك أن لها فى القلب دوماً وخزة سـهم اروس الوبيل : حلاوة ومرارة ؟ أجل يلوح لى أن هـذا هو ما تقولين . هيا اذن ، يامحبة للعاشقين ، ارحلى عنها وعودى أدراجك فاننى أعرف ما قلته هـذا منذ أمد بعيد » .

ثم يبلغ الافتتان بشاعرنا أقصاه فينظم باقة من الزهر كى يقدمها لمعبودته هيلودورا تعبيرا عن حبه المتدفق ، ورغم جمال زهور الباقة فهو لا يعتقد أن أريجها سيكون كفواً لعطر هليودورا • ان صــدق احساس ملياجروس فى هــذه الابجرامة يبدو أوضح ما يكون ، وهى فى رأينا واحدة من أروع قصائده سواء فى صــدق المشاعر أو فى جمال الصورة أو فى بســاطة التعبير[٥٩] :

« سأجدل أزهار البنفســج الأبيض وأنظم النرجس الغض مع الريحان • سأجدل الزنبق الباسم وأصف الزعفران البهيج • وسأجدل أيضا زهور الغيسلان القرمزى وأنظم الورد صفى العشاق • وأجعل من هــذا كله باقة على وجنتى هليودورا ، ذات الخصلات التى تتضوع عطراً ، لتنثر أزهارها على شعرها الفاتن المسترسل » •

وحين رحلت هليودورا عن الحياة لم يطق ملياجروس المقام بمدينة صور بعد وفاة من أحبها فوق كل وصف والتى أستحوذت على مشاعره وملكت قلبه : لقد كان موتها صدمة زلزلته فانزوى بعدها عن الحياة فى جزيرة قوص • ولقد كتب يرثى جميلة الجميلات مالكة فؤاده بابجرامة رائعة خلابة مؤثرة يبدو فى سطورها صدق الاحساس والحزن الغامر واللوعة ومرارة الفراق والاخلاص والاحساس بالفجيعة ، كل ذلك فى لغة بسيطة سلسة تحرك المشاعر وتجعل الدمع ينساب تأثراً • ورغم حزن شاعرنا الغامر لا يخونه الفن ولا ينزلق به التعبير بل تتجاوب معه الصور وتنطاع له التعبيرات[٦٠] :

« هذى دموعى ، كل ما تبقى لى من حبى ، أهبها لك ، ياهليودورا ، كى تصل الى هاديس • دموعى المستعصية أسكبها هنا مدراراً على قبرك المســتحق لدمع هتون ذكرى لعاطفة جارفة ، ذكرى لحنان غامر • فياله من كرب يدعو الى الشفقة والرثاء أن أبكيك ، أنا ملياجروس ، وأنت بين الهالكين وقد غدوت قرباناً لا جدوى منه (لنهر) الأخيرون •

واحسرتاه ! أين النضارة اليانعة التى طالما ابتغاها فؤادى ؟ لقد اختطفها هاديس ! لقد سلب منى تلك الزهرة الغضة ومرغها فى الثرى . لكنى أضرع اليك ، أيتها الأرض الأم ، يامن تغذين الجميع ، أن تحتضنى بين حناياك فى رفق تلك التى تستحق أن يبكى عليها العالمين » .

ما أصعب الاختيار من بين ابجرامات ملياجروس ! فلكل واحدة سـحر خاص يجعل تركها أمراً محزناً . والحق أنه كان يتعين على فيما اخترت أن أنتقى من بين ما هو كثير وزاخر ، وأن أتحمل مسـئولية تمثيل هـذا الشاعر المبدع بهذا العدد من القصائد وحده دون غيره . لكن ما يبعث على العزاء أننى قدمت من قصائده أضعاف ما قدم فى أية دراسة أخرى أكبر حجماً فى اللغات الأوربية .

وفى جزيرة قوص عكف ملياجروس فى الفترة الأخيرة من حياته على تدوين اكليله Stephanos الذى ضمنه قصائد الشعراء الغنائيين القدامى والمعاصرين ، بدءاً بسابفو Sapphô وانتهاء بشعراء عصره . وكان هـذا الكتاب أساساً دون على نمطه فى العصور التالية كتاب المختـارات الشـهير بعنـوان « الأنثولوجيـة البالاتينيـة » Anthologia Palatina ، الذى كان صورة مبكرة من « الأنثولوجية الاغريقية »[61] . ولقد رتب ملياجروس ما اختاره من قصـائد وفقاً للحرف الأبجدى الذى تبدأ به الكلمة الأولى من القصيدة ، واختار لكل شاعر من الشعراء الزهرة التى تتناسب فى رأيه مع جمال أشعاره[62] : فشـبه سابفو بالزنبق ، وارينا بالوردة وكاليماخوس بالنرجس ، وأسـكلبيياديس بشـقائق النعمان ، وأناكريون بالياسمين البرى ، وأرخيلوخوس بزهرة الصبار لأن أشعاره كانت مؤلمة لاذعة . فاذا كان من حقنا أن نختار بدورنا زهرة تحاكى أشعار ملياجروس فمن الأنسب أن نختار له زهرة البنفسج التى كان دوما يحبها والتى تحاكى جمال قصائده الأخاذة .

لقد كان ملياجروس آخر قبس متألق ترسله منارة الاســكندرية وآخر ضوء ساطع ينبثق منها قبل أن تســلم مشعلها الى عصر جديد سيقدر له أن يمضى بالحضــارة قدماً للأمام ولكن بغير روح هيللاس الصــافية •

* * *

حواشى الفصل الثالث

(١) Cf. A. Lesky, op. cit., pp. 703 , 786; O.C.D., s.v. Aristophanes of Byzantium, p. 114; P. M. Fraser, op. cit., pp. 459 ff.

(٢) Cf. R. Pfeiff, History of Classical Scholarship, Oxford (1968) , pp. 171 ff.

ومن اهم اعمال ارستوفانيس البيزنطى ملخصاته hypotheseis القيمة لأعمال كتاب الكوميديا الاغريق ولمسرحيات مناندروس على وجه الخصوص ، بالاضافة الى أعمال اخرى كثيرة نسبتها الية المصادر القديمة .

(٣) M. Hamdi Ibrahim, Graeco - Roman Education in Egypt from the to the 4lh Century A. D. According to Papyri, (in Modern Greek), Athens (1972) , pp. 104 - 105 .

(٤) Cf. A. Lesky, op. cit., pp. 74 - 75 , 789; O.C.D. s.v. Aristarchus of Samothrace, p. 109; P. M. Fraser, op. cit. pp. 462 ff.

(٥) R. Pfeiffer, op. cit., pp. 210 ff.

(٦) Athenaus, Deipnosophistai , V, 196 A, 103 E.

(٧) F. A. Wright, op. cit., p. 119.

(٨) ibid, p. 120.

(٩) Cf. A. Lesky, op. cit., pp. 787 - 788; O.C.D., s.v. Dionysius Thrax , p. 352.

(١٠) Uhlig, Grammatici Graeci, Leipzig I (1883) ,p.5.1.

(١١) Cf. R. Pfeiffer, op. cit., pp. 260 - 270; P. M. Fraser, op. cit., pp. 469 - 470.

(١٢) F. A. Wright, op. cit., pp. 144 - 147.

(١٣) O.C.D., s.v. Posidonius , pp. 867 - 868; A. Lesky, op. cit., pp. 679 - 680.

(١٤) O.C.D., s.v. Didymus, pp. 340 - 341.

(١٥) Cf. R. Pfeiffer, op. cit., pp. 274 ff; A. Lesky, op. cit., p. 788.

(١٦) Cf. P. M. Fraser, op. cit., pp. 473 - 474.

(١٧) F. A. Wright, op. cit., p. 139 ; A. Lesky, op. cit., p. 726.

(١٨) F. A. Wright, op. cit., pp. 139 - 140; A. Lesky, op. cit., p. 726; O.C.D., s.v. Moschus, p. 701.

(١٩) U. von Wilamowitz - Moellendorff, Bucolici Graeci-Moschus : carmen ii, ll. 108 - 130.

(٢٠) ibid., Epitaphius Bionis, ll. 98 - 104.

(٢١) F. A. Wright, op. cit., pp. 140 - 141.

(٢٢) O.C.D., s.v. Bion, p. 168.

(٢٣) د . محمد صقر خفاجة ، شعر الرعاة ، صص ٥٧ — ٥٩ .
قارن أيضا : A. Lesky , op. cit., p. 727.

(٢٤) U. von Wilamowitz - Moellendorff, op. cit., Bion : carmen i, ll. 1 - 63.

(٢٥) F. A. Wright, op. cit., p. 149.

(٢٦) Ep. Gr., p. 217 , no . 10 = A.P. vii, no. 8.

(٢٧) Ep. Gr., p. 235, no . 53 = A. P. vii, no. 713.

(٢٨) F.A. Wright, op. cit. pp. 150 - 151; A. Lesky, op. cit. , p. 177.

(٢٩) A. Trypanis, The Penguin Book of Greek Verse, Penguin series (1971) , p. 160, no. 77.

(٣٠) Cf. Ep. Gr., 251, nos. 3 4 = A. P. vii, nos. 418 — 419 .

(٣١) F.A. Wright, op. cit., pp. 156 - 158.

(٣٢) د . محمد محمود السلامونى ، ملياجروس السورى : اشهر شعراء النسيب ، مجلة كلية الآدب — جامعة الاسكندرية ، العدد ١٥ (١٩٦١) ، ص ص ٥٦ وما يليها .

(٣٣) عن الابجرامات المخصصة للمحظية ديمو انظر :

Ep. Gr., p. 257 , no. 23 = A. P. v, no. 197; Ep. Gr. p. 258, no. 26 = A. P. V, no. 160; Ep. Gr., p. 258, no . 28 = A. P. V, no. 173 .

(٣٤) Ep. Gr., p. 258, no. 27 = A.P.V., no. 172.

(٣٥) Ep. Gr., p. 267, no . 59 = A.P.V, no. 96.

وانظر ايضا عن نفس المحظية الابجرامة التالية :

Ep. Gr., p. 267, no. 60 = A. P. V, no. 204.

(٣٦) Ep. Gr., p. 257, no. 24 = A. P. v, no. 198.

(٣٧) Ep. Gr.. p. 258, no. 25 = A. P. V, no. 156.

(٣٨) Ep. Gr. , p. 262, no. 39 = A.P.V, no. 195.

(٣٩) Ep. Gr., p. 255, no. 31 = A. P. V, no. 144.

(٤٠) Ep. Gr., p. 261, no. 36 = A.P.V, no. 174.

(٤١) Ep. Gr. , p. 260, no. 33 = A. P. V, no. 151.

(٤٢) Ep. Gr., p. 260, no. 34 = A.P.V, no. 152.

(٤٣) Ep. Gr., p. 261, no. 35 = A.P.V, no. 171.

(٤٤) Ep. Gr. , p. 261, no. 37 = A.P.V, no. 177 .

(٤٥) Ep. Gr., pp. 261, no. 38 = A.P.V, no. 178.

(٤٦) Ep. Gr. , pp. 261 - 262, no. 38 = A.P. V, no. 155.

(٤٧) Ep. Gr., p. 263, no. 45 = A.P.V, no. 143.

وتذكرنا هـذه الابجرامة من حيث الفكرة والمعنى العـام بابجرامة مجهـولة المؤلف يرى كاتبها ان العطر الذى يرسله لمحبوبته سينال الشرف لجرد اهدائه اليها :

« أرسل اك عطراً شذيا فاسدى بذلك للعطر جميـلا لا لك . فانت بذاتك قادرة على أن تتضوعى عطراً وتنشرى أريجاً » . انظر :

Ep. Gr. , p. 356, no. 74 = A.P. V, no. 91.

(٤٨) Ep. Gr., p. 264 no. 47 = A.P.V, no 148.

(٤٩) Ep. Gr., pp. 265 - 266, no. 53 = A. P. V, no, 214.

والتشبيه فى هـذه الابجرامة مستمد من لعبة قديمة كان التبارى فيها يتم بواسطة كرة وصولجان .

(٥٠) Ep. Gr., p. 266, no. 54 = A. P.V, no. 215.

(٥١) Ep. Gr., p. 254, no. 13 = A. P. Vii, no. 196.

(٥٢) Ep. Gr., p. 263, no. 43 = A. P. V, no. 137.

(٥٣) Ep. Gr., p. 263, no 42 = A.P.V, no. 136.

(٥٤) Ep. Gr. , p. 265, no. 51 = A.P.V, no. 165.

(٥٥) Ep. Gr., p. 266, no. 55 = A.P. Xii, no . 147.

(٥٦) Ep. Gr., p. 263, no. 44 = A. P. V, no. 141.

(٥٧) Ep. Gr., p. 264, no. 49 = A. P. V, no. 157.

(٥٨) Ep. Gr., pp. 264 - 265, no. 50 = A.P.V, no. 163.

(٥٩) Ep. Gr. , p. 264 , no. 46 = A.P.V, no. 147.

(٦٠) Ep. Gr., pp. 266 - 267, no. 56 = A. P. Vii, no. 476.

(٦١) عن الأنثولوجية بالتفصيل أنظر :

د . محمد محمود السلاموني ، ملياجروس السوري : اشـــهر شعراء النسيب ، ص‌ص ٥٩ وما يليها مع الحواشي .

(٦٢) ان ما يدعو الى الدهشـــة حقاً هو ذلك الغرام الملحوظ والولع الشديد الذي يبديه ملياجروس نحـــو الأزهار ويتجلى في قصائده في مواضع عديدة شاهدناها سلفاً . ولا أدل على هذا الولع من اختياره عنوان «الاكليل» لمختاراته ، ثم تشبيهه كل شاعر من سابقيه باحدى الزهور . ان هـــذا الافتتان بالزهور يدل ما في ذلك شك على رقة احساس ملياجروس ورهافة شـــعوره وحبه للطبيعة وعشقه للجمال .

* * *

الفصــل الــرابع

خصائص الأدب السكندرى

كلمة عامة(*) :

بعد فتوحات الاسكندر الأكبر التى كانت ايذاناً ببدء عصر الدولة العالمية وانهيار نظام دولة المدينة ، هاجر الاغريق من دويلاتهم واتجهوا الى ممالك الشرق حيث النظام السياسى مختلف والهيكل الاجتماعى متغير • فبعد أن كان الفرد مواطناً فى ظل نظام دولة المدينة أصبح فى ممالك الشرق من الرعايا ، أى كان عليه أن يلوذ بكنف عاهل ولم تعد له صفة المشاركة فى سياسة دولته ، وكانت روح الجماعة هى التى تسود الدويلة فى حين غدت الروح الفردية هى المسيطرة على ممالك الشرق • لقد اتسعت رقعة العالم اليونانى على أثر فتوحات الاسكندر الأكبر وأصبح الاغريق يعيشون فى عالم مغاير تماماً للعالم الذى كانوا يحيون فيه ، ففى العصر الكلاسى كان الاغريقى يضطلع بتحمل كل أمور وطنه : يباشر ابان السلم أعمال الزراعة والتجارة وأمور الدين والسياسة ، وفى وقت الحرب يجهز نفسه بالعتاد ويلاقى فى ساحة الوغى الأعداء •

ولم يكن الأدباء والشعراء فى العصر الكلاسى من المتخصصين فى الأدب ولا من المتخذين له كحرفة بل كانوا ينطقون بما تلهمهم به قريحتهم وبما ينفعلون به ، لذلك قل أن نجد شاعراً واحداً قد ألف أكثر من نمط أدبى : فلم يكن كاتب التراجيديا مثلا يكتب الكوميديات ولم يكن شاعر الملاحم ينظم الشعر الغنائى ، ولم يكن المؤرخ يكتب فى الخطابة

(*) استفدت كثيراً فى كتابة هذا الفصل من كتاب الأستاذ فيليب اميل لجران « شعر الاسكندرية » الذى ترجمه الى العربية أستاذنا الراحل د . محمد صقر خفاجة . ولكن هناك اختلافا فى عدد من النقاط وفى طريقة التناول والاشارة والاعتماد على المصادر : فلقد حاولت التبسيط قدر الطاقة ولجأت للتركيز الشديد دون اخلال بالتحليل ، وفسرت بعض الموضوعات التى كانت مثاراً للخلاف ، يحدونى من وراء ذلك أمل فى بلورة الخصائص فى حيز محدود .

ولا الخطيب فى الفلسفة • ولم تكن خزانة أية دويلة أغريقية تضم سوى عدة آلاف من الدراخمات ولم يكن جيشها يزيد عن بضعة آلاف من الجنود ، وبناء عليه لم تكن هناك مشاكل اقتصادية معقدة يصعب حلها ولم تكن هنــاك ضرورة ملحة الى بناء جيش قوى منظم جاهز للقتال الا فى حالة الحرب أو العدوان • أما فى العصر الهيلنستى فكانت خزانة الدولة تحوى كمية ضخمة من الأموال تلزم لها ادارة معقدة وخبراء على جانب من الدراية ، لأن جباية هــذه الأموال وأوجه انفاقها تتطلب جهازاً منظماً كبيراً • كذلك كانت الحروب المستمرة والرغبة فى التوسع والسيطرة ســبباً فى وجود الجيوش الكبرى المنظمــة التى تضم بين صــفوفها المرتزقة وتتطلب انفــاقاً ورعاية كى تكون دائمــاً على أهبة الاســتعداد •

خلاصة القول أن الفرد كان يضع على كاهله انجاز كل شيء تقريباً فى العصر الكلاسى لأن جماعية الحياة كانت تجعل كل فرد مســئولا عن وطنه حتى ولو لم يطلب منه ذلك ، ولم يكن الفرد شقياً بسبب هــذه المســئولية بل كان راضــياً ومغتبطاً : فها هو ســقراط فى محاورة « فايدروس » يلوم نفســه ويشبهها بنفس العبد الغليظة التى تكره الفكر وتحب الكسل والتراخى ، وذلك لأنه ذهب ليستريح وقت القيلولة على ضفاف نهر اليسوس فاستسلم للوسن وأمضى وقتاً من الزمن دون تفكير من أجل مجتمعه ومن أجل الصالح العام : « ان الزيزان التى تغنى وتتناجى فوق رؤوسنا فى هــذه الحرارة الخانقة يبدو لى أنها تراقبنا • أنها اذ رأتنا نتوقف كعامة الناس عن الكلام وقت الظهيرة ونستسلم للوسن ونتأثر بجمالها لخمول أرواحنا ، يحق لها أن تسخر منا وتظن أننا عبيد جئنا نستريح بالقرب منها ، نقيل على حافة الينبوع كالدواب لا أكثر ولا أقل » (شعر الاسكندرية ، ص ١١٨) •

لقد تلاشى هــذا كله أو كاد فى العصر الهيلنستى ، فمع وجود المتخصصين فى الاقتصــاد والقائمين على شــئون الحرب والعارفين

بأمور الدين والخُبَراء فى السياسة أصبح الفرد متحرراً من الأعباء والالتزامات الى حد كبير وصار فى وضع يتيح له الانصراف الى رغباته الخاصة ، ومن هنا نشأت الحاجة الى التخصص تلقائياً • وقد يبدى بعض الباحثين دهشته لظهور نظام النقابات فى العصر الهيلنستى لأن الاعتقاد السائد أنها ابتكار رومانى خالص ، لكن الحقيقة أن التخصص الذى نشأ تلبية لحاجة المجتمع فى هذا العصر كان سبباً مباشراً فى ظهور هذه النقابات : ذلك أن الفرد بعد أن تحرر من المسئولية ومن معظم الأعباء وجد نفسه بحاجة الى التجمع مع غيره من الأفراد على شكل جماعات تطورت فيما بعد الى صورة الرابطة أو النقابة أو المنتدى • لقد انتقل الفرد من مجتمع محدود الى مجتمع رحب كبير ظهرت فيه الحاجة ماسة الى التخصص فى كافة النواحى ومنها الناحية الفكرية ، وترتب على هذا أن أصبح الأدب مهنة بعد أن كان تعبيراً تلقائياً للمواطن المتفاعل مع مجتمعه ، أو بمعنى آخر أصبح حرفة بعد أن كان مجرد هواية •

ولقد أفاد التخصص الأدب من ناحية الصقل واتقان القواعد ولكنه أضر به فى الوقت نفسه ، لأنه وبالتدريج جعل فهمه وقفاً على فئة محدودة وجعل تذوقه قاصراً على الصفوة بعد أن كان متاحاً أمام الجميع تقريباً فى العصر الكلاسى • ولقد شاعت فى العصر الهيلنيستى لهجة الحديث اليومى عرفت باسم « اللهجة العامية» koinê dialektos لم يقبل الكتاب على استخدامها فى مؤلفاتهم ، مما جعل لغة الأدب تختلف لأول مرة بالنسبة للاغريق عن لغة الحديث • ولقد أوجد هذا هوة كبيرة فى الاستخدام اللغوى بحيث أصبح رجل الشارع لا يتمكن من فهم الأدب المكتوب بسهولة ، وزاد من اتساع هذه الهوة لجوء معظم الأدباء الى استخدام لهجات محلية أو لهجات أدبية قديمة ، فتقلص تبعاً لذلك جمهور متذوقى الأدب وأصبح القراء فئة قليلة من

المثقفين ثقافة خاصـــة ، بل ان القراء كانوا فى بعض الأحيان هم الأدباء أنفسهم لصعوبة فهم كثير من النصوص الأدبية وغموضها •

وفى الوقت الذى كان ينبغى على الأديب أن يكتب لعالم بأسره هو عالم العصر الهيلنستى نجده يكتب فقط للمهتمين بالأدب ولم يعد يضع نصب عينيه أن يكتب مثل أديب العصر الكلاسى لكل فئات المجتمع • وان أشد ما يصيب الأدب من ضرر هو أن تتقلص القاعدة المتذوقة له وأن ينكمش جمهوره ، لأنه ان عاجلا أو آجلا سيصبح قاصراً على صـــفوة تتشيع له أو نخبة تتحكم فى أهدافه ، وقد يصل الأمر بالأدب فى بعض الأحيان الى أن لا يجد صـــدى سوى عند مبدعه وعند نفر قليل من أشياعه ومناصريه ان حقاً أو باطلا وهنا تكون الطامة الكبرى • ومع أن أدباء العصر الهيلنستى قد اختاروا موضوعات جديدة حقاً الا أن معالجتهم لهـــذه الموضوعات جاءت فى لغة غريبة عن العصر أو معقدة أو صعبة الفهم على الكثيرين • ان الغموض فى الأدب يباعد بينه وبين قرائه ولا يخدم أهداف المؤلف ، والفن فى جوهره هو البساطة والسلاسة لأنه رؤيا مستنيرة للحقيقة ولأنه تشـــكيل للواقع واعادة لتركيبه بمـــا يخدم الوجدان وينفذ الى العقل دون عناء ، من أجل هـــذا ينبغى أن يقدم الفن للجميع ولكافة البشر لا أن يقتصر على القلة أو يصبح امتيازا للصفوة ، واذا جاز للفكر الفلسفى أن يخاطب العقل الذى هذب وثقف واتسعت مداركه فان الفن لا يجوز له أن يتجاهل الوجدان والمشـــاعر الانسانية التى هى بطبيعتها عامة عند سائر البشر •

هـــذه هى الظروف التى أحاطت بالأدب السـكندرى وحددت اتجاهاته ، والتى أجد لزاما على أن أقوم بعرضـــها قبل الحديث عن الخصائص التى ميزت أدب الاســكندرية عن العصور السـابقة عليه والتالية له • ومن الجدير بالذكر أن عرضنا لخصائص الأدب السكندرى سيتم فى ضوء المؤلفات والأعمال التى سبق الحديث عنها فى الفصول الثلاثة السابقة وذلك من أجل أن تتاح للقارىء فرصة المقارنة والحكم •

اولا : البحث عن الجـديد :

كانت فتوحات الاسكندر الأكبر بمثابة انطلاقه أمام كتاب التاريخ والجغرافيا أتاحت لهم أن يكتبوا تاريخ شـعوب جديدة وغريبة وأن يصفوا عادات أهلها وغرائبها وأن يدرسوا جغرافيتها ، وكان لزاما على الكتاب أن يسيروا بخطى أسرع كى يلاحقوا الغزاة والمكتشفين • اذ كانت مهمتهم هى تعريف مواطنيهم بهذا العالم الجديد الزاخر ومحاولة الربط بين ما كان سائداً من أفكار وبين الأفكار الجديدة التى يشاهدون تحقق ثمارها أمامهم يوماً بعد يوم ، ولقد أشرنا فيما سـبق الى عدد من المؤرخين الذين كرسوا أعمالهم لتدوين تاريخ مصر والهند وبابل وآسيا الصغرى وبلاد فارس وروما •

ولقد كان التاريخ قبل الاسكندر يهتم بالنظرية والمغزى والتحليل لكن كتاب ما بعد الاسكندر اهتموا فى المقام الأول بكتابة السـيرة ، ولم يعد المؤرخ يهتم بالرؤية الشـاملة قدر اهتمامه بتسـجيل أعمال الأفراد العظماء وقدر ايراد كل ما هو غريب ونادر • وفى ميـدان الفلسفة اتجهت الدراسة من البحث فى المعرفة والوجود والميتافيزيقا الى البحث فى مجال الأخلاق والسلوك ، أما فى الأدب فقد عزف الأدباء عن الأنماط القديمة التى اعتقدوا أنها لم تعد تناسب عصرهم واتجهوا للتجديد سواء بابتكار أنماط لم تكن معروفة من قبل أو باحياء أنماط قديمة كانت قد اندثرت • ولقد عبر زعيم المجددين الشاعر كاليماخوس عن حبه فى الجديد وكرهه للمطروق والمألوف فى مواضع كثيرة من أعماله كما أسلفنا ، وما المسـاجلة التى دارت بينه وبين أبوللونيوس سوى مظهر من مظاهر الرغبة العارمة فى التجديد ، وسوى تعبير عن ذلك التيار الذى ساد ولم يعد فى امكان أية قوة أن تتصدى له •

— لقد أدرك أدباء العصر السكندرى — وهم على حق فى ذلك —

أن الأدب الذى ساد أثينا ابان القرن الخامس ق٠م٠ كان وليدظروف اجتماعية وسياسية وحضارية قلما تتكرر وأن من المستحيل منافسته ومن العبث تقليده ، فعزفوا عنه واتجهوا الى أدب الفترة السابقة عليه ونعنى بهــا فترة القرنين السابع والسادس ق٠م٠ ، حيث وجــدوا ضالتهم فى الشعر الغنائى الذى تتجلى فيه الروح الفردية بوضوح: ذلك أن العصر الذى ازدهر فيه الشعر الغنائى كان مماثلا من نواح كثيرة للعصر السكندرى سواء فى نظام الحكم السائد أو فى دور الفرد والتزاماته الى حد ما ٠ ولكن أدباء العصر السكندرى فى نقلهم للنماذج القديمة لم يكونوا مجرد ناقلين مستعبدين للأنماط الأدبية المنقول عنها ، بل كانوا مجددين ومبتكرين لألوان من الأدب قدر لها أن تبقى بعدهم أجيالا طويلة وأن تؤثر على كثير من الأدباء اللاحقين ٠

ان الدليل على حب التجديد والبحث عن الجديد فى هذا العصر يمكن أن يؤخذ من أقوال الكتاب أنفسهم : فكاليماخوس يعلن أنه يكره الدرب المطروق ويمقت تقليد الشائع والمألوف ، ويسخر ثيوكريتوس من مقلدى هوميروس ويصفهم بالعصافير التى تحاول عبثا منافسة البلبل الصداح ذى الصوت الرخيم ٠ ويعود كاليماخوس ليعلن أن « الكتاب الكبير شر مستطير » وأنه يكره الضخامة فى كل شىء سواء فى قصيدة « ليدى » التى نظمها أنتيماخوس الكولوفونى أو فى ملحمة العصر « الأرجوناوتيكا » ٠ كذلك فان فى اختيار الكتاب للأنماط الأدبية التى يؤلفونها ما يدل بوضوح على أن اتجاهاتهم فى التأليف الأدبى تشهد على ولعهم بالتجديد والبحث عن ما هو جديد ، فهم الذين ابتكروا شعر الرعاة الذى لم يكن له وجود قبلهم وهم الذين طوروا الابجرامة ولم تك قبلهم فنا مشهورا ، وهم الذين ابتكروا المليحمات وبرعوا فى كتابة السيرة والأناشيد والميميات ٠ ويبدو من انتاجهم الأدبى أنهم لم يكتفوا بابتكار ألوان أدبية جديدة بل بذلوا جهدهم فى تطوير أنماط قديمــة أحسوا أنها يمكن أن تستوعب سمات عصرهم وخصائصه ٠

ان الأدباء والكتاب فنانون فى المقام الأول والفنان يحب أن يبتكر لنفسه الاطار الذى يستطيع التحرك داخله ، كما أن الفنان بطبعه يترفع عن التقليد ويحب أن ينفرد بتعبير خاص به وأن تكون له شخصيته المستقلة . لذلك رفض أدباء العصر السكندرى وكتابه أن يسيروا فى طريق سبقهم غيرهم الى ارتياده مهما كان ساميا ، وفضلوا أن يسلكوا دربا خاصا بهم حتى لو كان متواضعا .

ثانيا : اندثار الوطنية وظاهرة التملق :

كان الارتباط فى القرن الخامس ق.م. وثيقا بين المواطن والدولة اذ كان الفرد حينئذ يعتقد أن من الأفضل له أن يعيش فقيرا فى مدينة عظيمة من أن يحيا عظيما فى مدينة خاملة الذكر . لكن الفرد فقد فى عصر الاسكندرية الشعور بالانتماء والاحساس بحب الوطن ، ولا يجدر بنا أن نتوقع استمرار ذلك الشعور المتدفق من الوطنية : فالفرد لم يعد يرغب الا فى الحصول على ما يسعده ويحقق ذاتيته بغض النظر عن وطنه . وهل كان للاغريقى فى ذلك العصر حقا وطن ؟ من الصعب أن نجد استقرارا أو تمسكا بمسقط الرأس أو عاطفة حقيقية يكنها الفرد تجاه موطنه ، بل نجد دوما نزوعا الى الهجرة حيث الرخاء أو المال أو الشهرة وتنصلا فى الوقت نفسه من الارتباط بالأرض والوطن .

ان كل مؤلفات القرن الخامس ق.م. — سواء فى الأدب أو التاريخ أو الفلسفة — تعكس مدى الارتباط بين المواطن والمجتمع ومدى تفاعل هذا المواطن مع الجماعة التى يحيا متوافقا مع رغباتها الى حد كبير . حقا ان رغبة الجماعة تتغلب على رغبة الفرد لكن هناك اقتناع من جانب الفرد بأن مصلحته لا تختلف عن المصلحة العامة أو تشذ عنها ، وما موقف سقراط عند محاكمته وقبوله الموت طاعة للقوانين سوى انعكاس لهذه النظرة مهما بدا لنا موقفه هذا غريبا أو متطرفا فى سموه ومثاليته . كذلك فقد كان أعظم رثاء للشهداء قاله الشاعر سيمونيديس هو أنهم يرقدون رقدتهم الأخيرة طاعة لوطنهم اسبرطة .

لكن حينما انهار هذا الارتباط مع انهيار نظام دولة المدينة لم يعد

الاغريقى مرتبطا بوطنه ولا بمسقط رأسه ، بل طفق يتنقل بين الممالك والأقطار سعيا وراء حياة أفضل من الناحية المادية ولم يعد لديه دافع يلزمة بشيء تجاه الوطن • ان احساس الاغريقى فى هـذا العصر تجاه مسقط رأسه لا يعدو شعورا بالحنين الهاذيء مثل مشاعر ألكايوس من ميسينى الذى يتمنى فى أشعاره استرداد أرضه من براثن المحتلين • لقد غابت الوطنية الصادقة واندثرت العاطفة الجياشة تجاه الوطن وحل محلها تعاطف ازاء البشر جميعا لا ازاء الوطن فحسب ، وربما كان السبب فى ذلك أيضا هو انتشار فكرة العالمية التى راجت فى ذلك العصر • لقد كان الاغريقى القديم يحيا فى أرضه ووسط مناظر بلاده وفى أحضان طبيعتها الخلابة التى كانت تغذى مشاعره وتنطقه شـعرا ملهما ، وكان يعيش وهو مرتبط بالحيـاة السياسية فى دويلته مشاركا فى أمور وطنـه فى السـلم والحـرب على السـواء ، وكان دائم التـأثر بفنـون مدينته من أدب وفن تشـكيلى • فالوطن بالنسـبة للانسـان ليس أرضـا ولا مسـقط رأس فحسب ولكنـه مجموعة من العلاقات النامية والمتشابكة بين الفرد وبيئته • كان المواطن الاغريقى القديم اذن جزءا لا يتجزأ من وطنه وكان ارتباطه يتجلى فى الناحية السياسية التى كانت تتيح للفرد مشاركة الجماعة فى كل شئون الدويلة، ويتجلى أيضا فى ذلك التفاعل المـدهش مع البيئة التى تكتنفه بحيث يشب وهو يمتع ناظريه بمعابدها وجبالها ووديانها وطرقاتها ونمطالحياة فيها • لكن الانسان حينما يعيش وسط بيئة لا تتيح له كل هذا أو بعضه فانه يفقد تدريجيا ارتباطه بوطنه وينساه الا من حنين هادىء وشعور بالتعاطف خال من الحماس ، ثم لا يجد هذا الانسان بدا من مسايرة الحياة فى مستقره الجديد بشكل أو بآخر وفقا للظروف المحيطة به •

فاذا ما حاولنا ربط مشاعر الوطنية بالأدب وجدنا بداهة أن هناك اختلافا بين كاتب ينشأ على تنسم مشـاعر الحرية وتقديس الوطن ، وكاتب آخر لا يعدو كونه أحد رعايا أمير أو ملك فى بلد غير بلده وينشأ على الولاء للحاكم لا على حب الوطن ومن ثم يكون عرضة للانزلاق

الى التملق المفضوح والتزلف المذموم • وحيث أن معظم الكتاب كانوا يعيشون فى كنف الملوك والأمراء لم يعد بعضهم يأبه بما يجرى حوله قدر اهتمامه بالتعبير عن معان متظرفة قد تعجب راعيه وأشياعه ولكنها خالية من الفعالية لدى جمهور بأسره • ان القسم الأكبر من مؤلفات العصر السكندر يزخر للأسف بظاهرة التملق : فمن الأعمال الأدبية التى وصلتنا من العصر السكندرى نجد عددا قد خصص للمدح وهى كلمة مهذبة للملق ، ومن هذه الأعمال قصيدتان لثيوكريتوس فى مدح هييرون وفى الاشادة بفيلادلفوس ، وقصيدة كاليماخوس التى يمجد فيها خصلة شعر برنيقى وابجرامته التى يعلن فيها أن ربات البهاء قد أصبحن أربعا بعد مشاهدته لتمثال برنيقى والقصيدة التى نظمها أراتوس فى مدح أنتيجونوس •• الخ •

وهناك تملق يدسه الشاعر بعناية فى مؤلفات غير مخصصة أصلا للمدح ، ولكن الشاعر يختلق الفرص اختلاقا كى يدفع بهذا الملق ضريبة الولاء نحو راعيه • لكن هذا الملق مفضوح مهما حاول المؤلف تغليفه بعناية وايهامنا بأنه جاء وحى الخاطر : وكمثال على هذا الملق المستتر نجد الاله أبوللون فى نشيد ديلوس لكاليماخوس يصيح وهو جنين فى بطن أمه محذرا اياها من أن تلده فى جزيرة قوص ، لا لشىء سوى أنها ستكون فيما بعد مسقط رأس الملك فيلادلفوس • وفى قصيدة السيراكوسيات لثيوكريتوس تصيح احدى السيدتين فجأة فى دهشة لتعلن أن فيلادلفوس قد قام بأعمال مجيدة منذ موت أبيه سوتير ، وفى قصيدة « حب كينسكا » لنفس الشاعر نجد شخصا ينصح صديقه الذى فشل فى حبه أن يخدم فى جيش الملك بطلميوس كى يحصل على السلوى ويظفر بالنسيان ، والأمثلة غير ذلك كثيرة حقا •

ان غياب الوطنية عامل هام دون شك فى وجود الملق كظاهرة جديدة على الأدب اليونانى عموما : ففيما خلا بعض اللمحاتمن قصيدة « الأعمال والأيام » للشاعر هسيودوس ، وهى لمحات لا تدل على ملق

سافر بل على احترام للنبلاء الحاكمين أو على خوف من سلطانهم، لانجد أثرا للتملق قبل العصر السكندرى •كذلك فان زوال الديمقراطية كان سببا فى فقدان الروح الوطنية وجعــل اهتمامات الفرد تكاد تكــون محصورة فى اطار حياته الخاصـــة ورغباته التى قد تكون تافهة ، مما أدى الى اتجاه الأدب نحو تحقيق هذه الرغبات وجنوحه الى الملق الذى كان نتيجة طبيعية لفقد الاهتمام بالحياة السياسية والحيلولة دون مشاركة الفرد العادى فيها •فالروح الديمقراطية أساسها المساواة وهدفها المشاركة فى تحمل المسئولية ولا مكان فيها للقهر أو الاستبداد • ومن ناحية أخرى فقد كان من أثر ارتفاع الملوك الى مصاف الآلهة وعبادتهم فى بعض الأحيان أن أقدم الشعراء على مدحهم ولم يجدوا غضاضة فى الاسراف فى ذلك بسبب قناعتهم بأنهم يمدحون من هم فوق مصاف البشر •

ثالثا : اضمحلال العقيدة الدينية وظهور المذاهب الفكرية :

لقد اعتقد اغريق العصر الهيلنستى أن آلهتهم قد تخلت عنهم بعد أن توالت عليهم الهزائم المتتالية : ففى عام ٤٠٤ ق•م• هزمت اسبرطة أثينا هزيمة ساحقة فى موقعة أيجوس بوتاموى ، وفى موقعة لويكترا عام ٣٧١ ق•م• نفضت طيبة عن نفسها غبار الذل وأنزلت الهزيمة باسبرطة ، ومن بعدها قام فيليب المقدونى بابتلاع دويلات اليـــونان الواحدة تلو الأخرى الى أن قضى على آخر معاقل التجمع اليونانى فى موقعة خايروينا عام ٣٣٨ ق•م• ثم شهد العالم اليونانى سنوات طويلة من حروب الاسكندر الأكبر التى كان يخوضها والأنفاس تلهث خلفه ، وتلت ذلك فترة أخرى من الحـــروب التى دارت بين خلفـــاء الاسكندر على تقسيم ممتلكاته ، ثم فترة ثالثة من الحروب بين الممالك الهيلنستية وبعضها • وبسبب هذه الحروب المستمرة فقد الاغريق الثقة بآلهتهم فى الوقت الذى فقدوا فيه استقلالهم وحريتهم السياسية ، وكانت نهاية المطاف سقوط نظامهم الأثير الى أنفسهم وهو نظام دولة

المدينة كنتيجة حتمية لمتغيرات العصر • غير أن العقيدة اليونانية كانت قد بدأت فى الاضمحلال قبل تلك النكبات بوقت كاف ، وذلك حينمـا ظهرت فى أوائل القرن الرابع ق•م• مدارس فلسفية متعددة خرج معظمها على الفكر الذى كان سائدا وقتذاك ولم تعد تنظر بعين الاكبار والاجلال الى الآلهة القديمة ، ثم ما لبث الشعور الدينى أن أخذ فى الاهتزاز بفعل الحروب المتتالية • فما أن انطلق الاسكندر الأكبر فى فتوحاته وفى ركابه الاغريق حتى انتفت آخر الروابط التى كانتتربط الاغريقى بوطنه وآلهته • ذلك أن الاغريق فى هذا العصر قد حيل بينهم وبين ما يذكرهم بعقيدتهم من معابد وأضرحة ففتر شعورهم الدينى ولم تعد للآلهة القديمة قدسيتها لديهم •

وهكذا فان الحروب الدائرة والمستمرة قد جعلت الناس لايأمنون على غدهم : فكيف يأمنون وهم يشاهدون مدنا بأكملها تدمر تدمـيرا ومواطنين ينفون من مدنهم قسرا وتصادر ممتلكاتهم ؟ وكيف يأمنون وهم يعيشون فى معمعة الحروب ووسط قعقعة السلاح بحيثلايضمنون أن تطلع عليهم شمس اليوم التالى ؟ وكان من نتيجة ذلك أن فقد الاغريق طهارتهم ونقاءهم القديم وأقبلوا بنهم على ملذات الحياة يعبونها عبا وعلى الحياة ينهلون منها دون ارتواء ، وبدلا من الاعتقاد فى الآلهة باتوا يعتقدون فى الصدفة الها يحرك كل شىء • ولقد أفسح ذلك كله المجال لظهور مدارس فلسفية جديدة مثل الرواقية والأبيقورية والكلبية ومدرسة الشكاك ، ولم تكن هذه المدارس فى مجموعها تنظر الى العقيدة اليونانية القديمة بعين التبجيل والاحترام بل بعين النقد وأحيانا بعين الاستخفاف • كذلك كان ازدهار العلم والنظرة العلمية سببا فى جعل الفلاسفة ومن ورائهم عامة الشعب ينظرون الى الآلهة نظرة عقلانية خالية من المشاعر ، اذ جردوها من ثوبها الأسطورى القديم ومن الهالة التى كانت تحيط بها دوما ، كما جعلت هذه النظرة العقلانية الناس

على استعداد لرفض الآلهـة القديمـة ــ على الأقـل بمواصفاتهـا التقليدية •

ونلمح فى كثير من مؤلفات العصر السكندرى صدى لذلك : ففى الأناشيد الأبوللونية التى نظمت لتمجيد ديميتريوس البوليوركيتى نجد الفقرة التالية : « ••• ان الآلهة الأخرى بعيدة عنا أو لا تستمع لنا أو لا وجود لها أو لا تهتم بنا ، أما أنت (أى ديميتريوس) فماثل أمامنا ، نراك حيا بالفعل ولست مصنوعا من خشب أو من حجر » • (شعر الاسكندرية ، ص ٥٨) •

ويتحدى الشاعر أسكليبيادنيس زيوس أن يرعد ويبرق وأن يفعل ما يشاء ولكنه لن يقدر أن يمنعه عن العشق ، لأن الاله الذى يسيطر على كل من زيوس وعلى الشاعر فى آن واحد هو أروس اله الحب • أما كاليماخوس فيسرد علينا الروايات المختلفة حول مولد كبير الآلهة كما لو كان عالما ، دون أن نلمح بين طيات شعره أثرا للرهبة أو التوقير نحو هذا الاله الذى كان مجرد ذكر اسمه قديما يلقى بالرعب فى القلوب • أما شعراء الابجرامة فقد تسابقوا جميعا تقريبا فى الاستخفاف بالآلهة والتندر عليهم والسخرية منهم ومن أساطيرهم •

ولقد ظهرت فى هذا العصر أيضا نظريات علمية فى مجال الدين مثل النظرية التى قدمها يوهيميروس فى كتابه « القائمة المقدسة » ، هـذا الكتاب الذى أثار مؤلفه الشك حـول طبيعة آلهة الأوليمبوس وأوضح بعدة دلائل أنهم ليسوا الا بشرا قاموا بأعمال مجيدة رفعتهم الى مصاف الآلهة • وكانت التربة فى هذا العصر صالحة لتغذية تلك الأفكار وترويجها ، وكان كل شىء معدا كى يتم دفن آلهة الأوليمبوس وهم ما زالوا على قيد الحياة • وعند دفنهم لم يذرف أحد عليهم الدمع سوى بعض الرواقيين المتدينين مثل أراتوس أو مثل كليانثيس ، أما

باقى رجالات العصر فقد سارعوا بنفض أيديهم من العقيدة ووجدوا فى ذلك راحة وسعادة غامرة •

وكانت النتيجة الحتمية لهذا كله هى انعدام الخشية من الآلهة فى نفس مواطنى العصر السكندرى وزوال العقيدة من حياتهم • ولم يعد هناك شيىء يبعث على الخوف فى ذلك العصر سوى أمرين : السحر الذى هو عبارة عن قوى غير منظورة بوسعها أن تؤثر على حياة المرء وسلوكه ، والحب الذى بدا للاغريق فى ذلك العصر أمرا غامضا تتسبب فى وجوده قوة خفية تسلب الانسان ارادته فلا يستطيع لها ردا ولا يملك أمامها سوى الاذعان والاستسلام •

رابعا : التفقـــه والعلمية وظاهرة الصقل :

كان العصر السكندرى بحق عصر ازدهار العلم ، فبعد أن تسلط الفكر النظرى طويلا على العقلية اليونانية أقبل العلماء على التطبيق العملى للنظريات فازدهر العلم بالتجربة ووجد ميادين جـديدة تبهر الناس • وظهر كثير من العلماء البارزين مثـل اقليدس فى الهندسـة وأرخميديس فى الرياضيات وأرستارخوس فى الفلك واراتوسثينيس فى الجغرافيا وهيروفيلوس فى الطب وغيرهم كثيرون فى كافة المجالات • ولما كان الأدباء يعيشون وسط هذه البيئة العلمية فمن الضرورى أن يتأثروا بما حولهم من معارف علمية واكتشافات كانت تعد وقتئذ مذهلة ، وكان لزاما عليهم أن يواكبوا حضارة عصرهم وأن يتشبعوا بروحهـا بحيث نتج عن ذلك اصطباغ أدبهم بالروح العلمية السـائدة • ولقد استتبع ذلك الاتجاه أن أسرف أدباء العصر السكندرى اسرافا شديدا فى الاطلاع على ثقافة العصر بنهم لايرتوى ، بحيث أصبح التفقه سمة من سمات أدبهم وغدت العلمية طابعا لعصرهم • ولقد اتخذ الأدباء من قـول كاليماخـوس « اننى لا أتغنى بشىء دون دليـــل يدعمه » ouden amartyron aeidô نبراسا لهم • وكان لغياب الالهام

والتلقائية عموما عن الشعر والأدب ولتخصص الأدباء واتخاذهم الأدب حرفة، أن نما هذا التجاه واستشرىفأصبح التفقه مستحسنا لا ممجوجا والعلمية هدفا ومطلبا يتبارى من أجله الجميع •

لد سادت هذا العصر رغبة أكيدة فى المعرفة سواء فى مجال العلم أو فى مجال الأدب : ففى المجال الأول أسفر التطبيق العملى للفكر النظرى عن اكتشافات غيرت من مظاهر الحياة البشرية الى حد ملموس ، اذ أن العلم عانى فى العصر الكلاسى من الذبول والانكماش لأرتباطه بالفلسفة وقنوعه بالانضواء تحت لوائها أو العيش فى كنفهــا ، ولم يزدهر الا بعد أن تحرر من اسارها • وفى المجال الثانى وهو الأدب انكب الدارسـون على التراث الأدبى القديم يتمثلونه وينهلون منــه ويدرسونه ويحققون نصوصه ويهتمون بنشرها على اعتبار أن هذا نوع من الاشتغال بالعلم ، ويكفى أن نشير الى أن هذا العصر هو الذى أنتج لنا أول نص محقق لكل من الالياذة والأوديسية وللشـــعراء الغنائيين ولكتاب المسرح ، وهو العصر الذى قدم لنا أول أجرومية للغة اليونانية ، وهكذا وجد الأدب مع العلم طريقا جديدا وآفاقا أرحب •

ولدينا من الدلائل العــديد على أن أدباء العصر كانوا متفقهين محبين للعلمية : فالشاعر ثيوكريتوس يصف فى أحدى قصائده عضلات الصائد وانتفاخ عروق رقبته وهو يسحب شبكة صيده ، بطريقة تقطع بالمامه المذهل بعلم التشريح ودراسته للطب • وكاليماخوس يناقش فى نشيده الى زيوس الروايات السائدة عن مولد الأله ويفندها كناقــد يعرف أصول علم النقد • وعند اكتشاف الفلكى كونون لمجموعــة من النجوم بجوار الدب الأكبر يشير معظم الأدباء الى هذا الكشف عمــدا للتدليل على معرفتهم بأحداث العصر واكتشافاته • وكاليماخوس من جديد يقارن عين الكيكلوبس (نشيد أرتميس ، سطور ٥٣ — ٥٤) بدرع ذى أربع طبقات ليشير بذلك الى معرفته باكتشاف هيروفيلوس لطبقات العين الأربع • وهيرونداس يدلل فى ميميته الرابعة على درايته بالمذاهب

الفنية ، فيذكر على لسان سـيدة تزور محراب أسكلييوس أن الفن الواقعى هو أصدق الفنون وأن رسوم أبيلليس صادقة لأنها واقعية .
وأبوللونيوس الرودى يضمن ملحمته الأرجوناوتيكا أجزاء عديدة تشهد بعلمه وتفقهه فى مجالات شتى ، بينما يتحدث أراتوس فى قصيدته « الظواهر » عن علم الفلك وارتباطه بالزراعة فى قالب من الشعر ، فكان بذلك أول من زاوج بين العلم والأدب ، ومثله فعل نيكاندروس فى قصيدة « أضداد السموم » Alexipharmakia وقصيدة « الأدوية الشافية » Theriaka. ولكن أصـدق مثال على الحذلقة العلميـة والتفقه الممجوج هو قصيدة ليكوفرون الغربية « ألكساندرا » ، التى حفلت بكل ما هو غامض عسير الفهم من الألفاظ والكلمات والاشارات والتى غصت بالتكلف والاغراب حتى صعب على القدماء أنفسهم معرفة مراميها وكشف خباياها .

ان أبرز عيوب الأدب هو الاغراب الذى يدل على الافـلاس الابداعى والفكرى ، ولكن رغم احتفاء شعراء وكتاب العصر السكندرى بالعلمية والتفقه الا أن عددا لا بأس به من مؤلفات العصر نجح فى الأفلات من مزالق الاغراب ومهاويه ، كما تألقت أعمال أخرى لابتعادها عن التكلف وميلها الى البساطة . ولقد نتجت عن الرغبة فى العلميـة والتفقه ظاهرة حب الصقل ، اذ كان شعراء الاسكندرية يهتمون بالكيف دون الكم ولعل هذا يفسر اجماعهم بزعامة رائدهم كاليماخوس على هجرة القصائد الطويلة وكره الضخامة ، فكل ما كان يشغل اهتمامهم هو الاجادة والصقل والاشتغال بالفن من أجل الفن . وكانت ظاهرة الصقل والتشذيب تعد من الظواهر الصحية فى ذلك العصر بل من الأمور التى تستحق الاشادة والتقدير ، والا ما أقدم كاليماخوس زعيم البرناس السكندرى على امتداح قصيدة أراتوس لأنها كانت ثمرة سهر الليالى. ان الصقل يهدف الى تلافى عيوب التأليف والنظم ، وان التشذيب هو انفاق وقت طويل لأضفاء اللمسات الماهرة هنا وهناك وهـو نوع من

المراجعة والتدقيق والتغيير والتبديل قبل النشر مثلما فعل شعراء روما من هواة الصقل : هوراتيوس وفرجيليوس • وما من أحد ينكر أن الصقل ينتج عنه فى النهاية جمال الشكل ورشاقة التعبير وانه يدل على اتقان الفن وعلى المهارة فى الصياغة ، وما من أحد ينكر أن الشعر السكندرى يتصف بالجمال وبالاتقان بناء على صقله ، لكننا فى الوقت نفسه لا نستطيع الجزم بأنه شعر صادق وتلقائى •

لقد كان العصر الكلاسى كله منذ هوميروس حتى أفلاطون يرى أن الشعر أساسه الالهام وأنه وحى من ربات الشعر ، وأن ما فيه من جمال مرده الى سمو المصدر الذى أنتجه وأن ربات الشعر قادرات على انطاق الشاعر بالصدق والكذب على السواء • ولكن العصر السكندرى لم يكن يرى فى الشعر سوى مقدرة يمكن اكتسابها وصقلها عن طريق التمرس ، وما حديث شعراء الاسكندرية عن فضل ربات الشعر والهامهن سوى نوع من المحافظة على التراث السائد • وكانت العبقرية بالنسبة لشعراء العصر السكندرى أمراً خارقاً لا يمكن تفسيره ولا معرفة مصدره ، فهوميروس الجليل كان بالنسبة لهم استثناء لن يتكرر ومن الجنون تقليده ، وشعراء المسرح وجدوا نتيجة ظروف غير عادية ومن الحمق التأليف على منوالهم • وكان ما يبعث على الارتياح فى نفوس السكندريين هو النجاح فى اختيار النمط الأدبى الذى يتناسب ومقدرتهم ، وكذلك جعل حيز التاليف محدودا من أجل أن تظهر المقدرة وتتجلى الاجادة والاتقان • وان فى حب الصقل والولع بالتشذيب لاعتراف ضمنى باختفاء الالهام وانتفاء العبقرية ، واذا كانت عصور الانسانية قد اختلفت فى تعريف الالهام أو فى تحديد مصدره أو فى تسميته — حيث تفضل اطلاق لفظ الابداع على كل نتاج متميز — فمما لا شك فيه أن الالهام حقيقة قائمة لأن ملكات الانسان وقواه الكامنة عالم ما زلنا حائرين فى اجتلاء أسراره •

وقد يؤخذ على شعراء الاسكندرية ميلهم الى الصقل ومبالغتهم فى الاتقان على اعتبار أن ذلك نتيجة قصور فى العبقرية وعجز عن

الالهام ، ولكن شعراء هذا العصر كانوا واقعيين فلم يتطاولوا على قدراتهم الحقيقية ، وكانوا متواضعين فلم يفسروا قصورهم على أنه تفوق من نوع جديد ، وكانوا بعيدى النظر لأنهم أحسنوا اختيار طريقهم ، وكانوا صادقين مع أنفسهم فعالجوا نقص الالهام بزيادة الصقل ، وآمنوا مع أرسطو بأن الجمال لا يكمن فى الضخامة بقدر ما يكمن فى الحجم المحدود ، وأحسوا أن مقدرتهم مهما كانت ضئيلة بالقياس الى أسلافهم الا أنها ستبدو كبيرة لو وجدت نفسها فى اتجاه يناسبها ويواكب العصر ، وهذا يدل على رغبة صادقة من جانبهم فى توكيد الذات ومسايرة الواقع •

خامسا : الغرام بالريف والنفور من صخب المدن :

كان المواطن فى نطاق دولة المدنية لا يشعر بالحنين الى الريف أو بالحاجة الى الحياة بين أحضانه ، ولم يكن يرى أنه من الطبيعى أن يختلى بنفسه ويبتعد عن مواطنيه • وكان هذا راجعا الى عاملين : أولهما أن حيز دولة المدينة نفسه لم يكن يسمح بزيادة السكان عن بضعة آلاف ولم يكن المواطن فى مثل هذا الحيز المحدود والعدد القليل من السكان يحس بصخب أو ازدحام ، كما أن الدويلة نفسها كانت عبارة عن مكان يختلط فيه الريف بالحضر حيث أن الريف كان يحيط بالمدينة من كل ناحية ولم يكن بمعبدة عنها تماماً ، وتبعاً لذلك لم يكن مكاناً نادراً يسعى اليه ساكن المدينة • أما العامل الثانى فيرجع الى نظام الدويلة السياسى الذى كان يقوم أساساً على جماعية الفكر وعلى ذوبان الفرد فى الجماعة وعلى البعد عن الذاتية المفرطة ، وذلك لتلاحم مصالح الفرد مع مصالح الجماعة تلاحماً قوياً بحيث يصعب الفصل بين مصلحة أحدهما والآخر • وخير دليل على هذا ما نجده فى محاورة فايدروس (230 D) لأفلاطون حيث يرد سقراط على صديقه فايدروس الذى أراد أن يقضى معه وقتا فى الريف للاسترخاء والترويح عن النفس بقوله :

« سامحنى ، ياأفضل (صديق) ، فاننى شخص محب للمعرفة وان الحقول والأشـــجار ليس بوسعها أن تعلمنى شيئاً بل (ما يعلمنى) هم الناس فى المدينة » • لقد كان الريف بالنسبة لمواطن القرن الخامس ق•م• مكاناً موحشاً تقطنه حوريات الغاب والاله بان حيث لا يشـــعر الفرد بالأمان ، وكان المكان الوحيد الذى يبعث على الطمأنينة بالنسبة لهذا الفرد هو جدران مدينته التى لا يطيق الابتعاد عنها •

أما فى العصر السكندرى فقد وجدت المدن الكبرى — مثل مدينة الاسكندرية — حيث يعيش من الســكان عدد يزيد عن ســكان دولة المدينة أضعافاً مضاعفة ، وكنتيجة لهذا أصبح الفرد يعانى من صخب المدينة وضوضائها ويحس فى كثير من الأحيان بالحاجة الى البعد عنها لفترة كى يشعر بالراحة والهدوء وينعم بالاسترخاء مع ذاته بلا حدود • فالشاعر كاليماخوس يشكو فى مليحمة هيكالى (شذرة ٢٦٠ ، ابيات ٦٦ — ٦٩) من أنه فى ســاعة مبكرة من الصباح يصحو المرء على أصــوات مطارق الحدادين وصياح الســقاء وهو يحمل قربته وعلى الديكة وهى تبشر بحلول النهار ، مما يجعلنا نعتقد أن الحياة فى المدينة عذاب لا نهاية له • ويصف يثوكريتوس فى قصيدة « السير اكوسيات » تبرم السيدتين براكسينوا وجورجو من زحام طرقات الاســكندرية وتدافع المــارة فيها كالخنازير الصــغيرة • وكان من نتيجــة الغرام بالريف وبالحياة الهادئة أن ابتكر يثوكريتوس فناً جــديداً تماماً على العصر الكلاسى هو « شعر الرعاة » ، وهو شعر يتغنى بحياة الرعاة فى الريف وما فيها من هدوء وراحة للبشر بعيداً عن الصخب •

ولكن هــذا النوع من الحياة الهادئة كان محبباً فقط الى مواطنى عصر الاسكندرية ولا يمكن تصور أن يميل اليها الاغريقى القديم الذى كان يعتبر الانفراد بنفسه نوعاً من الخيانة لمدينته ، والذى كان يعتقد أن الذهاب الى الريف هروب من مســئولية الحياة الجماعية • ان الحرية التى حصل عليهــا الفرد فى العصر السكندرى كنتيجة لزوال الأعباء

الجماعية عن كاهله كانت سبباً فى حبه للريف ، اذ لم تكن حياته فى مجتمعه الجديد مكرسة للخدمة العامة ولم يكن مطالباً أمام الدولة بشىء يذكر ، بل أصبحت حياته ملكاً له ومن حقه التصرف فى وقته كما يشاء • ان المحـروم من الاسترخاء يهفو للحصـول عليه وضـحية الصخب والضوضاء ينشد الهدوء والاسترخاء ، وكان الفرد فى العصر السكندرى سريع الملل محباً للتغيير وكان يبحث عما يجلب له المتعة الذاتية ولا يفكر فى أمور الدولة العامة لأن هناك من هو مختص بها • ومما لا ريب فيه أن الدول ذات الحجم المتزايد باندفاعها نحو التقدم لا تستطيع أن توفر لسكانها دوماً القرب من الطبيعة التى كان الانسـان يحيا بين أحضانها ناعماً راضى النفس ، ولا شك أن الانسـان مهما وجد فى الحياة الحضرية من متع ترضيه واهتمامات تشـغله الا أنه دوماً يسأم الرتابة ويحب من آن لآخر أن يرتمى فى أحضان الطبيعة الرؤوم •

سادسا : الاتجاه الرومانسى ــ الميل الى تصوير الواقع :

يقف الاتجاه الرومانسى فى الأدب على طرفى نقيض من الكلاسية التى كانت سـائدة ابان القرن الخامس ق•م• والكلاسية فى جوهرها تعبير عن روح الجمـاعة أو هى أيديولوجيـة المجموع ، فى حين أن الرومانسية فى مجملها تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الانسانية • وتستند الكلاسية فى تعبيرها الى الواقع الذى يعيشه المواطنون والى المجتمع الذى تبلورت قيمه ونظمه فى نفس المواطن للدرجة التى أصبح فيها مجـرد فرد يحس بأنه الدولة ، أما الرومانسية فتستمد تعبيرها من فكرة الفرد عن حياته التى يحياها ومن تصوره الذاتى لواقع المجتمع الذى يعيش فيه • ولا مجال فى الكلاسية للتعبير عن العواطف الذاتية أو الافصاح عن النزعات الفردية بل ان الاقدام على التعبير عن مثل هـذه النزعات يعد خيانة لروح الجماعة وهروباً من المسئولية المشتركة ، أما الرومانسية فتفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية

من أجل تأكيد ذاتية الفرد وتحرره من سطوة المجموع وربقة الالتزامات ومن أجل اعلان اسـتقلاله المنشود • والكلاسية نظرة شـجاعة الى مشـاكل المجتمع وتحمل للمسـئولية ومواجهة للعقبات بروح ايجابية متحفزة ، لكن الرومانسية تتحاشى الالتحام والاضطلاع بالمسـئولية وتهرب عندما تحدق بها الصعاب وتجد الملاذ فى الارتداد الى الذات وترى ضالتها المنشودة فى ايجاد حل ذاتى لكل مشكلة فردية ولا تعنيها الحلول الجماعية ولا يهمها أن توصم بالسلبية •

ومن المظاهر التى تنتمى للاتجاه الرومانسى الخيال والشـجن والرقة الزائدة التى تبلغ حد الاصطناع وعدم التمسك بالعقلانية المجردة والتمادى فى العاطفة ، وقد يمتد التعاطف فيها الى الحشرات والنباتات والجمادات ويصل الى حد توجيه الحديث اليها ، وأحيانا يسـود فيها الاعتقاد بأن الأشـجار ذات أرواح ومشاعر وأنها تعشق وتحزن مثل البشر والا ما ذبلت وسقطت أوراقها بعد نضارة وايناع ، هـذه الرقة الزائدة لا وجود لها فى الكلاسية التى لا تحبذ اصطناعها لو كان من الضرورى اخراجها الى حيز الوجود • ولقد ظهر الاتجاه الرومانسى فى العصر السكندرى نتيجة لظهور شخصية الفرد ونموها وانسلاخه تدريجيا عن الجماعة ، ولدينا من نتاج هـذا الاتجاه الكتاب الثالث من ملحمة أبوللونيوس الرودى ، الذى يحلل فيه المؤلف بدقة ومهارة تثير الاعجاب نفسية بطلته « ميديا » ويشرح كل الأعراض التى انتابتها بعد وقوعها فى غرام البطل ياسون ، فلم يسبق لأى كاتب قديم أن شرح عاطفة الحب وحللها على هـذا المستوى الرفيع أو تتبع نموها فى نفس المحب وآثارها بمثل هـذا الابداع والتألق • ولدينا كذلك قصيدة « سيمايثا » التى يصور فيها يثوكريتوس كيف وقعت بطلته فى حب الشـاب الجميل دلفيس الذى غرر بها ثم هجرها ، ويتتبع فى اسهاب غير ممل ولا مخل ما أصاب تلك العاشقة المعذبة من جراء هجر حبيبها بتفوق واضح وتمكن يدعو للاعجاب • ونجد فى هـذا المجال أيضاً مقطوعة الحب التى نشرها الأستاذ جرنفل (شعر الاسكندرية ، ص ١٠٢)

وهى قصة حب بالغة الرقة الى حد الاصطناع ، ورغم جمال تعبيراتها وصورها فهى لا تخلو من التبذل أو الصراحة الجارحة . لكننا ينبغى أن نلفت النظر الى أن هذا الاتجاه الرومانسى الذى نما فى عصر الاسكندرية يختلف فى عدة أوجه عن الرومانسية الأوربية فى ألمانيا وفرنسا ، بحيث لا يمكننا أن نطلق عليه بحال من الأحوال اسم « المذهب الرومانسى » .

والى جانب الاتجاه الرومانسى نجد ميلا واضحاً وقوياً من جانب كتاب العصر الى تصوير الواقع المجرد والاستمتاع بهذا الى حد كبير ، ولم يكن هذا الميل الا نتيجة لزوال المفهوم المثالى والبطولة التقليدية عصراً ومفهوماً : فليست البطولة عند أدباء العصر السكندرى هى البطولة الجسدية الخارقة بل هى البطولة الواقعية العادية . وكان أدباء العصر السكندرى جميعاً يجدون لذة وشغفاً فى تجريد الأساطير القديمة من كل جلالها وسموها ومن عناصر البطولة التقليدية ويتفننون فى وصف الواقع بحذافيره وتفصيلاته ، ذلك أن البطولة كما عرفها قدامى الاغريق وتغنوا بها لم تكن تستهويهم على الاطلاق بقدر ما سلبت لبهم تفاصيل الحياة اليومية والتصرفات المألوفة . فنجد أبوللونيوس على سبيل المثال يصور لنا ياسون فى ملحمته الأرجوناوتيكا كبطل عصرى واقعى بعيد تماماً عن مقاييس البطولة الهومرية ، ورغم أن معاصرى أبوللونيوس قد عابوا عليه الاتجاه الى نظم الملاحم الا أنهم دون شك قد أعجبوا فى قرارة أنفسهم بتصويره لياسون لأنه تصوير يتفق مع مفهومهم للبطولة . وفى مليحمة هيكالى لكاليماخوس نجد المؤلف لا يهتم بما قام به ثيسيوس العظيم من أعمال خارقة كالقضاء على ثور ماراثون بل يجد ضالته المنشودة فى الفترة التى فرغ فيها البطل من أحد أعماله الأسطورية وتهيأ لعمل جديد ، فيسرد علينا بشغف قصة عادية عن استضافة سيدة عجوز تدعى هيكالى للبطل دون أن تعرف شخصيته ، ويصف لنا بطله الذى تعمد أن يجعله مثل أى رجل من عامة الناس

لا يكاد يتميز الا حينما يتحدث حديثاً يفهم منه أنه ربما كان البطل العظيم ثيسيوس • ترى هل كان شعراء العصر السكندرى يرغبون فى تصوير أبطالهم فى اللحظات العادية التى لا تبدو فيها عليهم سيماء البطولة ، ليظهروا لنا جوانب حياتهم اليومية التى لا تبدو غريبة بالنسبة لنا ؟ ان هذا ليس ببعيد عن الاحتمال لو أخذنا فى الاعتبار أننا فى عصرنا الحديث نجد سعادة غامرة ونحس بفضول شديد لمعرفة تفاصيل الحياة اليومية والتصرفات العادية للمشاهير والعظماء ، بل ان تفاصيل هذه الحياة اليومية تهمنا أكثر مما تهمنا منجزات هؤلاء المشاهير : وذلك لأن العامل المشترك بيننا وبين العظماء هو التصرفات العادية وليس الانجازات التى تجعلهم متميزين عنا بعيدين حتى عن أحلامنا •

وفى مليحمة « هيراكليس طفلا » يترك يثوكريتوس كل الخوارق الاثنى عشر التى قام بها أبو الأبطال هيراكليس ولا تشده سوى الفترة التى كان فيها البطل طفلا رضيعاً ، وقبل أن يصف قتل الطفل المعجزة الثعبانين اللذين أرسلتهما هيرا الحاقدة نجده يسهب فى وصف البيئة المحيطة بمنزل والد البطل ، وهو منزل بسيط لا يعطى احساساً بالعظمة بل تبدو عليه مسحة من الخشونة الريفية • ثم يصف ارضاع ألكمينى للطفل هيراكليس ولأخيه التوأم كى يعطى الاحساس بالأمومة العادية المألوفة ويقتل كل أثر لأى احساس يكون قد تولد لدينا بالبطولة ، فاذا ما سرد علينا بعد ذلك قصة قتل الطفل هيراكليس للثعبانين لا نحس بالانبهار • ان هذه الأمثلة وهى قليل من كثير تعطى للمرء انطباعاً بأن شعراء الاسكندرية تعمدوا تجريد الماضى من كل ما يحيط به من عظمة وجلال وسمو •

لقد اختلف مفهوم البطولة فى عصر الاسكندرية عن العصور السابقة له بحيث لم تعد البطولة هى القوة الجسدية الخارقة (بطولة

هيراكليس فى الأساطير أو بطولة أخيليوس فى الملاحم) ، أو التفوق الفكرى والذكاء (بطولة أوديسيوس) ، أو الســمو الخلقى (بطولة التراجيديا) ، بل أصبحت البطولة هى الجهد الانسانى العادى وأصبح مثال البطل لا يختلف كثيراً عن الفرد العادى • فلماذا نرى البطولة فى أناس يتميزون عنا ولا نراها فى أنفسنا أو فى أمثالنا ممن يعيشون معنا فى نفس العصر والمكان ؟ حقاً لم يعد الجلال والسمو فى عصر الاسكندرية مما يبهر أو يلفت الأنظار بل أصبح محور الاهتمام العام كل ما هو بسيط وواقعى • وليس أدل على صدق هــذا من أن العصر السكندرى قد سبقته أفكار لمذاهب فلسفية عديدة كان هدفها تجريد الفكر اليونانى الكلاسى من السمو والمثالية والاتجاه به نحو الواقعية ، وحتى لو كان الفكر الكلاسى لا يبدو مثالياً بالنسبة لمواطن القرن الخامس ق•م• بل يبدو له أقرب ما يكون لواقع مجتمعه أو تعبيراً عقلانياً عن اتجاهاته ، الا أن مثل هذا الفكر سيبدو دون ريب مثالياً مغرقاً فى مثاليته بالنســبة لمواطنى العصر الهيلنستى وبالتالى بعيد التحقيق أو عسير التطبيق الى الدرجة التى تدفع الناس الى النفور منه •

ولنا أن نقول دون شطط فى الرأى أن هــذا الاتجاه الواقعى الذى بدأ بنظريات المدارس الفلسفية وتجلى واضحاً فى كثير من مؤلفات العصر السكندرى ، قد ظهر قبلا فى الأدب الاغريقى الكلاسى المتأخر عند يوريبيديس الذى كان أول من نحا نحو الواقعية فى أفكاره وفى تصويره للشخصيات المسرحية وفى نظرته نحــو الآلهة ، فكان بذلك مبشراً بعصر الاسكندرية قبل وجوده بزمن طويل • قصارى القول لم يعد العصر السكندرى ــ الذى ظهر فيه الاتجاه الرومانسى ونما فيه الميل الى تصوير الواقع المألوف ــ عصر البطولات والخوارق بل غدا عصر العلم والرغبة فى الوقوف على أرض الواقع •

سابعاً ــ الحب فى مؤلفات العصر :

سبق القول بأن مواطن العصر الكلاسى فى ظل نظام دولة المدينة

لم يكن يفكر فى عواطفه الشخصية أو يستسلم لذاتيته ، وحتى ان جرؤ على هـذا التفكير فانه لم يكن بقادر على التعبير عنه صراحة ، لذلك ظل الحب عاطفة شخصية ذاتية أهملها الكتاب لأن الناس أنفسهم قلما كانوا ينشغلون بها أو يقيمون لها وزناً • لكن ما أن تغير المجتمع وانعدمت الروابط بين الفرد والدولة وظهرت شخصية الفرد حتى بدأ الشـعراء يقبلون على تصـوير عاطفة الحب بكثرة وعلى وصف شتى أنواعه : العذرى والشهوانى ، المحرم والمشروع • وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت مؤلفات العصر تزخر بالحب وعلت فى الأفق أصوات كثيرة مطنطنة تدعو للحب وتحبذه ، تشكو منه أو ترفعه الى مرتبة التقديس وتدعو البشر جميعاً الى الارتشاف من نبعه ، كما لو كان وليمة حافلة يدعى لحضورها الجميع ويأبى الداعى أن يخرج أحد منها خالى الوفاض• لكن حينما يصبح الحب بهـذه الطريقة فليس لنا أن نتوقع من الشعراء تعبيراً صادقاً عن العواطف ، بل لنا أن نعتقد أن كثيراً من الأدباء قد طرقوا باب الحب على أساس أنه نزعة جديدة أو موجة ينبغى اعتلاؤها قبل فوات الأوان • فالملاحم والمليحمات قد اتخذت الحب موضوعاً لها والابجرامات جعلت الحب ميداناً مفضلا والقصائد الرعوية دخلت أيضاً هـذا السـباق المحموم ، ومن النادر أن نجد عملا واحداً من نتاج العصر السكندرى يخلو من اشـارة لتلك العاطفة • فلقد استباح أدباء عصر الاسـكندرية كل الأساليب من أجل ابراز الحب فى مؤلفاتهم ووضعه فى مكان الصدارة ، واستنفذوا تقريباً كل الأنماط الممكنة كاطار توضـع داخله صـورة الفتى المدلل اروس أو أفروديتى ربة الحب المسيطرة على القلوب • ويمكننا أن نقسـم ألوان الحب التى سادت مؤلفات هـذا العصر الى ثلاثة أنواع :

(أ) الحب العذرى أو العفيف :

وكان هذا النوع من الحب الذى عرف فيما بعد باسم «الأفلاطونى» نادراً ما يستهوى الكتاب ولكنه ظهر فى مؤلفات العصر السكندرى

كنتيجة للاتجاه الرومانسى الذى بدأ يظهر فى الأدب ، ولما كان الحب وفقاً للاعتقاد الشائع يتم من أول نظرة بسبب سهم اروس الفتاك فان الكتاب لم تتح لهم الفرصة لوصف فترة ميلاد العاطفة فى قلب كل محب ، لذلك اقتصروا على وصف فترة الاتصال العاطفى التى تكون عرضة لتحكم الغرائز والأهواء • ومن أمثلة الحب العذرى نجد قصة الحب العنيف الذى أحست به ميديا تجاه ياسون فى ملحمة الأرجوناتيكا لأبوللونيوس ، وفى قصيدة الكيكلوبس لثيوكريتوس نلمح صورة حب شفاف بين وحش كاسر أصبح كالحمل الوديع وبين عروس البحر الفاتنة جالاتيا • وفيما عدا ذلك لا يمكننا الجزم بأن هناك أمثلة أخرى فى هذا المجال لأن الشعراء أحياناً قد يلجأون للرقة والعذوبة كى يخفوا وراءها رغباتهم الشهوانية ، كما هو الحال فى عدد من ابجرامات أسكليبياديس وكثير من ابجرامات ملياجروس •

(ب) الحب الشهوانى :

وكان هذا النوع هو القاعدة فى مؤلفات العصر والنمط الذى استهوى الشعراء والكتاب دون سواه ، ولم يكن الجنس فى هذه المؤلفات كما ذهب البعض تعبيراً عن الحب بين أبناء الطبيعة باللغة التى تناديهم بها أحاسيسهم ، بل كان فى مجمله اشتهاء حسياً ونهماً لا يرتوى وجذوة متقدة لا يخمد لها أوار • وتعتبر ابجرامات أسكليبياديس أول مثال على هذا النوع من الحب لأنها تزخر بشواهد عديدة تثبت أن الحب هو الجنس والجنس هو الحب ، ورغم أن ملياجروس شاعر الابجرامة المتأخر كان يحاول دوماً تغليف الجنس بالرقة ونثر الورود وأكاليل الزهور على محظياته العديدات ، الا أننا نحس أن الجنس لديه هو القاعدة أيضاً • ومن العسير علينا أن نصدق أن أياً من الشاعرين قد أحب فعلا وباخلاص كل هذا العدد من المحظيات ، كما أنه من غير المعقول أن أياً منهما لا يشعر بالغيرة ولسعتها اطلاقاً حينما يعلم بوجود منافس له يرتمى بين أحضان خليلته ! فأسكليبياديس لا يفعل

أكثر من التوســل الى القنديل بأن ينطفىء حينما ينغمس غريمه مع محظيته فى المتعة وملياجروس يحذر البعوضة من ازعاج عشيق محظيته وهو نائم بين أحضانها • ان هــذه الأمثلة تدفعنا رغم جمال الصورة الشعرية الى التقزز من سلوك المحبين ، ولكن ينبغى الحذر فى اعتبار هــذه الأمور على أنها حدثت بالفعل لأن الشعراء قد يقولون ما لا يفعلون بل كثيراً ما هم كذلك فى الحقيقة • ولدينا العديد من الأمثلة الأخرى مســتمدة من ابجرامات كاليماخوس وكلها تنطق بالاشتهاء الحسى ، وكذلك من قصائد ثيوكريتوس التى تزخر بالحب الجنسى ، ومن ميميات هيرونداس نسوق قصــة الغيورة بيتينا التى تعشق عبدها جاسترون وعندما تشك فى خيانته تأمر بجلده •

لقد كان الجنس فى كثير من هــذه المؤلفات صريحاً الى درجة الفحش وفى قليل منها يرتدى غلالة من التظرف والتأنق فى محاولة من المؤلف لتحقيق التعبير الأدبى الجميل • وكما سبق القول كان الاغريق فى ذلك العصر يؤمنون بأن الحب يحدث من أول نظرة وكان مرد هــذا اعتقادهم بأن سببه قوة خفية هى اروس أو أفروديتى ، وكان هــذا الاعتقاد ضاراً بالأدب لأنه لم يمكن الكتاب من تتبع عاطفة الحب فى قلوب المحبين أو وصف آثارها داخل النفس البشرية • ولم يفلح فى النجاة من هــذا المأزق سوى أبوللونيوس الذى نجح فى وصف مشاعر حب بطلته ميديا ، وسوى ثيوكريتوس الذى أفلح فى التعبير عن عذاب سيمايثا من جراء الحب الذى ســيطر عليها ، وكان من نتيجة هــذا الاعتقاد أيضاً أن أصبح الجنس هو المرحلة الحتمية التالية للحب الذى حدث من أول نظرة • كذلك ساد لدى اغريق هــذا العصر اعتقاد آخر روجوه عمداً فى أشعارهم وهو أن الحب نداء الطبيعة وتعبيرها الفطرى وأنه أمر الهى يتعرض من لا يستجيب له للعقاب الرادع من قبل الآلهة : ففى القصــيدة الثالثة والعشرين من ديوان ثيوكريتوس وعنــوانها « العاشق » نجد المؤلف يسهب فى وصف قسوة الفتى الجميل الذى

أحبه البطل العاشق ، وعندما يبلغ اليأس بالبطل كل مبلغ يشنق نفسه أمام باب حبيبه القاسى وهو يعلن أن الأيام ستنتقم له من محبـوبه الجميل ، وفى الصـباح يرى الغلام جثة عاشـقه فلا يعيرها التفاتا أو يتأثر من منظرها ويذهب كالمعتاد الى ساحة الألعاب الرياضية ويقفز فى حوض السباحة ، وهنا يسقط فوقه تمثال الاله اروس ويسحقه ، ويرتفع من المـاء الأحمر الذى اختلط بدمه صوت يقول : « اهنئوا ياأحبة ! لقد هلك القاسى الذى لا يلين ، تعلموا يامن قدت قلوبكم من الصخر أن تحبوا من يحبونكم • ان الله يعزف كيف ينزل العقاب بكم » • (شعر الاسكندرية ، ص‌ص ٧٧ — ٧٨) •

ان مثل هـذه الاعتقادات قد تسببت فى اغلاق الطـريق أمام أنواع الحب الأخرى وجعلت الجنس هو الغاية والمرام •

(جـ) حب الغلمان :

وهو نوع جديد من الحب انتشر وذاع فى العصر السكندرى ، ولقد حاول الكثيرون أن يثبتوا أنه كان موجوداً فى العصر الكلاسى منذ أيام هوميروس ، فى حين حاول البعض أن يبرهن على أنه لم يظهر الا عند اختلاط الاغريق بالشرق • وكانت حجة الأولين أن انتشـاره فى العصر الكلاسى كان بسبب انغلاق المجتمع الاغريقى وتدهور مركز المرأة فيه ، ولقد فسروا كل علاقات الحب والصداقة التى وردت فى الأدب أو فى الأسـاطير أو فى التاريخ على أنها علاقات قائمة على أساس العشق erôs الجنسى بين الرجل والرجل • أما حجة الآخرين فكانت أن أصل هـذا الحب شرقى (مثل قوم لوط وسدوم قديماً) وأنه انتقل الى الاغريق بعد مخالطتهم لشعوب الشرق •

والحق أن هـذا الموضوع شائك ومن الصعب الوصول فيه الى قرار علمى لعدم وجود شواهد قاطعة أو مقنعة ، ومع ذلك فليس أمامنا

سوى التسليم بوجود كثير من ألوان الحب الشـاذ منذ عصر سحيق للتاريخ البشرى وأن هـذا الحب الغريب مازال موجوداً حتى الآن بين ظهرانينا سواء بصورة محدودة فى بعض المجتمعات أو بكثرة فى مجتمعات أخرى ، وأنه ليس أو لم يعد بالأمر المستغرب • ولكن ما يعنينا هنا هو درجة انتشـاره لا وجوده ، وهو تقبل العصر له دون انزعاج لا وجوده على اسـتحياء • ومن هـذه الوجهة لنا أن نقول عن ثقة أن العصر السكندرى قد تقبل هـذا النوع برحابة صـدر حتى صار منتشراً لا يدعو التصريح به الى الخجل • ويكفى أن نعلم أن هـذا العصر هو الذى بحث ونقب كى يجد أمثلة للحب الشاذ عند الأقدمين ليثبت بها أنه ليس نسيجاً وحده فى هـذا المضمار ، غير أنه فى بحثه عن هـذه الأمثلة لم يكن منصفاً فى معظم الأحوال بل أخذ بالظواهر دون تمحيص أو اعمال للعقل •

ولقد وجد أدباء العصر السـكندرى فى هـذا النوع من الحب مجالا جديداً وموضـوعاً مبتكراً يسهبون فيه ويتظرفون فى سرده : فهناك عدد من ابجرامات أسكليبيادس تتغنى بعشق الغلمان المليحين وتتوعدهم بالويل والثبور لأنهم أوصـدوا قلوبهم أمام العشق • أما ثيوكريتوس فقد خصص قصائده الأيولية الثلاث (٢٩ — ٣١ من الديوان) للحديث عن حب الغلمان ، أما قصائده الأخرى فلا تخلو من التغنى بهذه العاطفة دون مواربة أو اخفاء • على حين أفرد كاليماخوس عدداً كبيراً من ابجراماته لوصف الفتيان المليحين ومطاردة عشاقهم المتيمين لهم وأنينهم وشكواهم من صدهم •

مما سبق يتبين لنا أن شـعراء الاسكندرية قد استباحوا من أجل التعبير عن الحب كثيراً من التكلف والتظرف الذى يتنافى مع العاطفة الصادقة ، وصوروا فى مؤلفاتهم عدداً كبيراً من آلهة الحب المشاكسة المطنطنة التى تظهر وتحلق فى كل من الفن والأدب وجعلوا الحب ترنيمة

تعلو بها أصوات رقيقة لطيفة حيناً وصريحة الىدرجة الفحش حينا آخر .
(شعر الاسكندرية ، صص ٩٣ ، ٩٨) .

ثامنا — هجرة الملاحم والقصائد الطويلة :

كان عزوف شـــعراء العصر السكندرى عن نظم الملاحم اتجاهاً له ما يبرره ، ذلك أن القصيدة الطويلة لا تسمح بالصقل الذى كان سمة مميزة لأدباء ذلك العصر بلا اســـتثناء . ومعظم الملاحم الاغريقيـــة — سواء ما وصلنا منها أم فقد — قد نظمت فى عصر الالهام والابداع التلقائى ، وهو العصر البطولى القديم الذى كانت أحداثه تلهم الشعراء فيتدفقون بأشـــعار سامية يمجدون فيها أوطانهم وتراثها العظيم . ولا يحق لنا أن نتوقع وجود شاعر من هذا الطراز فى العصر السكندرى ، فأدباء هذا العصر بوجه عام فنانون فى الصياغة لكنهم يفتقرون الى الالهام والتدفق الشعرى ، لذلك عزفوا عن الأنماط القديمة اما لاستحالة تقليدها كما هو الحال مع الملاحم الهومرية أو لاختلاف ظروفها وبيئتها عن ظروف مجتمهم كما هو الحال فى التراجيديا التى سادت فى أثينا خلال القرن الخامس ق.م.

ولقد نشأ فى هـــذا العصر اتجاهان : الأول تزعمه كاليماخوس سيد البرناس السكندرى ، وهو اتجاه ينادى بنبذ الملحمة على اعتبار أنها نمط أدبى قد أدى دوره وانتهى ولم يعد ملائماً لطبيعـــة العصر ولا اتجاهاته ، ولم يكن شـــعراء الاسكندرية بحاجة الى من يحثهم على هجرة الملاحم لأن معظمهم كان قاصراً بطبعه عن نظمها . وتزعم الاتجاه الثانى أبوللونيوس الرودى الذى نظم ملحمة الأرجوناوتيكا متحدياً بذلك جمهرة من زملائه ضارباً بآرائهم عرض الحائط ومخالفاً اتجاهاتهم النقدية . لكن أبوللونيوس رغم تأليفه لملحمته على غرار الملاحم الهومرية الا أن الأمر انتهى بها الى أن تصبح ملحمة هومرية قالباً وسكندرية قلباً ، فهى لا تشبه الملاحم الهومرية الا فى لغتها وأوزانها أما موضوعها

ومواصفات بطلها فكانا يسيران وفقاً لاتجاهات التأليف فى العصر السكندرى الى حد كبير • فلقد كان الخلاف الناشب بين كاليماخوس وأبوللونيوس يدور أساساً حول نظم الملاحم لا على مواصفات الملحمة •

وبعد الأرجوناوتيكا لم يفكر أحد من شعراء الاسكندرية أن يطرق هذا الباب مرة أخرى ، ومعنى هذا أن الملحمة لم تكن بالنمط الأدبى الذى يستهوى أدباء الاسكندرية أو قراء العصر المتذوقين للأدب • لذلك ابتكر الشعراء نمطاً أدبياً آخر يلائم ميولهم الوصفية ويتفق مع ميلهم الى الصقل وهو المليحمة ، وكانت المليحمة من ناحية أقصر بكثير من الملحمة فلم تزد فى طولها على ثلاثمائة بيت الا قليلا ، وهو حيز يستطيع الشاعر فيه أن يعبر عن فكرته خير تعبير وأن يصقل عمله ويشذبه الى أبعد مدى ، ومن ناحية أخرى كان هذا النمط الجديد يرضى غرور شعراء العصر من حيث أنه ابتكار لعصرهم وليس تقليداً لأسلافهم •

وما دمنا بصدد الابتكار فانه يمكن القول بأن الأدب السكندرى قد ابتكر طرقاً جديدة للتأليف مثلما ابتكر أنماطاً أدبية جديدة : فاذا تناولنا الأنماط الجديدة وجدنا فى مقدمتها الشعر الرعوى الذى ابتكره ثيوكريتوس ، والأشعار المصورة التى برع فيها سيمياس الرودى ، والمليحمة التى أحسن صياغتها ثيوكريتوس • كذلك طورت فى هذا العصر فنون قديمة بحيث أصبحت كالجديدة : مثل الابجرامة التى كانت فى عصر سيمونيديس قاصرة على شواهد القبور فغدت فى عصر الاسكندرية تتناول الحب والرثاء والاهداء والوصف والمديح والهجاء ، وكانت أقصر ما تكون فى العصر الكلاسى فازداد طولها الى ما يزيد عن ٢٠ بيتاً • لقد اختفت الملحمة ولكنها عادت على يد أبوللونيوس بصورة مختلفة سواء فى مواصفاتها أو موضوعها أو شخصية بطلها ، واختفت الدراما ولكن ظهرت الميميات كبديل لها وهى قصائد قصيرة الى حد ما تتم فيها بلورة مشهد كوميدى قصير عن طريق الحوار الدرامى ، وكانت

الميميات على أيام سوفرون محدودة فى شكلها وموضوعاتها فتنوعت وغدت أكثر ثراء فى العصر السكندرى : اذ خلق منها ثيوكريتوس أعمالا أدبية رائعـــة وحاكى فيها هيرونداس الواقع الصارخ بحذافيره فى مهارة واتقـــان .

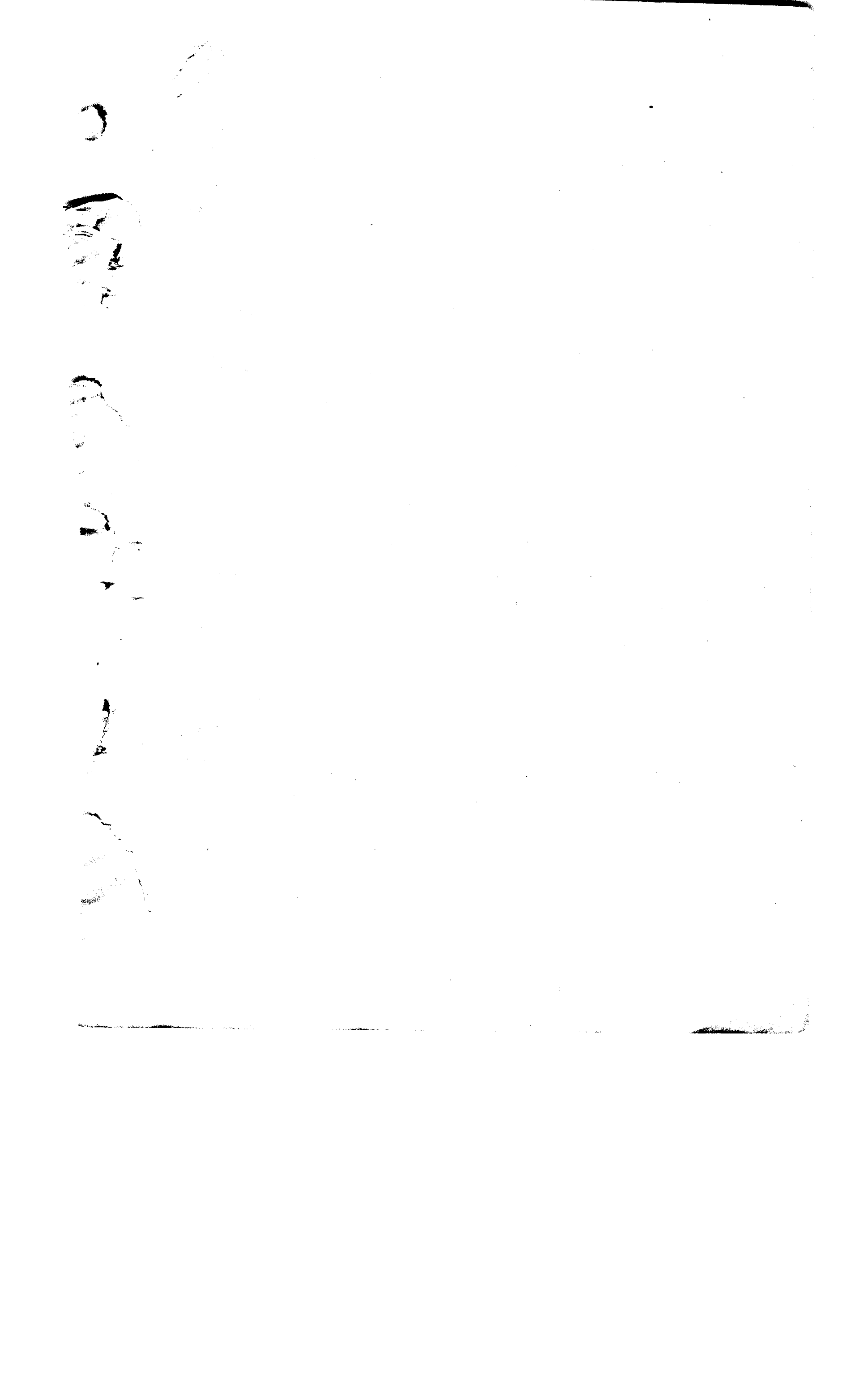
كلمـــة أخـــيرة :

لم يقف الأدب السكندرى مكتوف الأيدى أمام ما سبقه من تراث رغم سمو هـــذا التراث ورغم عظمته وأصالته ، ولكنــــه جدد وابتكر واجتهد وحاول فى شتى المجالات واتخذ موقفاً ذاتياً فى كثير من الأمور ، وفرض رغم كل المعوقات والتحديات شخصيته المستقلة . ولم نكن فى هـــذا الفصل نثنى على الأدب السكندرى أو ننحى عليه باللائمة فقط لم يكن هـــذا هدفنا ولا هو من وظيفة الباحث ، بل كنا نلقى الضوء عليه من جميع الجوانب نحلل اتجاهاته ونعيد تقويمه ، لا نظلمه فنقارنه دوماً بالأدب الســـابق عليه فنغمطه حقه ، ولا نشيد به فنتناسى أوجه العجز والقصور فيه ولا نرى سوى مواطن كماله ، بل نضعه فى مكانه الصحيح مع محاولة تذوقه وابراز نواحى الجمال فيه وشرح أسباب قصوره . ونحن فى هـــذا نقتفى خطى المؤرخ النابه بوليبيوس — وهو ابن هـــذا العصر أيضاً — فنذكر كلمتـــه الجامعة ذات الدلالة كختام لهذه الدراســـة .

« ان الانسان الخير ينبغى أن يكون محباً لأصدقائه ولبنى جلدته ولوطنه ، لكنه عندما يتصدى لكتابة التاريخ فعليه أن يتناسى كل مشاعره الشخصية ، واذا اقتضت الحقيقة أن يثنى على أعدائه وأن ينحى باللائمة على أصدقائه فعليه أن يفعل ذلك (دون أدنى تردد) » .

(F. A. Wright, op. cit., p. 137)

* * *





الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
— فانوكليس	٥٦
— ســـــيمياس	٥٧
كتاب النثر والعلميون	٥٨
— يوكيديس (= اقليدس)	٦٢
حواشى الفصل الأول	٦٧

الفصل الثانى : فترة الأدب السكندرى

٨٣ — ٢٢٣

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الثالث : فترة الاضمحلال (٢٢٠ — ٣١ ق٠م٠)
٢٢٥ — ٢٦١

الفصل الرابع : خصائص الادب السكندرى
٢٦٣ — ٢٩٥

رقم الايداع بدار الكتب المصرية ٤٧٣٦/١٩٨٥

